محاولات جديدة في النقد الإسلامي

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
المقدمة
الشعر العربي والرؤية الاسلامية الجديدة
شيء عن الالتزام في شعر جلال الدين الرومي
قراءة في شعر الحسناوي
(الاسلامية) في رواية (عمالقة الشمال)
تقديم لـ (حدث في شارع الحرية)
قاص اخر على الطريق
(١) تعريف
(٢) تقديم

مقدمة

هذا هو الكتاب الرابع في ميدان النقد الاسلامي ، رجوت ان اقطع به خطوات متواضعة اخرى في هذا الدرب الطويل.

مع الشعر والقصة هذه المرة ..

ثمة محاولات متفرقة جمعها كتاب (في النقد الاسلامي المعاصر) تناولت فيها ، تنظيرا وتطبيقا ، مسائل متنوعة عن المنهج والاسلوب المقارن وطرائق التعبير ... عن المسرح والرواية والموسيقى والفنون التشكيلية ...

اما الكتابان التاليان فقد اتجها الى نوع من التخصص ... حيث انصرف احدهما ، وهو (فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر)[1] ، الى المسرح ، ويمم الاخر ، وهو (الطبيعة في الفن الغربي والاسلامي) ، صوب الفنون التشكيلية وبخاصة الرسم.

وها قد حان دور الادب في مجالي الشعر والقصة.

تحليل لموقف الشعر العربي من الرؤية الاسلامية الجديدة ... حديث عن الالتزام في شعر جلال الدين الرومي ... قراءة في شعر الحسناوي ... عرض للاسلامية في رواية (عمالقة الشمال) ... تقديم لمجموعة قصصية باسم (حدث في شارع الحرية) ... وتعريف بواحد : من قصاصينا الشباب ... تلك هي المواضيع التي يتضمنها هذا الكتاب ... وفيها – كما يلحظ القارىء – محاولة لتغطية زمنية لانماط من معطيات الشعر بين القديم والوسيط والحديث ... وفيها – كذلك – توزيع متعمد في مجال القصة ما بين الرواية والقصة القصيرة.

وهي جميعا ليست سوى نماذج محدودة تم التعامل النقدي معها من منظور اسلامي ... وهي مجرد خطوات اخرى على الطريق ... يسري عليها ما سرى على الكتب التي سبقتها ... تجارب تضم في حناياها الخطا والصواب ... لكنها – على اية حال – محاولة مخلصة لاضافة موازين وقيم ورؤى نقدية الى رصيد هذا الحقل الذي يكاد ان يكون جديدا على الفكر والفن الاسلامي المعاصرين.

خطوات متعثرة في طريق طويل ... ما احرى المسلمين اليوم ان يواصلوا السير عليه ، ولا بد انهم بالغون نهايته في يوم من الايام ...

ومن الله – وحده – الرضا والقبول.

الموصل / عماد الدين خليل

---

(١) كنت قد اصدرت كتابا نقديا صغيرا بعنوان (مشكلة القدر والحرية في المسرح الغربي المعاصر) .. وهو لا يعد ان يكون فصلا في كتاب (فوضى العالم ...) الذي صدر بعد ذلك بسنوات عن (مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٨).

الشعر العربي والرؤية الاسلامية الجديدة

(١)

ما اكثر ما يلح هذا السؤال في ذهن المسلم المعاصر : اذا كان الاسلام يطرح – من خلال قرآنه وسنة نبيه – رؤية جديدة للكون والعالم والحياة والانسان ... رؤية تجيء بمثابة انقلاب شامل على كل الرؤى المحدودة ، والمواضعات البشرية القاصرة ، والاعراف والقيم والتقاليد والممارسات المبعثرة الخاطئة ... رؤية تبدأ انقلابها هذا في صميم الانسان ... في عقله وقلبه وروحه ووجدانه وغرائزه وميوله ونوازعه لكي تصوغه انسانا جديدا ، قديرا على تحقيق التغيير المطلوب في بنية العالم وصيرورة الحركة التاريخية ... من اجل تمكين الجماعة المؤمنة من تسلم زمام القيادة والعودة بالتجربة البشرية الى مجراها الاصيل المتوافق مع سنن الكون والعالم والحياة والانسان ...

فلماذا لم تنعكس هذه الرؤية الكبيرة الشاملة في معطيات المسلمين التعبيرية عبر اجيالهم الاولى ، وهم ما هم عليه من ايمان جاد ، والتزام عميق ، وتمثل لهذه الرؤية ما بلغت الاجيال التالية عشر معشارها ؟

من اجل العثور على الجواب رجعت الى هذه المعطيات في مظانها الاولى : دواوين شعر وتواريخ ادب ... وقفت عندها واطلت الوقوف ... ساعات طويلة مع حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير والخنساء وكعب ابن مالك ولبيد بن ربيعة ... مع ابن الاثير في اسد الغابة والاصفهاني في الاغاني والمعري في زهر الاداب والجمحي في طبقات الشعراء والضبي في المفضّليات وابن عبد ربه في العقد الفريد وقدامة بن جعفر في نقد الشعر وابي تمام في الحماسة وابن رشيق في العمدة ... وغير هؤلاء وهؤلاء ...

ثمة لمحات كالبرق الخاطف تعكس الرؤية الجديدة الممتدة بلا حدود ... ولا شيء وراء هذه اللمحات سوى ركام من الشعر يمثل امتدادا لعصور الجاهلية في (تكنيكه) وكثير من مضامينه ... فاذا ما حاول تمثل المضامين الجديدة وما تفرضه من صيغ تكنيكية مختلفة لم يطق مجاوزة (القديم) ، وبقي متشبثا به يسير بمحاذاته ، ربما خوفا من السقوط في المجهول ... وربما عدم تمكن من (تنفيذ) الرؤية الجديدة في مجرى العطاء الشعري ... وربما ... من يدري ؟

هذا ما كان يحدث في العقود الاولى ... تلك المرحلة التاريخية الخطيرة الحاسمة التي غيرت فيها طلائع الاسلام ... العالم ... عالم يتغير ... بكل ما تحمله العبارة من ثقل وامتداد ... ولكن الفن الذي يتوجب ان تنعكس عليه مجريات التغير الكبير لم يتحقق !!

واذا كان شعراء الجيل المخضرم ... جيل الانتقال بين الجاهلية والاسلام ، غير قدير على تحقيق القفزة النوعية المنتظرة بسبب الإلف والاعتياد ... فما بال الاجيال التالية التي ولدت ونشات وعاشت في صميم التجربة الاسلامية ؟ انهم هم الاخرون كانوا يخطرون في محاذاة القديم ... لم يجرؤ احد منهم على القفزة التي ربما ما خطرت لهم على بال !!

(٢)

احتمالات عديدة يمكن ان يفترضها الناقد الحديث لتقديم جواب مقنع قد تخطىء وقد تصيب ، وقد ينضاف اليها فيما بعد ... كما سبق وان طرحت احتمالات اخرى واحتمالات ، ابرزها واشملها ولا ريب تلك التي قدمها الاستاذ محمد قطب في كتابه (منهج الفن الاسلامي)[١].

ومن بين هذه الاحتمالات – كذلك – ما ذهب اليه عدد من الباحثين المعاصرين (الحاجري في تاريخ النقد والبهبيتي في تاريخ الشعر والبصير في عصر القران والكفراوي في الجمود والتطور وجورجي زيدان في تاريخ ادب اللغة العربية ... وغيرهم) من (ان المسلمين انشغلوا بامر الدين الجديد وانصرفوا اليه ، واتكاوا في ذلك على قول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه) ويعقب ابن سلام الجمحي (فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته)[٢]. ويقول ابن خلدون في مقدمته (ثم انصرف العرب عن ذلك – اي عن الشعر – اول الاسلام بما شغلهم من امور الدين والنبوة والوحي ، وما ادهشهم من اسلوب القران ونظمه ، فاخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا. ثم استقر ذلك واونس الرشد في الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي عليه السلام واثاب عليه فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه)[٣]...[٤].

لكنا – تاريخيا – لا نجد فترة زمنية كف فيها الشعر عن العطاء ، عبر عصر الرسالة منذ لحظاتها الاولى وحتى لحاق الرسول الكريم عليه السلام بالرفيق الاعلى ، لكي نقول بان المسلمين انشغلوا بامر الدين الجديد فكفوا عن قول الشعر ... والاحداث الكبيرة لا تلهي الشعراء وتشغلهم ولكنها تشدهم وتبهرهم فيزدادون تدفقا ... ثم ان المسالة ليست مسالة توقف زمني عن العطاء الشعري ، ولكنها معضلة شعر يعاني من الهزال والهبوط الفني ظل يقال ، عبر لحظات

---

(١) المقدمة ص ٧–١٣ (الطبعة الاولى ، دار القلم ، القاهرة – ؟).

(٢) طبقات الشعراء ص٢٢ (طبعة دار المعارف بمصر).

(٣) المقدمة ص ٥٨١ (الطبعة الثالثة ، نهضة مصر).

(٤) د. يحيى الجبوري : الاسلام والشعر ص٣٠–٣١ (مكتبة النهضة ، بغداد –١٩٦٤).

الصراع المحتشدة ، وعبر ساعات السلم الهنيئة – على السواء – دون ان يكون ، الا نادرا ، بمستوى ما تتطلبه هذه اللحظات من ابداع ...

ومن بين الاحتمالات – كذلك – (ان الاسلام حرم اكثر الاعمال التي يجود فيها الشعر ، وتنشط القرائح ، كذكر الخمر ومغازلة المراة ، واثارة الضغائن والاحقاد والثار ... وقد تغيرت الحياة العامة ومثلها ، وتغيرت تبعا لذلك ، الدوافع التي بها ينشط الشعر ويتشجع الشعراء، فالاكرام والتشجيع الذي كان يلقاه الشعراء من الملوك واصحاب الثراء والسلطان قد حل محله زجر عمر (رضي الله عنه) عن المديح الكاذب ، والقول الذي يثير الحفائظ ويمس اعراض الناس)[1].

ويتهافت هذا الاحتمال ، بشقيه ، بمجرد ان نتذكر كيف ان الاسلام ، اذ سد نوافذ تتلقى منها شرايين الشعر الدم الازرق الفاسد فتتدفّق بالزيف والخديعة والكذب وتنفث نفسها المحترق ضد الانسان وقيم الانسان ... الاسلام اذ سد هذه النوافذ فتح – في المقابل – ابوابا عريضة واسعة على مصاريعها ، فتدفق عبرها الدم النقي القاني الى رئات لو عرفت كيف تتمثل الدم الجديد الصافي لحلقت في السماوات بألف جناح ، ولذهبت الى افاق بعيدة نائية ما حلم بها يوما شاعر من الشعراء او فنان من الفنانين ...

اما زجر المديح الكاذب وارغام قائليه على الكف عن تزيينه شعرا ... فثمة ما يقابله – كذلك – في قيم الايجاب : اعجاب الرسول عليه السلام وخلفائه الكرام رضي الله عنهم بكل قول جميل يتدفق صدقا وعفوية وصفاء .. واحتضانهم لكل شاعر يرفض الزيف والتزوير والكذب ... يتجاوزها الى معانقة القيم الجادة العميقة ، التي بشر بها الدين الجديد لصالح الانسان و(تعبيره) ... على السواء ... والوقائع كثيرة معروفة ، وليس من ضرورة –حتى– للاشارة اليها ...

وثمة ما يقوله الاستاذ خلف الله في (دراسات في الادب الاسلامي)[2] من ان (الناحية الروحية في الاسلام لم تزل اذ ذاك – اي في عهد الرسالة – في مستهلها ولم تكن قد نفذت بعد الى قلوب المسلمين في شكل قوي ملهم يفجر ينابيع الفن الرفيع) ...

فاما ان الروحية الاسلامية لم تنفذ ، زمن الرسول عليه السلام ، الى قلوب المسلمين ، فذلك امر مردود جملة وتفصيلا.

---

(١) الجبوري : المرجع السابق ص٣١–٣٢ وانظر بالتفصيل : ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الاصحاب ٣٤٦/١ (طبعة البجاوي – مصر) / المرزباني : الموشح ص٦٤–٦٥ (طبعة السلفية – مصر) ، ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص١٧٠ (طبعة لندن).

(٢) ص٤٧ (طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة –١٩٤٧).

على العكس تماما ... لقد نفذت هذه الروح الى الاعماق ، كما لم تنفذ ولن تنفذ في قلب امة من الناس ، في عصر من العصور !! نفذت الى الاعماق فاعادت خلقهم من جديد ... بعثتهم امة جديدة ، بعد ان هزتهم هزتها المعروفة تلك ، فغيروا تاريخ العالم وصاغوا خرائطه الجديدة ... اننا ازاء امة اخرجها الاسلام من الظلمات الى النور ، فصنعت ما صنعت ... رجال كان كل واحد منهم قرانا يمشي على الارض ... بازاء تقابل فاعل خلاق بين العقيدة الجديدة والجيل الذي حملها ، حيث تسقط كل مقولة بصدد تواجد قدر من عدم التطابق بين المثل والقيم التي طرحتها هذه العقيدة ، وبين الجماعة التي قبلتها والتزمتها ...

لم تنفذ ! اذن ما الذي صنعه جيل الرواد ، اصحاب محمد عليه السلام ؛ وكيف صنعوه ؟

واما ان هذه الروح لم تنفذ الى قلوب شعراء الجبهة الاسلامية على وجهة التحديد فان علينا ان نتريث قليلا قبل ان نعطي الجواب بلا ... او نعم ...

هل ان الرؤية الاسلامية الجديدة لم تكن قديرة على ان تنطبع في ذهن الشاعر وضميره ووجدانه ؟ هل ان الشاعر المسلم كان غير قادر على تلقي الرؤية الجديدة وهضمها وتمثلها ؟ ... انه اذا تمنعت قلوب بعض الشعراء المسلمين على (التجربة) ولم تفتح لها الابواب لكي تنفذ الى الاعماق ... لسبب او اخر ... فان عددا اخر تعاملوا معها حتى اخر قطرة من دمهم ووجدانهم ... وكانوا يتحركون بحسهم الجديد في قلب المعركة ويسهمون في تحقيق العالم الجديد الذي رجوه وتمنوه ... ويستشهدون ... لكن ذلك لم يصنع (الشعر) الذي يوازي بايقاعه ايقاع الحركة الكبيرة ، ويعبر عنها ، ويكون بحجمها ... عملاقا ، كما هي عملاقة ...

هل ان المعضلة تكمن في عدم وجود عدد من الشعراء الكبار في صف الحركة الاسلامية ، قديرين على تمثل مطالب الحركة التصورية ، والتعبير عنها بالقوة والعمق والامتداد الموازي للحركة والافاق ؟

كلا !! لان عددا من شعراء الجاهلية الكبار ، لما انتقلوا الى الاسلام عجزوا هم الاخرون عن اداء المهمة المرتجاة وتنفيذ شعر اسلامي متميز اصيل ... ومع ذلك فلابد ان نبقي احتمالا كهذا في الحسبان ، او على هامش الحسبان ، اذا ما توخينا الاحاطة بكل عوامل (المعضلة) صغيرها وكبيرها ... فلو ان عددا من الشعراء الكبار من حجم زهير بن ابي سلمى، وامرىء القيس ، والنابغة الذبياني ، وعنترة العبسي ، وطرفة بن العبد ... الى اخره ... كانوا يعملون في قلب الحركة الاسلامية لكنا – ربما – عثرنا على قدرة اكثر – كما ونوعا – على الاقتراب من رؤى الاسلام وافاقه وتصوراته الشاملة ... لكن المسافة ستظل – يقينا – واسعة ، والهوة عميقة ... اذ ليس بمقدور اي من هؤلاء جميعا ان يقفز في لحظة قصيرة في حساب الزمن الابداعي ذي التقاليد طويلة الامد لابداع تقليد شعري جديد ...

ومردود – كذلك – القول بان الاسلام وقف في (تضاد) مع الشعر ، وان هذا الموقف بالذات هو الذي يفسر انتكاسة الشعر العربي ، اذا صح التعبير ... انها مقولة لا تقبل ابدا ... لانها تخرج عن دائرة القناعة منذ اللحظة الاولى ... فالذي حدث هو عكس هذا تماما – كما راينا – ... نفخ في قريحة الشعراء ان يزدادوا تدفقا وعطاءا ... وتاكيد في القران الكريم على (قيمة) الشعر الملتزم ... الشعر المؤمن المقاتل ... ومواقف الرسول عليه السلام مع الشعراء الذين انتموا الى صف الاسلام ونافحوا دونه بكلماتهم تنفي هذه المقولة ... تلغيها ... وقد روي عن عائشة رضي الله عنها ان النبي عليه السلام بنى لحسان بن ثابت في مسجد المدينة منبرا ينشد عليه !![1] ..

ثم ان العطاء الشعري يومها لم يكن يعاني من قلة على مستوى الكم ، ولكنه كان يعاني – كما رأينا – من عدم قدرة على القفزة النوعية المطلوبة ... وايا ما كان الامر فان مناقشة المقولة آنفة الذكر تغدو عبثا لا طائل تحته ...

(٣)

ان المعضلة – فيما يبدو – محدودة في نطاق الفن عموما والشعر على وجه الخصوص ... ما الذي اقعد الشاعر المسلم عن اللحاق بركب الحركة الاسلامية وهي تذرع العالم لصياغته من جديد ؟ ما الذي اعجزه عن تغطية صيرورتها الواقعة واهدافها التي تركض اليها بسرعة اذهلت العالمين ؟

اغلب الظن ان (الخلل) يتوجب البحث عنه في صميم العملية الشعرية نفسها ، وفي علاقتها الجدلية بالزمن من حيث انها عملية دايناميةمتطورة يزيدها مرور الزمن نموا وازدهارا بما يضيفه اليها من خبرات وتجارب على مستوى الاشكال والمضامين والاستشراف النقدي جميعا ...

فلو افترضنا ان الاسلام تنزل – على سبيل المثال – في احدى العصور العباسية في العراق او الاسلامية في الاندلس ، لعثرنا – يقينا – على حشد من الشعراء القديرين على تمثل التجربة والتعبير عنها بمعطيات شعرية اكثر عمقا وحيوية ونضجا على مستوى الشكل والمضمون ... لان العملية الشعرية كانت يومها قد بلغت ، بحكم التطور الدينامي ، وتراكم الخبرات الفنية والثقافية ، حدا طيبا من العمق والحيوية والنضج ...

اما وقد تنزل في بيئة لم يكن الشعر فيها – على اصالته وقوة امكاناته البنائية – بقادر على تجاوز القيود التي كان قد اختارها لعدة قرون ... قيود المعاني والاشكال ... فان من غير

---

(١) ابن رشيق : العمدة ٧٣/١.

المعقول ان نطالب الشعراء يومها بتحقيق المعجزة بين يوم وليلة ... وانه لابد من فترة زمنية تحل فيها المعضلة ، وتقود العملية الدينامية لتطور الفن الشعري ، الى تمكين الشعر من التعبير عن المطالب التصورية والحركية للدين الجديد ، واستشراق افاقه التي ما لها من حدود ...

ان العملية الشعرية في القرن العشرين ، وما واكبها من معطيات ونظريات نقدية وفلسفات جمالية ، هي غيرها في القرن العاشر ... انها غدت ولا ريب اكثر عمقا واستشرافا ووعيا بطبيعة العملية عما كانت عليه يومها ... قد يسيء شاعر او اثنان او عشرة او عشرون استخدام هذه الامكانات الكبيرة لدينامية العملية الشعرية ... وقد يكون شاعر او اثنان او عشرة او عشرون ، في القرن العاشر ، اكثر قدرة على الابداع من رفاقهم بعد عشرة قرون .. الا ان القاعدة تبقى هي القاعدة .. ان العملية الشعرية في القرن العشرين ، شكلا ومضمونا ، وبطانتها النقدية والفلسفية ، غدت اكثر نضجا بكثير مما كانت عليه في القرن العاشر ...

وهذا يتيح للشاعر الحديث ، اذا ما تهيات له اسباب التمكن من ناصية الابداع الشعري، ان يكون في القرن العشرين اكثر قدرة (تعبيرية) على تغطية مطالب الرؤية الاسلامية من سلفه في القرن العاشر ، ويتيح للشاعر في عصر عباسي او اندلسي ان يكون اقدر على التنفيذ الملتزم من سلفه في عصر نبوي او راشدي او اموي ... وشتان – على سبيل المثال – بين شاعر كجلال الدين الرومي . واخر كحسان بن ثابت ...

لا يستطيع احد ان يقول بان حسان لم يكن يريد اللحاق (الفني) بمسيرة الحركة الاسلامية ... انه كان يتحرق شوقا لذلك ... ولم تكن قدراته الشخصية وحدها هي العائق ، بل كان هنالك ما هو اكبر منها : طبيعة العملية الشعرية يومها من حيث انها كانت امتدادا لتاثيرات زمنية عمرها عشرات القرون كانت تحتم على الشعر ان يتحرك في مسار محدد شكلا ومضمونا ... وكان لابد من مرور عشرات السنين لكي تجد العملية الشعرية نفسها تنطلق في مسارات جديدة ... ولو بعث حسان بن ثابت يومها لكان اقرب الى روح التجربة الجديدة ، واقدر على التعبير عن مثلها ومطامحها واحلامها وامانيها ... وبالمقابل فلو وجد جلال الدين الرومي نفسه في تلك (البيئة) لما تدفقت (مثنوياته) كالشلال مليء حيوية ... وغنى ... وعطاءا ...

هذا على مستوى تطور العملية الشعرية عامة ، وارتباطها العميق بالزمن ... اي بتراكم الخبرة ، وصيرورتها ، وتحررها ...

ولكن الامر لا يقف عند هذا الحد ... ان هناك مسالة (خاصة) تنبثق عن هذه المقولة وتسلط المزيد من الاضواء على المعضلة التي بين ايدينا ... تلك هي مسالة الالتزام ... انها هي الاخرى ترتبط بالزمن ، وبتراكم الخبرة ، وبالتحرر ... تبدا هشة ، بسيطة ، مسطحة ... وبمرور الزمن تزداد قوة ، وامتدادا ، وعمقا ... تمارس في البدء قدرا كبيرا من المباشرة والتقريرية ، ثم ما تلبث ان تتجاوزها ، بمرور الزمن ، وبتراكم الخبرات ، وبازدياد الوعي الفني بين الذات

والموضوع، صوب نوع من (التعبيرية) التي لا تصف الموضوع وصفا شيئيا تقريريا من الخارج ... بل تدعه يصف نفسه بتفجير موحياته ، واثارة التداعيات المستمرة بينه وبين الذات ، مبدعة، كانت ام متلقية ...

وما اكثر التجارب العقائدية التي بدا التعامل الفني معها بداية هشة مسطحة . ثم اذا بالعلاقة تتجاوز ، بمرور الزمن ، هذا الموقف الى مواقع اكثر اصالة وعمقا وابداعا ... ان الشعراء الرواد لاية عقيدة او فكرة في التاريخ ليسوا – في الاعم الاغلب – كشعرائها التالين ... اولئك لهم سبق الريادة وفضلها ، ولكن هؤلاء لهم فضل التالق بالتعبير والارتفاع به الى قمم عليا ...

قد تكون للافكار في بدء التجربة ضرورات تاريخية تدفع المنتمين اليها ، فنانين وغير فنانين ، الى التعامل المباشر معها من اجل تمكينها في الارض وحمايتها بالنفس والنفيس ... ليس ثمة وقت للمداورة والمناورة ... ليس ثمة وقت للتحسين الجمالي الذي يبدو يومها اشبه بالكماليات ، ازاء ضرورات تحتم – حتى على الشعراء – ان يلقوا بكل ثقلهم ، وبشكل مباشر ، في ميدان المعركة من اجل تحقيق الانتصار للكلمة التي امنوا بها ... والجماليات قد تاتي فيما بعد ، يوم ان تضرب العقيدة جذورها في الارض ، ويوم يتاح للفنان من الوقت والاستقرار ما يمكنه من تجاوز المباشر الى ما ورائه بحثا عن التعبير الاكثر نايا وبعدا ... التعبير الذي يتجاوز طرح المعاني المباشرة التي اقتضتها الضرورات التاريخية الاولى ، الى القيم البعيدة التي تتيحها لحظات الازدهار والاستقرار ...

وهنا – ايضا – قد يبرز شاعر او اثنان او عشرون ... يضربون القاعدة ويتعاملون مع العقيدة الجديدة تعاملا جماليا بعيدا عن المباشرة والضرورات العملية – اذا صح التعبير – كما قد يبرز شعراء في عصور الازدهار ، يرجعون القهقرى ، فيتعاملون بالمباشرة والتقريرية مع عقيدة كانت قد استقرت في الارض والنفس واتت ثمارها ... ولكن القاعدة تبقى هي القاعدة ... ومن ثم فلا يقاس بالاستثناء ...

(٤)

لكن القول بداينامية العملية الشعرية لا يمثل الحقيقة كلها ... ونحن نرفض رفضا قاطعا ذلك الخطا (المنهجي) الذي ياخذ بتلابيب العقل الغربي ويقوده في كثير من الاحيان الى البوار : التشبث المتشنج بالتفسير الاحادي الذي يعجز عن اضاءة جوانب الحقيقة كلها ... وتبقى الجوانب الاخرى هذه بحاجة الى مزيد من التفاسير والمحاولات من اجل ان يصلها الشعاع ...

ها هنا ، بصدد داينامية العملية الشعرية ، نجد انفسنا مقاطعين بحقيقة لا تقل ثقلا واهمية في ميدان الخلق الفني ... ان ظهور بعض العبقريات الفنية العملاقة ، الكبار ... يند عن حكم الزمن ، وتراكم الخبرات ، ومعطيات التطور ... فقد يظهر في عصر (سابق) شاعر، او مجموعة شعراء ، كبار يملاون الدنيا ويشغلون الناس ... وفي عصر (تال) عبثا نحاول العثور على واحد فحسب يسامت اولئك الكبار ، (في المرحلة الزمنية التي نعالجها يجمع النقد ومؤرخو الادب على تواجد عدد غير قليل من فحول الشعراء في الجاهلية ، ثم تناقصهم في صدر الاسلام ، وعودتهم الى الظهور في العصور التالية) ...

لماذا هذه الظاهرة ؟ ربما لان الارضية الحضارية عموما ، والثقافة على وجه الخصوص، اتاحت لهم الظهور والتعدد في الاولى ولم تتح لهم ذلك في الثانية ... ربما لان تقليدا ثقافيا او فنيا ، يجعل العصر (السابق) احفل بالابداع الفني ، وفي عصر تال يبتلى بالنضوب ، ربما لان ظهور شاعر او فنان عملاق يمثل تحديا للقرائح والعقول فتتحرك للاستجابة ، فيكون الشاعران والثلاثة والعشرة الكبار ... وينعدم التحدي في عصر اخر فلا يستجيب احد ... وربما ... وربما ... والمهم هو انه ليس شرطا ان يظل العمل الفني صاعدا على المنحنى صوب القمة ، بمرور الزمن ... فثمة انتكاسات ... وثمة معطيات عكسية لا تخلو منها حضارة من الحضارات ...

فمع الداينامية ، وما تعد به من نضج وتقدم واكتمال ، بمرور الزمن ، هنالك حتميات النمو الحضاري ، والمعطيات الثقافية ، والتقاليد الاجتماعية والنفسية ، وهنالك ايضا الايماضات الميتافيزيقية التي تكمن خلف العمل الحضاري فتمنحه القدرة على الفعل والتشكل ، بهذه الطريقة والصيغة ، او تلك ...

ولا بد من ان ناخذ بكلتا الانارتين اذا ما اردنا فهما اعمق للمعضلة !

هنالك – ايضا – انارة اخرى قد تمنحنا قدرا اكبر من الفهم للمشكلة ، تلك هي غياب او تسطح الرؤية النقدية التي تمثل البطانة ، كحقيقة للابداع الفني ... والتحدي الذي يبعث الاستجابات الكبيرة التي تصنع العمل الكبير.

وما من شك في ان الخبرة النقدية اكثر ارتباطا بحتميات التطور الزمني ، وتراكم التجربة ، من العمل الابداعي نفسه ... فها هنا ، وكما راينا قبل قليل ، قد تقطع العبقرية الفنية حكم الزمن ... تند عن تسلسله الرياضي الصارم ، فتبرز في فترات مبكرة وتغور وتختفي في فترات متقدمة. اما الخبرة النقدية فهي وليدة النمو الزمني والتطور الثقافي ، لانها عملية معرفية محددة قد تلجا الى الذوق والوجدان وتتجاوز المنظور والملموس ولكنها تبقى اكثر تحديدا واعتمادا على المعطيات المتطورة من العمل الابداعي.

ومنذ ان يرفض القول بان الوعي النقدي في القرن العشرين قد بلغ حدا من النضج والتكامل والاتساع ما بلغ في القرون الاولى عشر معشارها.

ان الحديث عن الالتزام والموقف الابداعي ، هو جزء اساسي من الوعي النقدي والرؤية النقدية. ومن ثم نتوقع كيف انه في العصر الذي نتحدث عنه لم تكن هناك قاعدة تصورية واضحة تقود الحركة الشعرية الى طرائق عليا من التعامل المبدع الملتزم مع العقيدة الجديدة ... ما كان هنالك وعي نقدي يتحدى الابداع ويتطلب منه ان يستجيب.

لم تكن العملية النقدية يومها باكثر من استجابة وجدانية موقوتة تتخللها بعض ايماضات فكرية تضبط الحكم بالمعايير الجديدة التي جاء بها الدين الجديد .. اما ان تكون هنالك رؤية نقدية شاملة ، او وعي نقدي متكامل ، فاننا سنكون مخطئين لو تطلبنا ذلك ... وانه لمن الخطا المنهجي الذي تعانيه بعض النظريات الحديثة في شتى المناحي الفكرية والثقافية ، ان نمارس عملية اسقاط لمعطيات بعدية على (القبليات) ... ان نرغم القرن الاول او الثاني او السابع الميلادي على ان يتصادى مع القرن التاسع عشر والعشرين ، وان يتقبل معطياته ، فكانه والقرن العشرين سواء !

(٥)

هل ثمة احتمالات اخرى تعين على تسليط مزيد من الضوء ؟ نعم ... انها مسالة اكثر (خصوصية) من الاحتمالات السابقة ... انه القران !!

لقد بهرت كلمات الله ، واياته المعجزة ، عقول العرب وقلوبهم ، قدمت لهم مثلا اعلى في جمالية التعبير ما كان يخطر لهم على بال ... وكيف يخطر لهم على بال وهو من عطاء الله الذي لو كان البحر مدادا لكلماته ، والبحر يمده من ورائه سبعة ابحر ، ما نفدت كلماته.

وثمة روايات عديدة ما هذا مكان سردها ، تبين لنا كيف شده العرب ، فتجاوزوا مرحلة الاعجاب او الانبهار الى ما وراء ذلك ، وهم يستمعون لكلمات الله التي قادت فريقا منهم الى مواقع الايمان ، وفريقا اخر الى مواقع العناد والاصرار ...

لقد استلب القران البابهم ، وان في الامر لبعدا نفسيا قد يكون واحدا من الاسباب التي اعجزت الشعراء الرواد عن ان يكونوا على مستوى العقيدة الجديدة ... لقد اصبحوا يحسون انهم دون هذا التعبير القراني بكثير ... انهم يتحركون على السفح ، والقران يتشكل في القمة ... واللغة هي اللغة ، والاحرف هي الاحرف ... ح . م . ي . س . ط . هـ . ك . هـ . ي . ع . ص. ولكن شتان ... شتان بين صناعة الله جل في علاه وبين صناعة المخاليق ... لعله نوع من الاحساس بالعجز ؟ لعله نوع من الياس والاستسلام ؟ لعله نوع من الخجل والحياء ؟ لعله

نوع من الاحباط ؟ مهما يكن من امر فان الشعراء الرواد في لحظات الانبهار ما كان بمقدورهم الا ان ينساقوا وراء هذا (التاثير) النفسي الجارف ...

فلما بعدت الاجيال التالية عن لحظات الانبهار ، حيث كان القران الكريم يتنزل لوقته تنزيلا ، وعادت لكي تتعامل مع كلمات الله تعاملا يتميز بانفصال اكثر من ذي قبل ، لاسباب بعضها سلبي وبعضها ايجابي ، كان بمقدور الشعراء ان يتمثلوا (التجربة) ، وان يصوغوها اداءا اكثر (فنية) من ذي قبل ، واكثر بهاءا وجمالا ...

انها مجرد احتمالات فحسب ، احتمالات تقوم على التخمين الذي قد يتاكد وقد يبقى ظنا ... والا فبماذا نفسر عجز الشعر الاسلامي يومها ، ولنقلها بصراحة ، عن ان يكون عملاقا ... عملاقا على مستوى التجربة التي كان يعايشها ، ويتشكل معها ، ويعبر عنها ؟

(٦)

ومع ذلك ... فثمة لمحات منحنا اياها هذا الشاعر او ذاك ، نستذوق فيها بعضا مما جاء به الدين الجديد ... لمحات تكسب قيمتها من قدرتها على تجاوز التقليد الشعري الراهن ، والطموح ، المحدود بطبيعة الحال ، الى ملامسة معطيات الدين الجديد ... ولكنها – على اية حال – تبقى استثناء من قاعدة ، ولمن يريد التثبت ان يرجع الى دواوين الشعراء المسلمين الاوائل فيقرا فيها ...

انه حتى هذه النماذج التي سيطلع عليها القارىء ، والتي انتقيناها بعناية ، لا يمكن ان تكون أبداً بحجم الرؤية التي طرحها هذا الدين ... تبقى دونها بكثير ... تعاني من الهبوط الشعري – اذا صح التعبير – والمباشرة والوعظية .. وباحالتها على ما قدمته الاجيال التالية من عطاء شعري ... بمقارنتها بذلك السيل المتالق ... يبدو البون شاسعا ... بعيدا ...

لنقرا – اولا – بعضا من هذه النماذج ، ولنواصل – من ثم – رحلتنا المسرعة باتجاه الزمن التالي ...

حسان بن ثابت وهو يصف الرسول (عليه السلام) :

واحسن منك لم تر قط عيني ... واجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرءا من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

***

متى يبد في الداجي البهيم جبينه ... يلح مثل مصباح الدجى المتوقد

فمن كان ؟ أو من ذا يكون كاحمد ... نظام لحق او نكال ... لملحد

ويتصدى للزبرقان بن بدر ، شاعر تميم ، بطلب من الرسول عليه السلام ذاك يتحدث عن مفاخر القبيلة (القديمة) ، وهذا يعارضه بقيم وامجاد الامة (الجديدة) :

ان الذوائب من فهر واخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الاله ، وبالامر الذي شرعوا
سجية تلك منهم غير محدثة ... ان الخلائق فاعلم شرها البدع
لا يرقع الناس ما اوهت اكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
ان كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لادنى سبقهم تبع
ولا يضنون عن مولى بفضلهم ... ولا يصيبهم في مطمع طبع[1]
لا يجهلون وان حاولت جهلهم ... في فضل احلامهم عن ذاك متسع
اعفة ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يطبعون ولا يرديهم الطمع
كم من صديق لهم نالوا كرامته ... ومن عدو عليهم جاهد جدعوا
اعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم ... فما ونا نصرهم عنه وما نزعوا
ان قال سيروا اجدوا السير جهدهم ... او قال عوجوا علينا ساعة ربعوا
ما زال سيرهم حتى استقادلهم ... اهل الصليب ومن كانت له البيع
خذ منهم ماتى عضوا اذا غضبوا ... ولا يكن همك الامر الذي منعوا
فان في حربهم – فاترك عداوتهم – ... شرا يخاض عليه الصاب والسلع[2]
نسمو اذا الحرب نالتنا مخالبها ... اذا الزعانف من اظفارها خشعوا
لا فخر ان هم اصابوا من عدوهم ... وان اصيبوا فلا خور ولا جزع
اكرم بقول رسول الله شيعتهم ... إذا تفرقت الاهواء والشيع
فانهم افضل الاحياء كلهم ... ان جد بالناس جد القول اوشمعوا[3]

ويرثي شهداء المسلمين في معركة بني قريظة :

تذكرت عصرا قد مضى فتهافتت ... بنات الحشى وانهل مني المدامع
صبابة وجد ذكرتني احبة ... وقتلى مضى فيها طفيل ورافع
وسعد ، فاضحوا في الجنان واوحشت ... منازلهم ، فالارض منهم بلاقع

---

(١) الطبع : الدنس.
(٢) السلع : نبات مسموم.
(٣) شمعوا : هزلوا.

وفـوا يـوم بـدر للرسـول وفـوقهم ... ظـلال المنايـا والسـيوف اللوامـع

دعـا فاجـابوه بحـق ... وكلهـم ... مطيـع لـه فـي كـل امـر سـامع

فمـا نكلـوا حتـى تولـوا جماعـة ... ولا يقطـع الاجـال الا المصـارع

لانهـم يرجـون منـه شـفاعة ... اذا لـم يكـن الا النبيـون شـافع

ويتحدث عن (بدر) مستلهما ايات من كتاب الله :

سـرنا وسـاروا الـى بـدر لحيـنهم ... لـو يعلمـون يقـين العلـم مـا سـاروا

دلاّ هـم بغـرور ثـم اسـلمهم ... ان الخبيـث لمـن والاه غـرار[1]

وقـال : انـي لكـم جـار فـاوردهم ... شـر المـوارد فيـه الخـزي والعـار

وعبد الله بن رواحة يخاطب نفسه في معركة مؤتة ، وقد تسلم الراية بعد استشهاد رفيفيه: زيد بن حارثة وجعفر بن ابي طالب (رضي الله عنهم). يخاطب نفسه مستجيشا فيها الاقدام والفدائية بمواجهة الموت المحتوم ، بعد تردد وخوف !!

اقسـمت يـا نفـس لتنزلنـه ... طائعـة او لتكرهنـه ...

ان اجلـب النـاس وشـدوا الرنـه[2] ... مـا لـي اراك تكـرهين الجنـه ؟

وطالمـا قـد كنـت مطمئنـة ... هلـى انـت الا نطفـة فـي شـنه[3]؟

هـل انـت الا اصـبع دميـت ... وفـي سـبيل الله مـا لاقيـت ؟

يـا نفـس الا تقتلـي تمـوتي ... هـذا حمـام المـوت قـد صـليت

ومـا تمنيـت فقـد اعطيـت ... ان تفعلـي فعلهمـا هـديت

وان تـاخرت ... فقـد شـقيت

وينشد وهو اخذ بزمام ناقة رسول الله (عليه السلام) يطوف بالبيت في عمرة القضاء :

خلـوا بنـي الكفـار عـن سـبيله ... خلـوا فكـل الخيـر مـع رسـوله

نحـن ضـربناكم علـى تاويلـه ... كمـا ضـربناكم علـى تنزيلـه

ضـربا يزيـل الهـام عـن مقيلـه ... ويـذهل الخليـل عـن خليلـه

يارب اني مؤمن بقيله

ويرتجز ابياتا تصبح نشيد المسلمين في محنة الخندق ، وهم يحفرون الارض وينقلون التراب:

---

(١) الضمير هنا للشيطان.

(٢) الرنة : صيحة الحرب.

(٣) الشنة : القربة الصغيرة.

تـــالله لـــولا الله مـــا اهتـــدينا ... ولا تصـــــــدقنا ولا صـــــــلينا

فـــــانزلن ســـــكينة علينـــــا ... وثبـــت الاقـــدام ان لاقينـــا

ان الالـــى قـــد بغـــوا علينـــا ... وان ارادوا فتنـــــــة ابينـــــا

ويصف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

وفينـــا رســـول الله يتلـــو كتابـــه ... اذا انشق معروف من الفجر ساطع

ارانـــا الهـــدى بعـــد العمـــى فقلوبنـــا ... بـــه موقنـــات ان مـــا قـــال واقـــع

يبيـــت يجـــافي جنبـــه عـــن فراشـــه ... اذا اســـتثقلت بالكـــافرين المضـــاجع

واعلـم علمـا ، لـيس بـالظن ، اننـي ... الـــى الله محشـــور هنـــاك وراجـــع !!

وينشده :

انـــي تغرســـت فيـــك الخيـــر اعرفـــه ... والله يعلـم ان مـا خـاننني البصـر ...

انـــت النبـــي ، ومـــن يحـــرم شـــفاعته ... يـوم الحساب فقد ازرت بـه القدر ...

فثبـــت الله مـــا اتـــاك مـــن حســـن ... تثبيـت موسـى ونصـرا كالـذي نصـروا

وكعب بن مالك يتحدث عن يوم بدر :

عجبـــت لامـــر الله والله قـــادر ... علـــى مـــا اراد ، لـــيس لله قـــاهر

قضـــى يـــوم بـــدر ان نلاقـــي معشـــرا ... بغـوا ، وسـبيل البغـي بالنـاس جـائر

فلمـــا لقينـــاهم وكـــل مجاهـــد ... لاصـحابه مستبسـل الـنفس صـابر

شـــــهدنا بـــــان الله لا رب غيـــــره ... وان رســـــول الله بـــــالحق ظـــــاهر

وكـــان رســـول الله قـــد قـــال اقبلـــوا ... فولـــوا وقـــالوا : انمـــا انـــت ســـاحر

لامـــــر اراد الله ان يهلكـــــوا بـــــه ... ولـــيس لامـــر حمـــه الله زاجـــر !!

وعن محنة الخندق :

وســـائلة تســـائل مـــا لقينـــا ... ولـــو شـــهدت رأتنـــا صـــابرينا

صـــــبرنا ، لا نـــــرى لله عـــــدلا ... علـــى مـــا نابنـــا متوكلينـــا ...

وكـــان لنـــا النبـــي وزيـــر صـــدق ... بـــه نعلـــو البريـــة اجمعينـــا

نقاتـــل معشـــرا ظلمـــوا وعقـــوا ... وكـــانوا بالعـــداوة مرصـــدينا

كمـــا قـــد ردكـــم فـــلا شـــريدا ... بغيضـــكم خزايـــا خائبينـــا

خزايـــا لـــم تنـــالوا – ثـــم – خيـــرا ... وكـــدتم ان تكونـــوا دامرينـــا

ويلخص احدى المهمات الصعبة التي نفذها الرسول (عليه السلام) ببيت واحد :

لـــم الالـــه بـــه شـــعثا ورم بـــه امـــور امتـــه والامـــر منتشـــر

وكعب بن زهير ينشد عليه السلام ويصف اصحابه في (لاميته) الشهيرة :

ان الرســـول لســـيف يستضـــاء بـــه مهنـــد مـــن ســـيوف الله مســـلول

فـــي فتيـــة مـــن قـــريش قـــال قـــائلهم بـــبطن مكـــة لمـــا اســـلموا : زولـــوا

زالـــوا فمـــا زال انكـــاس[1] ولا كشـــف[2] عنـــد اللقـــاء ، ولا خـــور معازيـــل[3]

وصرمة بن قيس يؤرخ لدور الانصار في التمكين للدعوة الجديدة :

تـولى فـي قـريش بضـع عشـرة حجـة يـذكر ، لـو يلفـي صـديقا مواتيـا

ويعـرض فـي اهـل المواسـم نفسـه فلـم يـر مـن يـؤوي ، ولـم يـر داعيـا

فلمـــا اتانـــا واســـتقرت بـــه النـــوى واصـــبح مســـرورا بطيبـــة راضـــيا

واصـبح مـا يخشـى ظلامـة ظـالم بعيـدا ولا يخشـى مـن النـاس باغيـا

بـذلنا لـه الامـوال مـن جـل مالنـا وانفسـنا ، عنـد الـوغى والتآسـيا

نعادي الذي عادى من الناس كلهم جميعـا ، وان كـان الحبيـب المواتيـا

ونعلـــم ان الله لا شـــيء غيـــره وان كتـــاب الله اصـــبح هاديـــا

وخبيب يقبل على الشهادة بصدر رحب ، ويصف الدقائق التي سبقت اعدامه على ايدي المشركين ... صورة صادقة من صور اباء المسلم وعدم اكتراثه للموت ... في كل مكان وزمان ... وابيات ظل يرددها شهداء الحركة الاسلامية عبر المكان والزمان :

لقـد جمـع الاحـزاب حـولي والبـوا قبـائلهم واسـتجمعوا كـل مجمـع

وقـد قربـوا ابنـاءهم ونسـاءهم وقربـت مـن جـذع طويـل ممنـع

وكلهـم يبـدي العـداوة جاهـدا علـي ، لانـي فـي وثـاق بمضـيع

الـى الله اشـكو غربتـي بعـد كربتـي ومـا جمـع الاحـزاب لـي عنـد مصرعي

وذلـك فـي ذات الالـه وان يشـا يبـارك علـى اوصـال شـلو ممـزع

وقـد عرضـوا بـالكفر والمـوت دونـه وقـد ذرفـت عينـاي مـن غيـر مـدمع

ومـا بـي حـذار المـوت ، انـي لميـت ولكـن حـذاري حـر نـار تلفـع

---

(١) الانكاس : الضعفاء.

(٢) الكشف : الذين ينكشفون عند اللقاء.

(٣) المعازيل : الذين لا يملكون سلاحا.

فلســـت بمبـــد للعـــدو تخشـــعا ولا جزعـــا انـــي الـــى الله مرجعـــي

ولســت ابــالي حــين اقتــل مســلما على اي جنب كان في الله مصرعي !

وابو سفيان بن الحارث يعبر عن احساسه بمصيبة وفاة الرسول (عليه السلام) :

لقـــد عظمـــت مصـــيبتنا وجلـــت عشـــية قـــد قيـــل قـــبض الرســـول

واضـــحت ارضـــنا ممـــا عراهـــا تكـــاد بنـــا جوانبهـــا تميـــل !!

فقـــدنا الـــوحي والتنزيـــل فينـــا يـــروح بـــه ويغـــدو جبرئيـــل ..

وذاك احـــق مـــا ســـالت عليـــه نفـــوس النـــاس او كـــادت تســـيل

وعامر بن الطفيل يشير ببيتين ، وهو يرثي الرسول عليه السلام ، الى دوره الكبير :

بكـــت الارض والســـماء علـــى النـــو ر الـــذي كـــان للعبـــاد ســـراجا

مـــن هـــدينا بـــه الـــى ســـبل الحـــ ق وكنـــا لا نعـــرف المنهاجـــا

ولبيد بن ربيعة العامري يذكر طول عمره وسامه من الحياة ، وان الموت آتٍ لا ريب فيه :

قضـــي الامـــر وانجـــز الموعـــود والله ربـــي ماجـــد محمـــود

ولـــه الفواضـــل والنوافـــل والعلـــى ولـــه اثيـــث الخيـــر والمعـــدود

ولقـــد بلـــت ارم وعـــاد كيـــده ولقـــد بلتـــه ، بعـــد ذاك ، ثمـــود

خلـــوا ثيـــابهم علـــى عـــوراتهم فهـــم بافنيـــة البيـــوت همـــود

ولقـــد ســـئمت مـــن الحيـــاة وطولهـــا وســـؤال هـــذا النـــاس كيـــف لبيـــد ؟

وفي قصيدة اخرى يطرح هذه التاملات الايمانية ذات النفس الشعري الدافىء العميق :

انمـــا يحفـــظ التقـــى الابـــرار والـــى الله يســـتقر القـــرار

والـــى الله ترجعـــون وعنـــد اللـــ ـه ورد الامـــور والاصـــدار

كـــل شـــيء احصـــى كتابـــا وعلمـــا ولديـــه تجلـــت الاســـرار

ان يكـــن فـــي الحيـــاة خيـــر فقـــد انـــ ظـــرت لـــو كـــان ينفـــع الانظـــار

عشـــت دهـــرا ، ولا يـــدوم علـــى الايـــا م الا يلملـــم ... وتعـــار[1]

والنجـــوم التـــي تتـــابع بالليـــ ل وفيهـــا ذات اليمـــين ازورار

دائـــب مورهـــا ، ويصـــرفها الغـــو ر ، كمـــا تعطـــف الهجـــان الظـــوار[2]

ثـــم يعمـــى اذا خفـــين علينـــا اطـــوال امراســـها ام قصـــار ؟

---

(١) يلملم وتعار : اسماء جبال.

(٢) الهجان الظؤار : الابل التي تعطف على غير ولدها.

هلكت عامر فلم يبق منها ... برياض الاعراف الا الديار

فعلى عامر سلام وحمد ... حيث حلوا من البلاد وساروا

وتاملات اخرى يطرحها في قصيدة ثالثة :

لله نافلة الاجل الافضل ... وله العلى واثيث كل مؤثل

لا يستطيع الناس محو كتابه ... انى ؟ وليس قضاؤه بمبدل

سوى فاغلق دون غرة عرشه ... سبعا طباقا فوق فرع المنقل[1]

والارض تحتهم مهادا راسيا ... ثبتت خوالقها بصم الجندل[2]

والماء والنيران من اياته ... فيهن موعظة لمن لم يجهل

بل كل سعيك باطل الا التقى ... فاذا انقضى شيء كان لم يفعل

وفي قصيدة احرى يعود لبيد الى القضايا الكبرى نفسها : الحياة والموت والقضاء والقدر، والسعي البشري والمصير ... وهو على عتبات الاسلام يرثي اخاه ، والقصيدة لا تقل انسيابية غنائية ، ودفئا وجدانيا عن رائيته السابقة :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الجبال بعدنا ، والمصانع

وقد كنت في اكناف جار مظنة ... ففارقني جار باربد نافع ...

فلا جزع ان فرق الدهر بيننا ... وكل فتى يوما به الدهر راجع

فلا انا ياتيني طريف بفرحة ... ولا انا مما احدث الدهر جازع

وما الناس الا كالديار واهلها ... بها يوم حلوها وغدواً بلاقع

وما المرء الا كالشهاب وضوئه ... يمور رمادا بعد اذ هو ساطع

وما البر الا مضمرات من التقى ... وما المال الا معمرات ودائع

وما المال والاهلون الا وديعة ... ولا بد يوما ان ترد الودائع

ويمضون ارسالا ونخلف بعدهم ... كما ضم اخرى التاليات المشايع[3]

وما الناس الا عاملان فعامل ... يتبر ما يبني واخر رافع

فمنهم سعيد اخذ لنصيبه ... ومنهم شقي بالمعيشة قانع

اليس ورائي ان تراخت منيتي ... لزوم العصا تحنى عليها الاصابع ؟

---

(١) المنقل : ظهر الجبل.

(٢) الخوالق : الجبال الجرداء.

(٣) التاليات : اواخر الابل ، والمشايع الذي يزجرها.

أخبـر أخبـار القـرون التـي مضـت ... ادب كـــاني كلمـــا قمـــت راكـــع

فاصـبحت مثـل السـيف غيـر جفنـه ... تقـادم عهـد القـين والنصـل قـاطع[1]

فـــلا تبعـــدن ان المنيـــة موعـــد ... عليـــك فـــدان للطلـــوع وطـــالع

اعـــاذل مـــا يـــدريك الا تظنيـــا ... اذا ارتحـل الفتيـان مـن هـو راجـع ؟

اتجـزع ممـا احـدث الـدهر بـالفتى ... واي كـــريم لـــم تصـــبه القـــوارع ؟

لعمـرك مـا تـدري الضـوارب بالحصـى ... ولا زاجـرات الطيـر مـا الله صـانع

سـلوهن ان كـذبتموني متـى الفتـى ... يـذوق المنايـا ؟ او متـى الغيـث واقـع ؟

وعميـر بـن ضـابىء اليشكري ، يرتـد قومـه فـي اليمامـة ، ويسـتجيبون لـداعي مسيلمة الكذاب ويظل هو وعدد من اصحابه على دينهم ، متحدين الفتنة العمياء :

فـــتن القـــوم بالشـــهادة والله ... عزيـــز ذو قـــوة ومحـــال

ان دينـــي ديـــن النبـــي وفـــي القـــو ... م رجـــال علـــى الهـــدى امثـــالي

ان تكـــن منيتـــي علـــى فطـــرة اللـــ ... ه حنيفـــا فـــانني لا ابـــالي

وعمير بن الحصين النجراني ينشد قومه محذرا اياهم من الفتنة :

اهـــل نجـــران امســـكوا ... وكونـــوا يـــدا علـــى الكفـــار

لا تكونـوا بعـد اليقـين الـى الشـك ... وبعـــد الرضـــا الـــى الانكـــار

واســتقيموا علـــى الطريقـــة فيـــه ... وكونـــوا كهيئـــة الانصـــار

والصلصال بن الدلهمس يتحدث عن الحياة والموت والعمل :

تجنـــب خليطـــا مـــن مقالـــك انمـــا ... قـرين الفتـى فـي القبـر مـا كـان يفعل

ولا بـــد بعـــد المـــوت مـــن ان تعـــده ... ليـــوم ينـــادى المـــرء فيـــه فيقبـــل

وان كنـت مشـغولا بشـيء فـلا تكـن ... بغيـر الـذي يرضـى بـه الله تشـغل

ولـن يصحب الانسان من قبل موتـه ... ومـن بعـده الا الـذي كـان يعمـل

الا انمـــا الانســـان ضـــيف لاهلـــه ... يقـيم قلـيلا بيـنهم ثـم يرحـل ...

والحطيئة يتوسل الى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ان يطلقه من سجنه، مستثيرا فيه حسه الرقيق :

مـــاذا تقـــول لافـــراخ بـــذي مـــرخ ... زغـب الحواصـل لا مـاء ولا شـجر ؟

غيبـت كاسـبهم فـي قعـر مظلمـة ... فـاغفر عليـك سـلام الله يـا عمـر

---

(١) القيق : الحداد.

لـــم يـــؤثروك بهـــا اذ قـــدموك لهـــا لكـــن لانفســـهم كانـــت بهـــا الاثـــر

والخلفـاء الراشـدون انفسـهم كـانوا يتغنـون بابيـات مـن الشـعر بـين الحـين والحـين ، لا نـدري اهم مبـدعوها ، ام مرسلوها فحسب ، ام انهـا قيلـت فـي عصـر تـال ونسبت اليهم ... والامر سواء ، ما دامت تتضمن لمسات ندية مما جاء به الدين الجديد ...

يحكـي ابـو بكـر الصـديق (رضـي الله عنـه) عن محنتـه النفسية وتغربـه بوفاة الرسول (عليه السلام) :

لمـــا رايـــت نبينـــا متجـــدلا .. ضـــاقت علـــي بعرضـــهن الـــدور

وارتعـــت روعـــة مســـتهام والـــه والعظـــم منـــي واهـــن مكســـور

اعتيـــق ويحـــك ان حبـــك قـــد ثـــوى وبقيـــت منفـــردا وانـــت حســـير ..

ويروى عن عمر رضي الله عنه انه كان ينشد :

هـــون عليـــك فـــان الامـــور بكـــــف الالـــــه مقاديرهـــــا

فلـــــيس بآتيـــــك منهيهـــــا ولا قاصـــــد عنـــــك مامورهـــــا

وينشد :

لا شـــيء ممـــا تـــرى تبقـــى بشاشـــته يبقـــى الالـــه ويفنـــى المـــال والولـــد

لـــم تغـــن عـــن هرمـــز يومـــا خزائنـــه والخلـــد قـــد حاولـــت عـــاد فمـــا خلـــدوا

ولا ســـليمان اذ تجـــري الريـــاح لـــه والجـــن والانـــس فيمـــا بينهـــا تـــرد

حـــوض هنالـــك مـــورود بـــلا كـــذب لا بـــد مـــن ورده يومـــا كمـــا وردوا

ويستعد علي (رضي الله عنه) للموت ... كانه يراه بعينيه :

اشدد حيازيك للموت فان الموت لاقيكا

ولا تجزع من الموت ، اذا حل بواديكا ...

وعبر حركة الجهاد والفتح – في العصر الراشدي – تلتمع قصائد ومقاطع وابيات ، في هذه الجبهة او تلك ، تصويرا لواقعة او تعبيرا عن معاناة ... لكن العثور على الرؤية الاسلامية الجديدة في افاقها الرحبة وامتدادها العميق ، يغدو صعبا هاهنا ايضا ، رغم كثرة ما قيل[1].

في معركة نهاوند على حدود بلاد فارس يقول عبدة بن الطبيب :

نرجـــو فواضـــل رب ســـيبه حســـن وكـــل خيـــر لديـــه فهـــو مقبـــول

رب حبانـــــا بـــــاموال مخولـــــة وكـــل شـــيء حبـــاه الله تخويـــل

---

(١) يعد كتاب النعمان عبد المتعال القاضي : شعر الفتوح الاسلامية في صدر الاسلام ، الذي سبق وان اشرنا اليه ، اوسع دراسة قدمت عن شعر الفتوح لحد الان ، وقد انتقينا منه معظم الابيات والمقاطع التالية.

والمـرء سـاع لامـر لـيس يدركـه والعـيش شـح واشـفاق وتاميـل

وفي المعركة نفسها ينشد عروة بن زيد الخيل الطائي :

الا طرقـت رحلـي وقـد نـام صـحبتي بـايوان شـيرين المزخـرف خلتـي
ولـو شـهدت يـومي جلـولاء حربنـا ويـوم نهاونـد المهـول اسـتهلت
اذن لـرات ضـرب امـرىء غيـر خامـل مجيـد بطعـن الـرمح اروع مصـلت ..
وكـم مـن عـدو اشـوس متمـرد عليـه بخيلـي فـي الهيـاج اظلـت
وكـم كربـة فرجتهـا ... وكريهـة شـددت لهـا ازري الـى ان تجلـت
وقـد اضـحت الـدنيا لـدي ذميمـة وسـليت عنهـا الـنفس حـين تسـلت
واصـبح همـي فـي الجهـاد ونيتـي فللّه نفسـي ادبـرت وتولـت
فـلا ثـروة الـدنيا نريـد اكتسـابه الا انهـا عـن وفرهـا قـد تجلـت
ومـاذا ارجـي مـن كنـوز جمعتهـا وهـذي المنايـا شـرعا قـد اطلـت ؟

ويبكي ابو ذؤيب الهذلي بنيه الخمسة الذين احتوشهم طاعون الم بمصر ... معلنا عن استسلامه لقضاء الله ...

امـن المنـون وريبـه تتوجـع والـدهر لـيس بمعقـب مـن يجـزع
اودى بنـي واعقبـوني حسـرة بعـد الرقـاد وعبـرة لا تقلـع
فغبـرت بعـدهم بعـيش ناصـب واخـال انـي لاحـق مسـتتبع
ولقـد حرصـت بـان ادافـع عـنهم فـاذا المنيـة اقبلـت لا تـدفع
واذا المنيـة انشـبت اظفارهـا الفيـت كـل تميمـة لا تنفـع !!
لا بـد مـن تلـف مقـيم فـانتظر فبـارض قومـك ام بـاخرى المصـرع
ولقـد ارى ان البكـاء سـفاهة ولسـوف يولـع بالبكـا مـن يفجـع
ولتـاتين عليـك يـوم مـرة ... يبكـي عليـك مقنعـا لا تسـمع
وتجلـدي للشـامتين اريهـم انـي لريـب الـدهر لا اتضعضـع

ويصور عبد الله بن سبرة الجرشي احتسابه يده عند الله ، بما فعلته هذه اليد في سبيله فقد قتلت ارطبون الروم في مبارزة فقدت فيها يوم فلطاس :

ويـل ام جـار غـداة الـروع فـارقني اهـون علـي بـه اذ بـان فانقطعـا
يمنـى يـدي غـدت منـي مفارقـة لـم اسـتطع يـوم فلطـاس لهـا تبعـا
ومـا ضـننت عليهـا ان صـاحبها ... ولقد حرصت على ان نستريح معا !!

وقائـــل غـــاب عـــن شـــاني وقائلـــة ... هـــلا اجتنبـــت عـــدو الله اذ صـــرعا ؟

وكيـــف اتركـــه يســـعى بمنصـــله ... نحـــوي واعجـــز عنـــه بعـــدما وقعـــا ؟

مـــا كـــان ذلـــك يـــوم الـــروع مـــن خلقـــي ... ولـــو تقـــارب منـــي المـــوت فاكتنعـــا

يمشـــي الـــى مســـتميت مثلـــه بطـــل ... حتـــى اذا امكنـــا ســـيفيهما قطعـــا

حاسـيته المـوت حتـى اشـتف اخـره ... فمـــا اســـتكان لمـــا لاقـــى ولا جزعـــا

فـــان يكـــن ارطبـــون الـــروم قطعهـــا ... فقـــد تركـــت بهـــا اوصـــاله قطعـــا !!

وان يكـــن ارطبـــون الـــروم قطعهـــا ... فـــان فيهـــا بحمـــد الله منتفعـــا ...

بنـــانتين وجرمـــوذا اقـــيم بهـــا ... صـــدر القنـــاة اذا مـــا انســـوا فزعـــا

ويعتصر جندي مجهول حنينه الى نجد شعرا مؤثرا وهو يعاني الغربة في البلاد البعيدة:

اكـــرر طرفـــي نحـــو نجـــد واننـــي ... برغمـــي وان لـــم يـــدرك الطـــرف انظـــر

حنينـــا الـــى ارض كـــأن ترابهـــا ... – اذا امطرت – عود ومسك وعنبر ..

احـــن الـــى ارض الحجـــاز وحـــاجتي ... خيـــام بنجـــد دونهـــا الطـــرف يقصـــر

ومـــا نظـــري مـــن نحـــو نجـــد بنـــافع ... اجـــل لا ، ولكنـــي الـــى ذاك انظـــر

افـــي كـــل يـــوم نظـــرة ثـــم عبـــرة ... لعينـــك مجـــرى مائهـــا يتحـــدر ؟

متـــى يستريح القلـــب ؟ امـــا مجـــاوز ... بحـــرب وامـــا نـــازح يتـــذكر ؟!

ويعلن عروة بن زيد الخيل عن (الوصية) التي ينقلها الاباء الى الابناء ... قتال العدو حتى النصر ... وهو على يديه يستحيل جهادا في سبيل الله :

صـــبرت لاهـــل القادســـية معلمـــا ... ومثلـــي اذا لـــم يصـــبر القـــرن اصـــبر

فطـــاعنتهم بـــالرمح حتـــى تبـــددوا ... وضـــاربتهم بالســـيف حتـــى تكركـــروا

بـــذلك اوصـــاني ابـــي وابـــو ابـــي ... كـــذلك اوصـــاه فلســـت اقصـــر

صـــمدت الهـــي اذ هـــداني لدينـــه ... فلله اســـعى مـــا حييـــت واشـــكر

ويصرخ النابغة الجعدي بالناس ، في كل مكان وزمان ، ان ينظروا في المصير الذي الت اليه دولة الفرس وكيف ادال الله منها فكانها لم تكن سوى حلم من الاحلام :

يـــا ايهـــا النـــاس هـــل تـــرون الـــى ... فـــارس بـــادت وجـــدها رغمـــا ؟

امســـوا عبيـــدا يرعـــون شـــاءكم ... كانمـــا كـــان ملكهـــم حلمـــا !

او ســـبأ الحاضـــرين مـــأرب اذ ... يبنـــون مـــن دون ســـيله العرمـــا ؟

وهو يمهد لصرخته بابيات تتنفس كلماتها وتعابيرها في (اجواء) الدين الجديدوكتابه المبين :

الحمـــــد لله لا شـــــريك لـــــه ... مـــن لـــم يقلهـــا فنفســـه ظلمـــا

المـــولج الليـــل فـــي النهـــار وفـــي ... الليـــــل نهـــــارا يفـــــرج الظلمـــــا

الخـــافض الرافـــع الســـماء علـــى ... الارض ولـــم يبـــق تحتهـــا دعمـــا

الخـــالق البـــارىء المصـــور فـــي الـــ ... ارحـــام مـــاء حتـــى يصـــير دمـــا

مـــــن نطفـــــة قـــــدرها مقـــــدرها ... يخلـــق منهـــا الابشـــار والنســـما

تـــم عظامـــا اقامهـــا عصـــب ... ثّمـــت لحمـــا كســـاه فالتئمـــا

والصـــوت واللـــون والمعـــايش والـــ ... اخـــلاق شـــتى وفـــرق الكلمـــا

ثمـــــت لا بـــــد ان ســـــيجمعكم ... والله جهـــــرا شـــــهادة قســـــما

فـــائتمروا الان مـــا بـــدا لكـــم ... واعتصـــموا ان وجـــدتم عصـــما

فـــي هـــذه الارض والســـماء ولا ... عصـــمة منـــه الا لمـــن رحمـــا

وفي ابيات اخرى يخاطب زوجته التي توسلت اليه ان يبقى الى جوارها ولا يخرج الى الاصقاع النائية ، مجاهدا :

باتـــت تـــذكرني بـــالله قاعـــدة ... والـدمع ينهـل مـن شـانيهما سـبلا

يـا بنـت عمـي كتـاب الله اخرجنـي ... – كرهـا – وهـل امـنعن الله مـا بـذلا ؟

فـان رجعـت فـرب النـاس ارجعنـي ... وان لحقـت بربـي فـابتغي بـدلا

مـا كنـت اعـرج او اعمـى فيعـذرني ... او ضـارعا من ضنى لم يستطع حولا

ومالك بن الريب يرثي نفسه في الغربة وهو يقبل على الموت مجاهدا في بلاد فارس بعيدا عن اهله :

الا ليـت شـعري هـل ابيـتن ليلـة ... بجنب الغضا ازجي القلاص النواجيا ؟

فليت الغضـا لـم يقطـع الركـب عرضـه ... وليـت الغضـا ماشـى الركـاب لياليـا

لقد كان في اهل الغضا لو دنا الغضا ... مـزار ولكـن الغضـا لـيس دانيـا !!

فيا صاحبي رحلي دنـا الموت فـاحفرا ... برابيـــة انـــي مقـــيم لياليـــا ...

وخطـا بـاطراف الاسـنة مضـجعي ... وردا علـــى عينـــيّ فضـــل ردائيـــا

خـــذاني فجرانـــي ببـــردي اليكمـــا ... وقـد كنـت قبـل اليـوم صـعبا قياديـا

تفقـدت مـن يبكـي علـي فلـم اجـد ... سـوى السـيف والـرمح الردينـي باكيـا

وبالرمــل منــا نســوة لــو شــهدنني بكــين وفــدين الطبيــب المــداويا

عجــوزي واختــاي اللتــين اصــيبتا بمــوتي وبنــت لــي تهــيج البواكيــا

يقولــون : لا تبعــد وهــم يــدفنونني وايــن مكــان البعــد الا مكانيــا ؟!

(٧)

والان ... فاننا لو مضينا مسرعين في بحر الزمن ، وخلفّنا وراءنا العقود والقرون ... فاننا سنجد انفسنا امام تيار متدفق من العطاء الشعري الاسلامي الملتزم الذي يناى عن التقريرية والمباشرة ، ويعبر عن قيم الاسلام وافاقه بعمق وعفوية ... وتمتد رؤاه بعيدا ، بعيدا ، وهي تجهد في ان تصل الى مشارف رؤية الاسلام ذاتها لتغطيها ، وتستجيب لنداءاتها وامانيها !!

بمرور الزمن يتحرر الشعر الاسلامي من رواسب البدايات الجاهلية شكلا ومضمونا ... وبمرور الزمن يكتسب الشعر الاسلامي خبرة ومرونة وطول نفس ، وتجد العملية الشعرية نفسها اكثر قدرة على الحركة والامتداد بما منحه الزمن اياها عبر نموها الدايناميي ...

واذا كنا في العقود الاولى لا نكاد نعثر الا على لمحات مبعثرة هنا وهناك ... تكد العين في الوقوع عليها ... فاننا في القرون التالية نجد انفسنا في اسار صعوبة من نوع اخر تماما ... الكثرة المحيرة !!.. بحر من العطاء الشعري الذي لا يدري الانسان ماذا ياخذ منه وماذا يدع !!

ان عشرات ، بل مئات ، من الدواوين الشعرية المجموعة او المفرقة في تواريخ الادب وكتب النقد والموازنة والمنوعات ، لا نكاد نقلب صفحاتها حتى تقع اعيننا على القصائد ذوات العدد مما يمكن ان ندرجه تحت مصطلح (الشعر الاسلامي) ذلك الذي يصدر عن رؤية اسلامية اصيلة ، ويمتد بعطائه الزاخر ، المؤثر ، الى بعض ما تمتد اليه ...

(بعض) ؟ نعم ... ذلك ان كثيرا من الطرق التي شقها الاسلام في قلب العالم ... والافاق الرحبة التي مد اليها الرؤية الايمانية في مدى الكون ... لم يمسها الشعر العربي عبر عصوره جميعا ، لا من قريب ولا من بعيد ... والذي فعله هو ان تناول زوايا محددة فحسب، لا تعدو اصابع اليدين ... بينما الرؤية التي صنعها الاسلام يمكن ان يمسها الشعر من الف زاوية وزاوية ...

ومهما يكن من امر فان (اختيار) الشواهد الشعرية هنا مسالة صعبة ، ومحيرة ، لان الابواب المشرعة كثيرة ، ولا يدري احد من اي باب يدخل !!

واحرى ، في حالة كهذه ، ان يتولى اديب ، شاعر ، متفرغ ... او لجنة من الادباء ، تنفيذ مهمة نحن بامس الحاجة اليها ، ولا تزال تفتقدها مكتبة الادب الاسلامي المعاصر ... تلك هي القيام بجرد اكبر قدر ممكن من الاعمال الشعرية عبر تاريخنا الادبي كله ، وعلى ضوء معايير نقدية اسلامية محّددة سلفا ، يتم ، انتقاء القصائد او المقطوعات التي تصب في مجرى الشعر الاسلامي ، وترفد تياره الصافي ...

وبعد الانتقاء والتجميع يمكن ان تبدا عملية الفرز والتنسيق ، ثم الدراسة والنقد والتحليل ، لكي ما يلبث (العمل) ان يخرج بها على الناس في مجلد واحد او مجلدين او عدة مجلدات حسبما تحتم المادة المنتقاة ... واحرى كذلك ان يعنون هذا العمل بـ (ديوان الشعر الاسلامي) ...

لقد سبق وان قام اخرون بتجربة كهذه ، ولكن باتجاهات اخرى لا صلة لها بالرؤية الاسلامية ، فانتقوا قصائد من الشعر ، وعرضوها ، مدروسة ، محللة ، في مطبوع واحد اسموه (ديوان الشعر العربي) ... والجهود قائمة في هذا السبيل ، لا تزال ...

ونحن لم نبدا بعد ، وقد ان لنا ان نقطع الخطوات الاولى ... والجهد مغر ... وحشود القصائد الاسلامية مطمورة هناك في خضم تراثنا الادبي ، وليس سهلا الاطلاع عليها كما لو كانت منتقاة ومعروضة في مكان واحد ... اننا ، حيثما تصفحنا ديوانا من الدواوين ، او كتابا من كتب تاريخ الادب او النقد وجدنا ضالتنا من غير ما عناء : القصيدة ، او المقطوعة الاسلامية التي يتجاوز جمعها وتحليلها اهدافه الاكاديمية الصرفة الى خلق تيار من الوعي الشعري والنقدي الاسلامي ، قد يلعب دورا خطيرا في مجرى عطائنا الابداعي والنقدي المعاصرين بما يضعه في طريقهما من معالم ومؤشرات ، وبما يرفد به الوجدان الاسلامي المعاصر من وقود اصيل خلاق ...

ولن نترك الموضوع الذي بين ايدينا قبل ان نعرض لعدد من الشواهد لم يكن وراء انتقائها قصد مرسوم ، ان على مستوى النمط الفني او على مستوى التاريخ .. لم نفعل سوى ان نادتنا القصائد المنبثة هنا وهناك ... فلبينا النداء !!

وقد تعمدت الا اضع عناوين للقصائد ... تاركا للقارىء ان يختار العنوان الذي تمنحه اياه الابيات ... ولم اشا ان املا ذيول القصائد تعليقات وشروحا ، وهي متواجدة بوفرة في هوامش الدواوين المحققة التي اعتمدتها ، كي لااخرج بالقارىء عن متعة التعامل المباشر مع العمل الفني ... والقصيدة الممتازة تحكي بنفسها ... فلا تحتاج الى ان يتحدث عنها احد !!

وقد اغفلت في بعض القصائد والمقطوعات عددا من الابيات ، مجموعة او منفردة ، دون ان اشير الى اماكن الاغفال الذي رايته ضروريا لتجاوز الابيات التي تفقد القصيدة شدها وتوترها ، او تخرج بها احيانا عن الهدف الذي توخي في اختيارها ... فعذرا ...

(الشافعي)

اخلاق الرجال ...

(١)

دع الايـــام تفعـــل مـــا تشـــاء ... وطـــب نفســـا اذا حكـــم القضـــاء
ولا تجـــزع لحادثـــة الليـــالي ... فلحـــوادث الـــدنيا بقـــاء ...
وكـــن رجـــلا علـــى الاهـــوال جلـــدا ... وشـــيمتك الســـماحة والوفـــاء
وان كثـــرت عيوبـــك فـــي البرايـــا ... وســـرك ان يكـــون لهـــا غطـــاء ...
تســـتر بالســـخاء فكـــل عيـــب ... يغطيـــه – كمـــا قيـــل – الســـخاء
ولا تـــر للاعـــادي قـــط ذلا ... فـــان شـــماتة الاعـــدا بـــلاء
ولا تـــرج الســـماحة مـــن بخيـــل ... فمـــا فـــي النـــار للظمـــان ... مـــاء
ورزقـــك لـــيس ينقصـــه التـــاني ... ولـــيس يزيـــد فـــي الـــرزق العنـــاء
ولا حـــزن يـــدوم ... ولا ســـرور ... ولا بـــؤس عليـــك ولا رخـــاء
اذا مـــا كنـــت ذا قلـــب قنـــوع ... فانـــت ومالـــك الـــدنيا ســـواء
ومـــن نزلـــت بســـاحته المنايـــا ... فـــلا ارض تقيـــه ولا ســـماء
وارض الله واســـعة ... ولكـــن ... اذا نـــزل القضـــا ضـــاق الفضـــاء
دع الايـــام تغـــدر كـــل حـــين ... فمـــا يعنـــي عـــن المـــوت الـــدواء

(٢)

اذا اصـفر لـون المـرء وابـيض شـعره ... تـــنغص مـــن ايامـــه مســـتطابها
فـدع عنـك سـوءات الامـور فانهـا ... حـرام علـى نفـس التقـي ارتكابهـا
واحسـن الـى الاحـرار تملـك رقـابهم ... فخيـــر تجـــارات الكـــرام اكتســـابها
ولا تمشـين فـي منكـب الارض فـاخرا ... فعمـــا قليـــل يحتويـــك ترابهـــا
ومـــن يـــذق الـــدنيا فـــاني طعمتهـــا ... وســـيق الينـــا عـــذبها وعـــذابها
فلـــم ارهـــا الا غـــرورا ... وبـــاطلا ... كمـــا لاح فـــي ظهـــر الفـــلاة ســـرابها

وما هي الا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذابها
فان تجتنبها كنت سلما لاهلها ... وان تجتذبها نازعتك كلابها
فطوبى لنفس اولعت قعر دارها ... مغلقة الابواب مرخى حجابها

(٣)

ولرب نازلة يضيق لها الفنى ... ذرعا ، وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت ، وكنت اظنها لا تفرج

(٤)

اذا اصبحت عندي قوت يومي ... فخل الهم عني يا سعيد
ولا تخطر هموم غد ببالي ... فان غدا له رزق جديد
اسّلم ان اراد الله امرا ... فاترك ما اريد لما يريد

(٥)

امطري لؤلؤا جبال سرند ر ... ب وفيضي ابار تكرور تبرا
انا ان عشت لست اعدم قوتا ... واذا مت لست اعدم ... قبرا
همتي همة الملوك ونفسي ... نفس حر ترى المذلة كفرا ...
واذا ما قنعت بالقوت عمري ... فلماذا ازور زيدا وعمرا ؟!

(٦)

ورب ظلوم قد كفيت بحربه ... فاوقعه المقدور اي وقوع
فما كان في الاسلام الا تعبدا ... وادعية لا تتقى بدروع ...
مريشة بالهدب من كل ساهر ... منهلة اطرافها .. بدموع !!

(٧)

ان الملـــوك بـــلاء حيثمـــا حلـــوا ... فـلا يكـن لـك فـي ابـوابهم ظـل

مـــاذا تؤمـــل مـــن قـــوم اذا غضـــبوا ... جـاروا عليـك ، وان ارضـيتهم ملـوا ؟

فاســتغن بـــالله عـــن ابـــوابهم كرمـــا ... ان الوقـــوف علـــى ابـــوابهم ذل !!

(٨)

ان لله عبـــــــــادا فطنـــــــــا ... تركـــوا الـــدنيا وخـــافوا الفتنـــا

نظـــروا فيهـــا فلمـــا علمـــوا ... انهـــا ليســـت لحـــي ... وطنـــا ..

جعلوهـــــا لجـــــة واتخـــــذوا ... صـــالح الاعمـــال فيهـــا ســـفنا

(٩)

ســـهرت اعـــين ونامـــت عيـــون ... فـــي امـــور تكـــون او لاتكـــون

فـادرأ الهـم مـا اسـتطعت عـن النـف ... س فحملانـــك الهمـــوم جنـــون

ان ربـــا كفـــاك بـــالامس مـــا كـــا ... ن ســيكفيك فـــي غـد مـــا يكـــون !

(ابو العتاهية)

تاملات في الحياة والموت والمصير

(١)

الخيـــر والشـــر عـــادات واهـــواء ... وقـد يكـون مـن الاحبـاب اعـداء
للحلـم شـاهد صـدق مـن تعمـده ... وللحلـيم عـن العـورات اغضـاء
كـل لـه سـعيه والسـعي مختلـف ... وكـل نفـس لهـا فـي سـعيها شـاء
لكـــل داء دواء عنـــد عالمـــه ... من لـم يكـن عالمـا لـم يـدر مـا الـداء
الحمـد لله يقضـي مـا يشـاء ولا ... يقضـى عليـه ومـا للخلـق مـا شـاءوا
لـم يخلـق الخلـق الا للفنـاء معـا ... تفنـى وتبقـى احاديـث واسـماء
يـا بعـد مـن مـات ممـن كـان يلطفـه ... قامـت قيامتـه والنـاس احيـاء
يقصـي الخليـل اخـاه عنـد ميتتـه ... وكـل مـن مـات اقصـته الاخـلاء
لـم تبـك نفسـك ايـام الحيـاة لمـا ... تخشـى وانـت علـى الامـوات بكـاء
اسـتغفر الله مـن ذنبـي ومـن سـرفي ... انـي وان كنـت مسـتورا لخطـاء
لـم تقتحم بـي دواعـي النفس معصية ... الا وبينـي وبـين النـور ظلمـاء
كـم راتـع فـي ريـاض العـيش تتبعـه ... مـنهن داهيـة تـرتج دهيـاء
وللحـوادث سـاعات مصـرفة ... فـيهن للحـين ادنـاء واقصـاء
كـل ينقـل فـي ضـيق وفـي سـعة ... وللزمـان بـه شـد وارخـاء !!

(٢)

لعمـرك مـا الـدنيا بـدر بقـاء ... كفـاك بـدار المـوت دار فنـاء
فـلا تعشـق الـدنيا اخّـي فانمـا ... يـرى عاشـق الـدنيا بجهـد بـلاء
حلاوتهـا ممزوجـة بمـرارة ... وراحتهـا ممزوجـا بعنـاء
فـلا تمـش يومـا فـي ثيـات مخيلـة ... فانـك مـن طـين خلقـت ومـاء
لقـل امـرؤ تلقـاه الله شـاكرا ... وقـل امـرؤ يرضـى لـه بقضـاء

ولله نعمـــــاء علينـــــا عظيمـــــة ... ولله احســـــان وفضـــــل عطـــــاء
ومـا الـدهر يومـا واحـدا فـي اختلافـه ... ومـــا كـــل ايـــام الفتـــى بســـواء
ومـــا هـــو الا يـــوم بـــؤس وشـــدة ... ويـــــوم ســـــرور مـــــرة ورخـــــاء
ومـا كـل مـا لـم ارج احـرم نفعـه ... ومـا كـل مـا ارجـوه اهـل رجـاء !
ايـــا عجبـــا للـــدهر لا بـــل لريبـــه ... يخـــرم ريـــب الـــدهر كـــل اخـــاء
وشـــتت ريـــب الـــدهر كـــل جماعـــة ... وكـــدر ريـــب الـــدهر كـــل صـــفاء
اذا مـا خليلـي حـل فـي بـرزخ البلـى ... فحســـبي بـــه نايـــا وبعـــد لقـــاء
ازور قبـــور المتـــرفين فـــلا ارى ... بهـــاء وكـــانوا قبـــل اهـــل بهـــاء !
وكـــل زمـــان واصـــل بصـــريمة ... وكـــل زمـــان ملطـــف بجفـــاء ...
يعـز دفـاع المـوت عـن كـل حيلـة ... ويعيـــا بـــداء المـــوت كـــل دواء
ونفـــس الفتـــى مســـرورة بنمائهـــا ... وللـــنقص تنمـــو كـــل ذات نمـــاء
وكـم مـن مفـدى مـات لـم يـر اهلـه ... حبـــوه ولا جـــادوا لـــه بفـــداء
امامـــك يـــا نـــدمان دار ســـعادة ... يـــدوم البقـــا فيهـــا ودار شـــقاء
خلقـت لاحـدى الغـايتين فـلا تـنم ... وكـن بـين خـوف منهمـا ورجـاء .

(٣)

المـــرء آفتـــه هـــوى الـــدنيا ... والمـــرء يطغـــى كلمـــا اســـتغنى
انـــي رايـــت عواقـــب الـــدنيا ... فتركـــت مـــا اهـــوى لمـــا اخشـــى
فكـــرت فـــي الـــدنيا وجـــدتها ... فـــاذا جميـــع جديـــدها يبلـــى
واذا جميـــــع امورهـــــا دول ... بـــين البريـــة قلمـــا ... تبقـــى
وبلـــوت اكثـــر اهلهـــا فـــاذا ... كـــل امـــرىء فـــي شـــانه يســـعى
ولقـــد بلـــوت فلـــم اجـــد ســـببا ... بـــاعز مـــن قنـــع ولا اغلـــى
ولقـــد طلبـــت فلـــم اجـــد كرمـــا ... اعلـــى بصـــاحبه مـــن التقـــوى
ولقـــد مـــررت علـــى القبـــور فمـــا ... ميـــزت بـــين العبـــد والمـــولى
مـــا زالـــت الـــدنيا منغصـــة ... لـــم يخـــل صـــاحبها مـــن البلـــوى
دار الفجـــــائع والهمـــــوم ودار ... البـــؤس والاحـــزان والشـــكوى

بينـــا الفتـــى فيهـــا بمنزلـــة ... اذ صـــار تحـــت ترابهـــا ملقـــى

تقفـــو مســـاويها محاســـنها ... لا شـــيء بـــين النعـــي والبشـــرى

ولقـــلّ يـــوم ذر شـــارقه ... الا ســـمعت بهـــا لـــك ينعـــى

لا تعتـــبن علـــى الزمـــان فمـــا ... عنـــد الزمـــان لعاتـــب عتبـــى

ولـــئن عتبـــت علـــى الزمـــان لمـــا ... يـــاتي بـــه فلقـــل مـــا ترضـــى

المـــرء يـــوقن بالقضـــاء ومـــا ... ينفـــك ان يعنـــى بمـــا يكفـــى

للمـــــرء رزق لا يمـــــوت وان ... جهـــد الخلائـــق دون ان يفنـــى

يـــا بـــاني الـــدار المعـــد لهـــا . ... مـــاذا عملـــت لـــدارك الاخـــرى ؟

وممهـــد الفـــرش الـــوثيرة لا ... تغفـــل فـــراش الرقـــدة الكبـــرى

ولقـــد دعيـــت وقـــد اجبـــت لمـــا ... تـــدعى لـــه فـــانظر لمـــا تـــدعى

اتـــراك تحصـــي مـــن رايـــت مـــن ... الاحيـــاء ثـــم رايـــتهم مـــوتى ؟

فلـــتلحقن بعرصـــة المـــوتى ... ولتنـــزلن محلـــة الهلكـــى

مـــن اصـــبحت دنيـــاه غايتـــه ... فمتـــى ينـــال الغايـــة القصـــوى ؟

بيـــد الفنـــاء جميـــع انفســـنا ... ويـــد البلـــى فلهـــا الـــذي يبنـــى

لا تغتـــرر بالحادثـــات فمـــا ... للحادثـــات علـــى امـــرىء بقيـــا

لا تغـــبطن فتـــى بمعصـــية ... لا تغـــبطن خـــلا اخـــا التقـــوى

ســـبحان مـــن لا شـــيء يعدلـــه ... كـــم مـــن بصـــير قلبـــه اعمـــى

ســـبحان مـــن اعطـــاك مـــن ســـعة ... ســـبحان مـــن اعطـــاك مـــا اعطـــى

فلـــئن عقلـــت لتشـــكرن وان ... تشـــكر فقـــد اغنـــى وقـــد اقنـــى

ولـــئن بكيـــت لرحلـــة عجـــلا ... نحـــو القبـــور فمثلهـــا ابكـــى ...

ولقـــلّ مـــن تصـــفو خلائقـــه ... ولقـــلّ مـــن يصـــفو لـــه المحيـــا

والحـــق ابلـــج لا خفـــاء بـــه ... مـــذ كـــان يبصـــر نـــوره الاعمـــى

والمـــرء مســـترعى امانتـــه ... فليرعهـــا باصـــح مـــا يرعـــى ...

والـــرزق قـــد فـــرض الالـــه لنـــا ... منـــه ونحـــن بجمعـــه نعنـــى

عجبـــا عجبـــت لطالـــب ذهبـــا ... يغنـــى ويـــرفض كـــل مـــا يبقـــى ...

حقـــا لقـــد ســـعدت ومـــا شـــقيت ... نفـــس امـــرىء رضـــيت بمـــا تعطـــى

(٤)

جـــل رب احـــاط بالاشـــياء ... واحـــد ماجـــد بغيـــر خفـــاء
جـــل عـــن مشـــبه لـــه ونظيـــر ... وتعـــالى حقـــا علـــى القرنـــاء
عـــالم الســـر كاشـــف الضـــر يعفـــو ... عـــن قبـــيح الافعـــال يـــوم الجـــزاء
مـــا علـــى بابـــه حجـــاب ولكـــن ... هـــو مـــن خلقـــه ســـميع الـــدعاء
لـــذ بـــه ايهـــا الغفـــول وبـــادر ... تحـــظ مـــن فضـــله بنيـــل العطـــاء

(٥)

اذل الحـــرص والطمـــع الرقابـــا ... وقـــد يعفـــو الكـــريم اذا اســـترابا
اذا اتضـــح الصـــواب فـــلا تدعـــه ... فانـــك كلمـــا ذقـــت الصـــوابا
وجـــدت لـــه علـــى اللهـــوات بـــردا ... كبـــرد المـــاء حـــين صـــفا وطابـــا
ولـــيس بحـــاكم مـــن لا يبـــالي ... االخطـــأ فـــي الحكومـــة ام اصـــابا
وان لكـــل تلخـــيص لوجهـــا ... وان لكـــل مســـالة جوابـــا !
وان لكـــل حادثـــة لوقتـــا ... وان لكـــل ذي عمـــل حســـابا
وان لكـــل مطلـــع لحـــدا ... وان لكـــل ذي اجـــل كتابـــا
وكـــل ســـلامة تعـــد المنايـــا ... وكـــل عمـــارة تعـــد الخرابـــا
وكـــل مملـــك سيصـــير يومـــا ... ومـــا ملكـــت يـــداه معـــا ترابـــا
ابـــت طرفـــات كـــل قريـــر عـــين ... بهـــا الا اضـــطرابا وانقلابـــا
كـــان محاســـن الـــدنيا ســـراب ... واي يـــد تناولـــت الســـرابا ؟
وان يـــك منيـــة عجلـــت بشـــيء ... تسّـــر بـــه فـــان لهـــا ذهابـــا
فيـــا عجبـــا تمـــوت وانـــت تبنـــي ... وتتخـــذ المصـــانع والقبابـــا
اراك وكلمـــا اغلقـــت بابـــا ... مـــن الـــدنيا فتحـــت عليـــك بابـــا
الـــم تـــر ان غـــدوة كـــل يـــوم ... تزيـــدك مـــن منيتـــك اقترابـــا ؟
وحـــق لمـــوقن بـــالموت ان لا ... يســـوغه الطعـــام ولا الشـــرابا
يـــدبر مـــا تـــرى ملـــك عزيـــز ... بـــه شـــهدت حوادثـــه وغابـــا
الـــيس الله فـــي كـــلّ قريبـــا ... بلـــى مـــن حيـــث مـــا نـــودي اجابـــا

ولـــم تـــر ســـائلا لله اكـــدى ... ولـــم تـــر راجيـــا لله ... خابـــا

رايـــت الـــروح جـــدب العـــيش لمـــا ... عرفـــت العـــيش مخضـــا واحتلابـــا

ولســـت بغالـــب الشـــهوات حتـــى ... تعـــد لهـــن صـــبرا واحتســـابا

فكـــل مصـــيبة عظمـــت وجلـــت ... تخـــف اذا رجـــوت لهـــا ثوابـــا

كبرنـــا ايهـــا الاتـــراب حتـــى ... كانـــا لـــم نكـــن حينـــا شـــبابا

وكنـــا كالغصـــون اذا تثنـــت ... مـــن الريحـــان مونعـــة رطابـــا

الـــى كـــم طـــول صـــبوتنا بـــدار ... رايـــت لهـــا اغتصـــابا واســـتلابا ؟

نزعـــت الـــى خضـــاب الشـــيب منـــي ... وان نصـــوله فضـــح الخضـــابا

مضـــى عنـــي الشـــباب بغيـــر ودي ... فعنـــد الله احتســـب الشـــبابا

(٦)

اذا مـا خلـوت الـدهر يومـا فـلا تقـل ... خلـوت ولكـن قـل علـي رقيـب

ولا تحسـبن الله يغفـل مـا مضـى ... ولا ان مـا يخفـى عليـه يغيـب

لهونـا لعمـر الله حتـى تتابعـت ... ذنـوب علـى اثـارهن ذنـوب

فيـا ليـت ان الله يغفـر مـا مضـى ... ويـاذن فـي توباتنـا فنتـوب

اذا مـا مضى القرن الذي كنت فيهم ... وخّلفـت فـي قـرن فانـت غريـب !

وان امـرءا قـد سـار خمسـين حجـة ... الـى منهـل ، مـن ورده لقريـب

نسـيبك مـن ناجـاك بـالود قلبـه ... ولـيس لمـن تحـت التـراب نسـيب

فاحسـن جـزاء مـا اجتهـدت فانمـا ... بقرضـك تجـزى والقـروض ضـروب

(٧)

انلهـــو وايامنـــا تـــذهب ... ونلعـــب والمـــوت لا يلعـــب ؟

عجبـــت لـــذي لعـــب قـــد لهـــا ... عجبـــت ومـــا لـــي لا اعجـــب ؟

ايلهـــو ويلعـــب مـــن نفســـه ... تمـــوت ومنزلـــه يخـــرب ؟

نـــرى كـــل مـــا ســـاءنا دائبـــا ... علـــى كـــل مـــا ســـرنا يغلـــب

نـــرى الخلـــق فـــي طبقـــات البلـــى ... اذا مـــا هـــم صـــعدوا صـــوبوا

نـــرى الليـــل يطلبنـــا والنهـــار ... لـــم نـــدر ايهمـــا اطلـــب ؟

احـــاط الجديـــدان جمعـــا بنـــا ... فلـــيس لنـــا عنهمـــا مهـــرب ..

وكـــل لـــه مـــدة تنقضـــي ... وكـــل لـــه اثـــر يكتـــب

ومـــا زلـــت تجـــري بـــك الحادثـــات ... تســـلم مـــنهن او تنكـــب

ســـتعطى وتســـلب حتـــى تكـــون ... نفســـك اخـــر مـــا يســـلب

(٨)

كـــل الـــى الـــرحمن منقلبـــه ... والخلـــق مـــا لا ينقضـــي عجبـــه

ســـبحان مـــن جـــل اســـمه وعـــلا ... ودنـــا ووارت عينـــه حجبـــه !

ولـــرب غاديـــة ورائحـــة ... لـــم يـــنج منهـــا هاربـــا هربـــه

ولـــرب ذي نشـــب تكنفـــه ... حـــب الحيـــاة وغـــره نشـــبه

قـــد صـــار ممـــا كـــان يملكـــه ... صـــفرا وصـــار لغيـــره ســـلبه

يـــا صـــاحب الـــدنيا المحـــب لهـــا ... انـــت الـــذي لا ينقضـــي تعبـــه

اصـــلحت دارا نصـــحها اشـــب ... جـــم الفـــروع كثيـــرة شـــعبه

ان اســـتهانتها بمـــن صـــرعت ... لبقـــدر مـــا تســـمو بـــه رتبـــه

وان اســـتوت للنمـــل اجنحـــة ... حتـــى يطيـــر فقـــد دنـــا عطبـــه !

انـــي حلبـــت الـــدهر اشـــطره ... فرايتـــه لـــم يصـــف لـــي حلبـــه

فتـــوق دهـــرك مـــا اســـتطعت ولا ... تغـــررك فضـــته ولا ذهبـــه

كـــرم الفتـــى التقـــوى وقوتـــه ... محـــض اليقـــين ودينـــه حســـبه

حلـــم الفتـــى ممـــا يزينـــه ... وتمـــام حليـــة فضـــله ادبـــه

والارض طيبـــة وكـــل بنـــي ... حـــواء فيهـــا واحـــد نســـبه

رايـــت الامـــور وانـــت تبصـــرها ... لا تـــات مـــا لـــم تـــدر مـــا ســـببه !

(٩)

عجبـــت للنـــار نـــام راهبهـــا ... وجنـــة الخلـــد نـــام راغبهـــا
عجبـــت للجنـــة التـــي شّـــوق ... الله اليهـــا اذ نـــام طالبهـــا
انـــي لفـــي ظلمـــة مـــن الحـــب ... للـــدنيا واهـــل التقـــى كواكبهـــا
مـــن لـــم تســـعه الـــدنيا لبلغتـــه ... ضـــاقت علـــى نفســـه مـــذاهبها
مـــن ســـامح الحادثـــات ذلـــت لـــه ... الارض ولانـــت لـــه مناكبهـــا
والمـــرء مـــا دام فـــي الحيـــاة فـــلا ... ينفـــك مـــن حاجـــة يطالبهـــا
يـــا عجبـــا للـــدنيا كـــذا خلقـــت ... مادحهـــا صـــادق وعائبهـــا !

(١٠)

لـــم لا نبـــادر مـــا نـــراه يفـــوت ... اذ نحـــن نعلـــم اننـــا ســـنموت ؟
مـــن لـــم يـــوال الله والرســـل التـــي ... نصـــحت لـــه فوليـــه الطـــاغوت
علماؤنـــا منـــا يـــرون عجائبـــا ... وهـم علـى مـا يبصـرون سـكوت ؟
تفنـــيهم الـــدنيا بوشـــك زوالهـــا ... فجمـــيعهم بغرورهـــا مبهـــوت
وبحسب من يسمو الى شهوات ما ... يكفيـــه مـــن شـــهواته ويقـــوت
يـــا بـــرزه المـــوتى الـــذي نزلـــوا بـــه ... فهـــم رقـــود فـــي ثـــراه خفـــوت
كـم فيـك ممـن كـان يوصـل حبلـه ... قـد صـار بعـد وحبلـه مبتـوت ؟

(١١)

ان كنـت تطمـع فـي الحيـاة فهـات ... كـم مـن اب لـك لـيس فـي الامـوات ؟
مـا اقـرب الشـيء الجديـد مـن البلـى ... يومـــا واســـرع كلمـــا هـــو ات ...
الليـل يعمـل والنهـار ونحـن عمـا ... يعمـــــلان باغفـــــل الغفـــــلات
يـــاذا الـــذي اتخـــذ الزمـــان مطيـــة ... وخطـــا الزمـــان كثيـــرة العثـــرات
مـــاذا تقـــول ولـــيس عنـــدك حجـــة ... لـــو قـــد اتـــاك مهـــدم اللـــذات ؟
او مـــا تقـــول اذا ســـئلت فلـــم تجـــب ... واذا دعيـــت وانـــت فـــي الغمـــرات ؟

او مـــا تقـــول اذا حللـــت محلـــه ... لـــيس الثقـــات لاهلهـــا بثقـــات ؟
او مـــا تقـــول ولـــيس حكمـــك نافـــذا ... فيمـــا تخلقـــه مـــن التركـــات ؟
مـــا مـــن احـــب رضـــاك عنـــك بخـــارج ... حقـــا تقطـــع نفســـه حســـرات
زرت القبـــور ، قبـــور اهـــل الملـــك فـــي ... الـــدنيا واهـــل الرتـــع فـــي الشـــهوات
كـــانوا ملـــوك ماكـــل ومشـــارب ... وملابـــس وروائـــح عطـــرات
فـــاذا باجســـاد عـــرين مـــن الكســـا ... وباوجـــه فـــي التـــرب منعفـــرات
لـــم تبـــق منهـــا الارض غيـــر جمـــاجم ... بـــيض تلـــوح واعظـــم نخـــرات

(١٢)

أمـــا والـــذي يحيـــى بـــه ويمـــات ... لقـــل فتـــى الا لـــه هفـــوات
ومـــا مـــن فتـــى الا ســـيبلى جديـــده ... وتفنـــي الفتـــى الروحـــات والـــدلجات
يغـــر الفتـــى تحريكـــه وســـكونه ... ولا بـــد يومـــا تســـكن الحركـــات
ومـــن يتتبـــع شـــهوة بعـــد شـــهوة ... ملحـــا تقســـم عقلـــه الشـــهوات
ومـــن يـــامن الـــدنيا ولـــيس بحلوهـــا ... ولا مرهـــا فيمـــا رايـــت ثبـــات ؟
اجابـــت نفـــوس داعـــي الله فانقضـــت ... واخـــرى لـــداعي المـــوت منتظـــرات
ومـــا زالـــت الايـــام بالســـخط والرضـــا ... لهـــن وعيـــد مـــرة وعـــدات !!
اذا ازددت مـــالا قلـــت مـــالي وثروتـــي ... ومالـــــك الا الله والحســـــنات

(١٣)

ان ذا المـــوت مـــا عليـــه مجيـــر ... يهلـــك المســـتجار والمســـتجير
ان تكـــن لســـت خـــابرا بالليـــالي ... وباحـــداثها فـــاني خبيـــر ...
هـــن يـــدنيننا مـــن المـــوت قـــدما ... فســـواء صـــغيرنا والكبيـــر
ايهـــا الطالـــب الكثيـــر ليغنـــى ... كـــل مـــن يطلـــب الكثيـــر فقيـــر
واقـــل القليـــل يغنـــي ويكفـــي ... لـــيس يغنـــي ولـــيس يكفـــي الكثيـــر
كيف تعمى عن الهدى كيف تعمى ؟ ... عجبـــا ، والهـــدى ســـراج منيـــر ؟
قـــد اتـــاك الهـــدى مـــن الله نصـــحا ... وبـــه جـــاءك البشـــير النـــذير

ومـــع الله انـــت مـــا دمـــت حيـــا ... والـــــى الله بعـــــد ذاك تصـــــير
والمنايـــــا روائـــــح ... وغـــــواد ... كـــل يـــوم لهـــا ســـحاب مطيـــر
لا تغرنـــــك العيـــــون فكـــــم ... اعمـــــى تـــــراه وانـــــه لبصـــــير
انـــا اغنـــى العبـــاد مـــا كـــان لـــي ... كّـــن ومـــا كـــان لـــي معـــاش يســـير

(١٤)

حتـــى متـــى يســـتفزني الطمـــع ... الـــيس لـــي بالكفـــاف متســـع ؟
مـــا افضـــل الصـــبر والقناعـــة ... للنـــاس جميعـــا لـــو انهـــم قنعـــوا
واخـــدع الليـــل والنهـــار لاقـــوام ... اراهـــم فـــي الغـــي قـــد رتعـــوا
امـــا المنايـــا فغيـــر غافلـــة ... لكـــل حـــي مـــن كاســـها ... جـــرع
اي لبيـــب تصـــفو الحيـــاة لـــه ... والمـــوت ورد لـــه ومنتجـــع
والخلـــق يمضـــي يومـــا ببعضـــهم ... بعضـــا فهـــم تـــابع ومتبـــع
يـــا نفـــس مـــالي اراك امنـــة ... حيـــث يكـــون الروعـــات والفـــزع ؟
مـــا عـــد للنـــاس فـــي تصـــرف ... حـــالاتهم مـــن حـــوادث تقـــع
لقـــد حلبـــت الزمـــان اشـــطره ... فكـــان فـــيهن الصـــاب والســـلع
مـــالي بمـــا قـــد اتـــى بـــه فـــرح ... ولا علـــى مـــا ولـــى بـــه جـــزع
لله در الـــــدنى لقـــــد لعبـــــت ... قبلـــي بقـــوم فمـــا تـــرى صـــنعوا ؟
بـــادوا ووفـــتهم الاهلـــة مـــا ... كـــان لهـــم والايـــام والجمـــع
اثـــروا فلـــم يـــدخلوا قبـــورهم ... شـــيئا مـــن الثـــروة التـــي جمعـــوا
وكـــان مـــا قـــدموا لانفســـهم ... اعظـــم نفعـــا مـــن الـــذي ودعـــوا
غـــدا ينـــادي مـــن القبـــور الـــى ... هـــول حســـاب عليـــه يجتمعـــوا
غـــدا تـــوفى النفـــوس مـــا كســـبت ... ويحصـــد الزارعـــون مـــا زرعـــوا
تبـــارك الله كيـــف قـــد لعبـــت ... بالنـــاس هـــذه الاهـــواء والبـــدع ؟
شـــتت حـــب الـــدنى جمـــاعتهم ... فيهـــا فقـــد اصـــبحوا وهـــم شـــيع

(١٥)

تعـــالى الواحـــد الصـــمد الجليـــل ... وحاشـــى ان يكـــون لـــه عـــديل
هـــو الملـــك العزيـــز وكـــل شـــيء ... ســـواه فهـــو منـــتقص ذليـــل
ومـــا مـــن مـــذهب الا اليـــه ... وان ســـبيله لهـــو الســـبيل
وان لـــه لمنـــا لـــيس يحصـــى ... وان عطـــاءه لهـــو الجزيـــل
وان عطـــاءه عـــدل علينـــا ... وكـــل بلائـــه حســـن جميـــل
وكـــل مفـــوه اثنـــى عليـــه ... ليبلغـــه فمنحســـر كليـــل
ايـــا مـــن قـــد تهـــاون بالمنايـــا ... ومـــن قـــد غـــره الامـــل الطويـــل
الـــم تـــر انمـــا الـــدنيا غـــرور ... وان مقامنـــا فيهـــا قليـــل ؟

(١٦)

هـــل علـــى نفســـه امـــرؤ محـــزون ... مـــوقن انـــه غـــدا مـــدفون ؟
فهـــو للمـــوت مســـتعد معـــد ... لا يصـــون الحطـــام فيمـــا يصـــون
يـــا كثيـــر الكنـــوز ان الـــذي يكفيـــك ... ممـــا اكتنـــزت منهـــا لـــدون
كلنـــا يكثـــر المذمـــة للـــدنيا ... وكـــل بحبهـــا مفتـــون !!
لتنالّنـــك المنايـــا ولـــو انـــك ... فـــي شـــاهق عليـــك الحصـــون
وتـــرى مـــن بهـــا جميعـــا كـــأن قـــد ... غلقـــت مـــنهم ومنـــك الرهـــون
اي حـــي الا سيصـــرعه المـــوت ... والا ستســـتبيه المنـــون ؟
ايـــن اباؤنـــا وابـــاؤكم ، قبـــل ... وايـــن القـــرون ايـــن القـــرون ؟
كـــم انـــاس كـــانوا فـــافتنهم الايـــام ... حتـــى كـــأنهم لـــم يكونـــوا ...
للمنايـــا ولابـــن ادم ايـــا ... م ويـــوم لا بـــد منـــه خـــؤون
والتصـــاريف جمـــة غاديـــات ... رائحـــات والحادثـــات فنـــون
ولمـــرء الفنـــاء فـــي كـــل يـــوم ... حركـــات كـــانهن ســـكون
والمقـــادير لا تناولهـــا الاوهـــام ... لطفـــا ولا تراهـــا العيـــون
وســـيجري عليـــك مـــا كتـــب الله ... وياتيـــك رزقـــه المضـــمون

وســـيكفيك ذا التعـــزز والبغـــي ... مـــن الـــدهر حـــده المســـنون
واليقـين الشـفاء مـن كـل هـم ... مـــا يثيـــر الهمـــوم الا الظنـــون
فـــاز بـــالروح والســـلامة مـــن ... كانـــت فضـــول الـــدنيا عليـــه تهـــون
والغنـــى ان تحســـن الظـــن فـــي الله ... وترضـــــى بكـــــل امـــــر يكـــــون
والـــذي يملـــك الامـــور جميعـــا ... ملـــــك جـــــل نـــــوره المكنـــــون
وســـع الخلـــق قـــدره فجميـــع ... الخلـــق ، فيهـــا ، محـــدد مـــوزون
كـــل شـــيء فقـــد احـــاط بـــه الله ... واحصـــــــاه علمـــــــه المخـــــــزون
ان رأيـــا دعـــا الـــى طاعـــة الله ... لـــــــراي مبـــــــارك ميمـــــــون

(١٧)

ان الســلامة ان نرضــى بمــا قضــيا ... ليســـلمن بـــاذن الله مـــن رضـــيا
المـــرء يامـــل والامـــال كاذبـــة ... والمـــرء تصـــحبه الامـــال مـــا بقيـــا
يـــا رب بـــاك علـــى ميـــت وباكيـــة ... لـــم يلبثـــا بعـــد ذاك الميـــت ان بكيـــا
ورب نـــاع نعـــى حينـــا احبتـــه ... مـــا زال ينعـــى الـــى ان قيـــل قـــد نعيـــا
كـــم مـــن اخ تغتـــذي دود التـــراب بـــه ... وكـــان صـــبا بحلـــو العـــيش مغتـــذيا
يبلـــى مـــع الميـــت ذكـــر الـــذاكرين لـــه ... مـــن غـــاب غيبـــة مـــن لايرتجـــى نســـيا
ان الرحيـــل عـــن الـــدنيا ليزعجنـــي ... ان لـــم يكـــن رائحـــا بـــي كـــان مغتـــديا
الحمـــد لله طـــوبى للســـعيد ومـــن ... لـــم يســـعد الله بـــالتقوى فقـــد شـــقيا
كم غافل عن حياض الموت في لعب ... يمســـي ويصـــبح ركابـــا لمـــا هويـــا
ومـــنقض مـــا تـــراه العـــين منقطـــع ... ماكـــل شـــيء بـــدا الا لينقضـــيا !

(العماد الاصفهاني)

مجاهدون في القمة ...

(١)

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب ... ولا الفراق الى عيشي بمنسوب
ما اخترت بعدك ، لكن الزمان اتى ... كرها بما ليس ، يا محبوب ، محبوبي
ارجو ايابي اليكم ظافرا عجلا ... فقد ظفرت بنجم الدين ايوب[١]
موفق الراي ، ماضي العزم ، مرتفع ... على الاعاجم مجدا والاعاريب
احبك الله اذ لازمت نجدته ... على جبين بتاج الملك معصوب
اخوك وابنك ، صدقا منهما ، اعتصما ... بالله ، والنصر وعدا غير مكذوب
هما همامان في يومي وغى وقرى ... تعودا ضرب هام او عراقيب
غدا يشبان في الكفار نار وغى ... بلفحها يصبح الشبان كالشيب
بملك مصر ونصر المؤمنين غدا ... تحظى النفوس بتانيس وتطييب
ويستقر بمصر يوسف ، وبه ... تقر بعد التنائي عين يعقوب
ويلتقي يوسف فيها باخوته ... والله يجمعهم من غير تثريب

(٢)

بلغت بالجد مالا يبلغ البشر ... ونلت ما عجزت عن نيله القدر
من يهتدي للذي انت اهتديت له ... ومن له مثل ما اثرته اثر ؟
اسرت ام بسراك الارض قد طويت ... فانت اسكندر في السير ام خضر ؟
اوردت خيلا باقصى النيل صادرة ... عن الفرات بقاضي وردها الصدر

---

(١) والد الناصر صلاح الدين يوسف ، والقصيدة موجهة اليه وفيها اشارة الى دور ابنه الناصر واخيه اسد الدين شريكوه في حماية مصر من تهديد الصلبيين. والقصيدة التي تليها موجهة الى اسد الدين في اعقاب ارغامه الصلبيين على الانسحاب من مصر في ظروف صعبة عام ٥٦٣م.

تناقلت ذكرك الدنيا ، فليس لها ... الا حديثك ما بين الورى سمر
فانت من زانت الايام سيرته ... وزاد فوق الذي جاءت به السير
لو في زمان رسول الله كنت ، اتت ... في هذه السيرة المحمودة السور
اصبحت بالعدل والاقدام منفردا ... فقل لنا : اعلي انت ام عمر ؟
اسكندر ذكروا اخبار حكمته ... ونحن فيك راينا كل ما ذكروا
ورستم خبرونا عن شجاعته ... وصار فيك عيانا ذلك الخبر
افخر ، فان ملوك الارض اذهلهم ... ما قد فعلت ، فكل فيك مفتكر
سهرت اذ رقدوا ، بل هجت اذ سكنوا ... وصلت اذ جبنوا ، بل طلت اذ قصروا
يستعظمون الذي ادركته عجبا ... وذاك في جنب ما نرجوه محتقر
قضى القضاء بما نرجوه عن كثب ... حتما ، ووافقك التوفيق والقدر
شكت خيولك ادمان السرى وشكت ... من فلها البيض بل من حطمها السمر
يسر فتح بلاد كان ايسرها ... لغير رايك قفلا فتحه عسر
قرنت بالحزم منك العزم ، فاتسقت ... مارب لك عنها اسفر السفر
ومن يكون بنور الدين مهتديا ... في امره ، كيف لا يقوى له المرر[1]
يرى برايك ما في الملك يبرمه ... فانت منه بحيث السمع والبصر
لقد بغت فئة الافرنج فانتصفت ... منها ، باقدامك ، الهندية البتر
غرست في ارض مصر من جسومهم ... اشجار خط لها من هامهم ثمر
وسال بحر نجيع في مقام وغى ... به الحديد غمام ، والدم المطر
انهرت منهم دماء بالصعيد جرى ... منها الى النيل في واديهم نهر
راوا اليك عبور النيل اذ عدموا ... نصرا فما عبروا حتى قد اعتبروا
تحت الصوارم هام المشركين كما ... تحت الصوالج يوما خفت الاكر
افنت سيوفك من لاقت فان ربكت ... قوما فهم نفر من قبلها نفرو

---

(١) الاشارة الى نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي امير الشام (٥٤١-٥٦٩هـ) واحد كبار ابطال المقاومة الاسلامية ضد الغزاة الصليبين. وقد تمكن خلال فترة حمكه من توحيد مصر واليمن والشام وشملي العراق في دولة واحدة ، تحقيق انتصارات حاسمة ضد الصليبيين مهد بها الطريق لتحرير فلسطين على يد الناصر صلاح الدين احد كبار ضباطه. اما أسد الدين شيركوه فقد كان بمثابة قائد لقوات نور الدين (انظر كتابي : عماد الدين زنكي ، نور الدين محمود : الرجل والتجربة ، للمؤلف).

لـم يـنج الا الـذي عافتـه مـن خبـث ... وحـش الفـلا ، وهـو للمحـذور منتظـر
والسـاكنون القصـور القاهريـة قـد ... نـادى القصـور علـيهم انهـم قهـروا
وشـاور شـاوروه فـي مكائـدهم ... فكـاده الكيـد لمـا خانـه الحـذر[1]
كـانوا مـن الرعـب مـوتى فـي جلـودهم ... وحـين امنـتهم مـن خـوفهم نشـروا
وان مـن (شـيركوه) الشـرك منخـزل ... والكفـر منخـذل ، والـدين منتصـرا
عـول علـى فئـة عنـد اللقـاء وفـت ... وعـد مـن تركمـان قبلـه غـدروا
وكيـف يخـذل جـيش انـت مالكـه ... والقائـدان لـه التاييـد والظفـر ؟
اجـاب فيـك الـه الخلـق دعـوة مـن ... يطيـب بالليـل مـن انفاسـه السـحر

(٣)

لـو حفظـت يـوم النـوى عهودهـا ... مـا مطلـت بوصـلكم وعودهـا
محمد يحمـد عـيش .. بلـدة ... مالكهـا بعدلـه محمودهـا[2]
مؤيـد امـوره ... بعزمـة ... مـن السـماوات العلـى تاييـدها
اثـاره حميـدة ، وانمـا ... للمـرء مـن اثـاره حميـدها
ان الـورى بحبـه وبغضـه ... يعـرف مـن شـقيها سـعيدها
قـد جـاءكم نـور مـن الله فمـن ... بـه اهتـدى فانـه رشـيدها
جـلا ظـلام الظلـم نـور الـدين عـن ... ارض الشـام ، فلـه تحميـدها
ان الرعايـا منـه فـي رعايـة ... ونعمـة مسـتوجب مزيـدها
لنومهـا يسـهر ، بـل لامنهـا ... يخـاف ، بـل يخصـبها بجودهـا
بالـدين والملـك لـه قيامـه ... وللملـوك عنهمـا قعودهـا
ودأبـه ثلـم ثغـور الكفـر ، لا ... لـثم ثغـور نـاقع برودهـا
قـد اسـبغ الله لنـا بعدلـه ... ظـلال امـن وارف مديـدها
غـدا ملـوك الـروم فـي دولتـه ... وهـم علـى رغمهـم عبيـدها
لمـا ابـت هامـاتهم سـجودها ... لله ، اضـحى للظبـا سـجودها

---

(١) شاور : هو احد الخونة المتعاملين مع الغزاة طمعا في استعادة وزارته على مصر.

(٢) الاشارة الى نور الدين محمود ، والقصيدة موجهة اليه ، وكذلك القصائد التي تليها.

ان فارقـــت ســـيوفه غمودهـــا ... فـــان هامـــاتهم غمودهـــا !!
كـم مغلقـات مـن حصـون عزمـه ... مفتاحهـــا ، وســـيفه اقليـــدها
قـد ودت الفـرنج لـو فـرت ، نجـت ... منـــك ، ولكـــن روعهـــا يبيـــدها
قهرتهـــا حتـــى لـــود حيهـــا ... مـــن ذلـــة لـــو انـــه فقيـــدها ...
اماتهـــا رعبـــك فـــي حصـــونها ... كانمـــا حصـــونها لحودهـــا
وان مصـــرا لـــك تعنـــو بعـــدما ... لســـيفك العضـــب عنـــا صـــعيدها
والملـــة الغـــراء خـــال بالهـــا ... عـــال ســـناها ، بـــك حـــال جيـــدها
مفتـــرة ثغورهـــا ، ممنوعـــة ... ثغورهـــا ، محفوظـــة حـــدودها
وان بغـــى جالوتهـــا ضـــلالة ... فانـــت فـــي اهلاكـــه داوودهـــا
يـا ابـن قسـيم الدولـة الملـك الـذي ... خـرت لـه مـن الملـوك صـيدها
دع العـــدا بغيظهـــا فانمـــا ... يـــذيب اكبـــاد العـــدا حقودهـــا
يـــا دولـــة نوريـــة امـــن الـــورى ... وخصـــبها ، وجودهـــا ، وجودهـــا !
مـــا مثـــل الـــدنيا لمـــن يجمعهـــا ... بـــالحرص ، الا قـــزة ودودهـــا
انـــت الـــذي يرفضـــها عـــن قـــدرة ... فـــلا يشـــوب زهـــده زهيـــدها
فـــابق لنـــا يـــا ملكـــا ، بقـــاؤه ... فـــي كـــل عـــام للرعايـــا عيـــدها
فـــي نعمـــة جديـــدة ســـعودها ... ودولـــة ســـعيدة جـــدودها

(٤)

اســـلم لبكـــر الفتـــوح مفترعـــا ... ودم لملـــك الـــبلاد منتزعـــا
فـــان اولـــى الـــورى بهـــا ملـــك ... غـــدا بعـــبء الخطـــوب مضـــطلعا
ان ضـــاق امـــر فغيـــر همتـــه ... لكشـــف ضـــيق الامـــور لـــن يســـعا
يـــا محيـــي العـــدل بعـــد ميتتـــه ... ورافـــع الحـــق بعـــدما اتضـــعا
ونـور ديـن الهـدى الـذي قمـع الشـرك ... ، وعفـــى الضـــلال والبـــدعا ...
انـت سـليمان فـي العفـاف وفـي الـ ... ملـــك ، وتحكـــي بزهـــدك اليســـعا
حـزت البقـا ، والحيـاء ، والكـرم المحـ ... ض ، وحســـن اليقـــين والورعـــا
اسـقطت اقسـاط مـا وجـدت مـن المكـ ... س بعـــدل ، والقاســـط ارتـــدعا

ولـم تـدع فـي ابتغـاء مصـلحة الـد ... يـــن لنـــا باقيـــا ، ولـــن تـــدعا
وكـــل مـــا فـــي الملـــوك مفتـــرق ... مـــن المعـــالي لملكـــك اجتمعـــا
همتـــك الـــربط والمـــدارس تبـــ ... نيهـــا ثوابـــا وتهـــدم البيعـــا
مـــا زلـــت ذا فطنـــة مؤيـــدة ... علـــى غيـــوب الاســـرار مطلعـــا
بباسـك البـيض والطلـى اصـطحبت ... بعـــدلك الـــذئب والطـــلا رتعـــا
كـم صـائد لـم يقـع لـه قـنص ... فـي شـرك وهـو فيـه قـد وقعـا ؟
ومالـــك ، حـــين رمـــت قلعتـــه ... غـــدا مطيعـــا للامـــر متبعـــا[1]
عنـــا خشـــوعا لـــرب مملكـــة ... لغيـــر رب الســـماء مـــا خشـــعا
كـان مقيمـا منهـا علـى الفلـك الـ ... اعلـــى شـــهابا بنـــوره ســـطعا
لكنمـــا الشـــهب مـــا تنيـــر اذا ... لاح عمـــود الصـــباح فانصـــدعا
يـــدفعها طائعـــا اليـــك وكـــم ... عنهـــا ابـــاء بجهـــده دفعـــا
هـــي التـــي فـــي علوهـــا زحـــل ... كـــر علـــى وردهـــا ومـــا كرعـــا ...
وهـي التـي قاربـت عطـارد فـي الـ ... افـــق فلاحـــا والفرقـــدين معـــا
هضـبة عـز لـولاك مـا ارتقيـت ... وطـــود ملـــك لـــولاك مـــا فرعـــا
مـــا قبلـــت فـــي ارتقـــاء ذروتهـــا ... مـــن ملـــك ، لا رقـــي ولا خـــدعا
عـزت علـى المالـك الشـهيد واعـ ... طتـــك قيـــادا مـــا زال ممتنعـــا
لـــلاب لـــو جـــل خطبهـــا لغـــدا ... محرمـــا لابنـــه ومـــا شـــرعا
مـا زلـت محمـودا فـي امـورك محمـو ... لا بثـــوب الاقبـــال متـــدعا

(٥)

هـل لعـاني الهـوى مـن الاسـر فـادي ... ولســـاري ليـــل الصـــبابة هـــادي ؟
جنبـــوني خطـــب البعـــاد فســـهل ... كـــل خطـــب ســـوى النـــوى والبعـــاد
قـد حللـتم مـن مهجتـي فـي السـويدا ... ء ، ومـــن مقلتـــي محـــل الســـواد
ســـمتموني تجلـــدا واشـــتياقا ... ومحـــال تجمـــع الاضـــداد !!

---

(١) الاشـارة الـى حادثـة تسـليم شـهاب الـدين مالـك العقيلـي لقلعـة ججـو المنيعـة ، المطلـة علـى الفـرات الـى نور الدين محمود ، وكان ابوه عماد الدين زنكي قد اغتيل عند اسوارها.

ابقـــاء بعـــد الاحبـــة يـــا قلـــ ... بـــي ! مـــا هـــذا شـــروط الـــوداد
ذاب قلبـــي وســـال فـــي الـــدمع لمـــا ... دام مـــن نـــار وجـــده فـــي اتقـــاد
مـــا الـــدموع التـــي تحـــددها الاشـــ ... واق الا فتائـــــــت الاكبـــــــاد
حبـــذا ســـاكنو فـــؤادي وعهـــدي ... بهـــم يســـكنون ســـفح الـــوادي
اتمنـــى بالشـــام اهلـــي ببغـــدا ... د ، وايـــن الشـــام مـــن بغـــداد ؟
مـــا اعتياضـــي عـــن حـــبهم يعلـــم الله ... تعـــالى الا بحـــب الجهـــاد !!
واشـــتغالي بخدمـــة الملـــك العـــا ... دل محمـــود ، الكـــريم ، الجـــواد
انـــا منـــه علـــى ســـرير ســـروري ... راتـــع العـــيش فـــي مـــراد مـــرادي
قـــد وردت البحـــر الخضـــم وخلفـــ ... ت ملـــوك الـــدنيا بـــه كالثمـــاد
هـــو نعـــم الملـــاذ مـــن نائـــب الدهـــ ... ر ونعـــم المعـــاذ عنـــد المعـــاد
جـــل رزء الفـــرنج فاســـتبدلوا منـــه ... بلـــبس الحديـــد لـــبس الحـــداد !!
فـــرق الرعـــب منـــه فـــي انفـــس الكفـــار ... ، بـــــين الارواح والاجســـــاد !!
ســـطوة زلزلـــت بســـكانها الار ... ض وهـــدت قواعـــد الاطـــواد[1]
اخـــذتهم بـــالحق رجفـــة بـــاس ... تـــركتهم صـــرعى صـــروف العـــوادي
خفضـــت فـــي قلاعهـــا كـــل عـــال ... واعـــادت قلاعهـــا كالوهـــاد
انفـــذ الله حكمـــه فهـــو مـــاض ... مظهـــر ســـر غيبـــه فهـــو بـــادي
ايـــة اثـــرت ذوي الشـــرك بالهلـــك ... واهـــل التوحيـــد بالارشـــاد
والاعـادي جـرى علـيهم مـن التـدمير ... مـــا قـــد جـــرى علـــى قـــوم عـــاد
اشـركت فـي الهـلاك بـين الفـريقين : ... دعـــاة الاشـــراك والالحـــاد
ولقـــد حـــاربوا القضـــاء فامضـــى ... حكمـــه فـــيهم بغيـــر جـــلاد ...
والالـــه الـــرؤوف فـــي الشـــام عنـــا ... دافـــع لطفـــه بـــلاء الـــبلاد

(٦)

عقـــدت بنصـــرك رايـــة الايمـــان ... وبـــدت لعصـــرك ايـــة الاحســـان
يـــا غالـــب الغلـــب الملـــوك وصـــائد ... الصـــيد الليـــوث وفـــارس الفرســـان
يـــا ســـالب التيجـــان مـــن اربابهـــا ... حـــزت الفخـــار علـــى ذوي التيجـــان

---

(١) اشارة الى الزلزلة التي ضربت المنطقة بعنف عام ٥٦٥هـ.

محمـود المحمـود مـا بـين الـورى ... فـي كـل اقلـيم بكـل لسـان
يـا واحـدا فـي الفضـل غيـر مشـارك ... اقسـمت : مالـك فـي البسـيطة ثـاني
احلـى امانيـك الجهـاد وانـه ... لـك مـؤذن ابـدا بكـل امـان
كـم بكـر فـتح ولدتـه ظبـاك مـن ... حـرب لقمـع المشـركين عـوان
كـم وقعـة لـك بـالفرنج حـديثها ... قـد سـار فـي الافـاق والبلـدان
وملكـت رق ملـوكهم ، وتـركتهم ... بالـذل فـي الاقيـاد والاسـجان
وجعلـت فـي اعنـاقهم اغلالهـم ... وسـحبتهم هونـا علـى الاذقـان
اذ فـي السـوابغ تحطـم السـمر القنـا ... والبـيض تخضـب بـالنجيع القـاني
وعلـى غنـاء المشـرفية فـي الطلـى ... والهـام رقـص عـوالي المـرّان
وكـأن بـين النقـع لمـع حديـدها ... نـار تـألق مـن خـلال دخـان
فـي مـازق ورد الوريـد مكفـل ... فيـه بـري الصـارم الظمـان
غطـى العجـاج بـه نجـوم سـمائه ... لتنـوب عنهـا انجـم الخرصـان[1]
او ماكفـاهم ذاك حتـى عـاودوا ... طـرق الضـلال ومركـب الطغيـان ؟
اصـبحت للاسـلام ركنـا ثابتـا ... والكفـر منـك مضعضـع الاركـان
قوضـت اسـاس الضـلال بعزمـك ... الماضـي ، وشـدت مبـاني الايمـان
قـل : ايـن مثلـك فـي الملـوك مجاهـد ... لله فـي سـر وفـي اعـلان ؟
لـم تلقهـم ثقـة بقـوة شـوكة ... لكـن وثقـت بنصـرة الـرحمن
مـا زال عزمـك مسـتقلا بالـذي ... لا يسـتقل بثقلـه الـثقلان
وبلغـت بالتاييـد اقصـى مبلـغ ... مـا كـان فـي وسـع ولا امكـان
دانـت لـك الـدنيا فقاصـيها اذا ... حققتـه – لنفـاذ امـرك – دانـي
فمـن العـراق الـى الشـآم الـى ذرا ... مصـر ، الـى قـوص الـى اسـوان
لـم تلـه عـن بـاقي الـبلاد وانمـا ... الهـاك فـرض الغـزو عـن همـذان
للـروم والافـرنج منـك مصـائب ... بـالترك والاكـراد والعربـان
اذعنـت لله المهـيمن اذ عنـت ... لـك اوجـه الامـلاك بالاذعـان
انـت الـذي دون الملـوك وجدتـه ... مـلآن مـن عـرف ومـن عرفـان

---

(١) الرماح.

فـي بـاس عمـرو ، فـي بسـالة حيـدر فـي نطـق قـس ، فـي تقـى سـلمان

سـير لـو ان الـوحي ينـزل انزلـت فـي شـانها سـور مـن القـران

فاسـلم طويـل العمـر ممتـد المـدى صـافي الحيـاة ، مخلـد السـلطان

(ابو نواس)

الباب المفتوح ...

(١)

ايـا مـن لـيس لـي منـه مجيـرُ ... بعفـوك مـن عـذابك اسـتجيرُ
انـا العبـد المقـر بكـل ذنـب ... وانـت السـيد المـولى الغفـور
فـان عـذبتني فبسـوء فعلـي ... وان تغفـر فانـت بـه جـدير
افـر اليـك منـك ... وايـن الا ... اليـك يفـر منـك المسـتجير ؟

(٢)

رضـيت لنفسـك سـواتها ... ولـم تـال جهـدا لمرضـاتها
وحسـنت اقـبح اعمالهـا ... وصـغرت اكبـر زلاتهـا ...
وكـم مـن طريـق لاهـل الصـبا ... سـلكت سـبيل غواياتهـا
فـاي دواعـي الهـوى عفتهـا ... ولـم تجـر فـي طـرق لـذاتها ؟
وهـذي القيامـة قـد اشـرفت ... تريـك مخـاوف نزعاتهـا
وقـد اقبلـت ... بمواعيـدها ... واهوالهـا ، فـارع لوعاتهـا
وانـي لفـي بعـض اشـراطها ... واياتهـا ، وعلاماتهـا ...
تبـارك رب دحـا ارضـه ... واحكـم تقـدير اقواتهـا ...
وصـيرها محنـة للـورى ... تغـر الغـوي بغزواتهـا
فمـا نرعـوي لاعاجيبهـا ... ولا لتصـرف حالاتهـا
ننـافس فيهـا ، وايامهـا ... تـردد فينـا بافاتهـا
امـا يتفكـر احياؤهـا ... فيعتبـرون باموتهـا ؟

(٣)

يـــا بنـــي الـــنقص والغبـــر ... وبنـــي الضـــعف والخـــور
وبنـــي البعـــد فـــي الطبـــا ... ع علـــى القـــرب فـــي الصـــور
والشـــكول التـــي تبـــا ... يـــن فـــي الطـــول والقصـــر
الاحتســـاء مـــن الحـــرا ... م ، وختمـــا علـــى الصـــدر ؟
ايـــن مـــن كـــان قـــبلكم ... مـــن ذوي البـــاس والخطـــر ؟
ســـائلوا عـــنهم المـــدا ... ئـــن ، واســـتبحثوا الخبـــر
ســـبقونا الـــى الرحيـــ ... ـل وانـــا علـــى الاثـــر
مـــن مضـــى عبـــرة لنـــا ... وغـــدا نحـــن معتبـــر !!
ان للمـــوت اخـــذة ... تســـبق اللمـــح بالبصـــر
فكـــاني بكـــم ... غـــدا ... فـــي ثيـــاب مـــن المـــدر
قـــد نقلـــتم مـــن القصـــو ... ر الـــى ظلمـــة الحفـــر
حيـــث لا تضـــرب القبـــا ... ب علـــيكم ، ولا الحجـــر
حيـــث لا تظهـــرون فيـــ ... ـها للهـــو ولا ســـمر
رحـــم الله مســـلما ... ذكـــر الله فـــازدجر ...
غفـــر الله ذنـــب مـــن ... خـــاف فاستشـــعر الحـــذر

(٤)

لا تفـرغ الـنفس مـن شـغل بـدنياها ... رايتهـا لـم ينلهـا مـن تمناهـا
انـا لنـنفس فـي دنيـا موليـة ... ونحـن قـد نكتفـي منهـا بادناهـا
حـذرتك الكبـر لا يعلقـك ميسـمه ... فانـه ملـبس نازعتـه الله
يـا بـؤس جلـد علـى عظـم مخرقـة ... فيـه الخـروق اذا كلمتـه تاهـا
يـرى عليـك بـه فضـلا يبـين بـه ... ان كان في العاجل السلطان والجاها
مـثن علـى نفسـه ، راض بسـيرتها ... كـذبت يـا خـادم الـدنيا ومولاهـا
انـي لامقـت نفسـي عنـد نخوتهـا ... فكيـف امـن مقـت الله اياهـا ؟
انـت اللئـيم الـذي لـم تعـد همتـه ... ايثـار دنيـا اذا نادتـه لباهـا

يـا راكـب الـذنب قـد شـابت مفارقـه امـا تخـاف مـن الايـام عقباهـا ؟

(٥)

المـــــوت منـــــا قريـــــب ولـــــيس عنـــــا بنـــــازحْ
فـــــي كـــــل يـــــوم نعـــــي تصـــــيح منـــــه الصـــــوائح
تشـــــجى القلـــــوب وتبكـــــي مولـــــــولات النـــــــوائح
حتـــــى متـــــى انـــــت تلهـــــو فـــــي غفلـــــة ، وتمـــــازح ؟
والمـــــوت فـــــي كـــــل يـــــوم فـــــي زنـــــد عيشـــــك قـــــادح ؟
فاعمـــــل ليـــــوم عبـــــوس مـــــن شـــــدة الهـــــول كـــــالح
ولا يغرنـــــــــك دنيـــــــــا نعيمهـــــا عنـــــك نـــــازح
وبغضـــــــها لـــــك زيـــــن وحبهـــــا لـــــك فاضـــــح

(٦)

ســـــكن يبقـــــى لـــــه ســـــكنُ مـــــا لهـــــذا يـــــؤذن الـــــزمنُ
نحـــــن فـــــي دار يخبرنـــــا ببلاهـــــا نـــــاطق لحـــــن
دار ســـــوء لـــــم يـــــدم فـــــرح لامـــــرىء فيهـــــا ولا حـــــزن
كـــــل حـــــي عنـــــد ميتتـــــه حظـــــه مـــــن مالـــــه الكفـــــن

(٧)

افنيـــت عمـــرك ، والـــذنوب تزيـــدُ والكاتـــب المحصـــي عليـــك شـــهيدُ
كـــم قلـــت لســـت بعائـــد فـــي ســـوءة ونـــذرت فيهـــا ثـــم صـــرت تعـــود
حتـــى متـــى لا ترعـــوي عـــن لـــذة وحســـابها يـــوم الحســـاب شـــديد ؟
وكـــانني بـــك قـــد اتتـــك منيـــة لا شـــك ان ســـبيلها مـــورود

(٨)

سبحان علام الغيوبِ ... عجبا لتصريف الخطوبِ
تغدو على قطف النفو ... س ، وتجتني ثمر القلوب
حتى متى يا نفس تغ ... رين بالامل الكذوب ؟
يا نفس توبي قبل ان ... لا تستطيعي ان تتوبي
واستغفري لذنوبك الـ ... رحمن غفار الذنوب
ان الحوادث كالريا ... ح عليك دائمة الهبوب
والموت شرع واحد ... والخلق مختلفو الضروب
والسعي في طلب التقى ... من خير مكتسب الكسوب
ولقلما ينجو الفتى ... بتقاه من لطخ العيوب !

(٩)

كل ناع فسينعى ... كل باك فسيبكى
كل مذخور سيفنى ... كل مذكور سينسى
ليس غير الله يبقى ... من علا فالله اعلى
ان شيئا قد كفينا ... هـ له نسعى ونشقى
ان للشر ، وللخيـ ... ـر لسيما ليس تخفى
كل مستخف بسر ... فمن الله بمرأى
لا ترى شيئا على اللـ ... ـه من الاشياء يخفى

(١٠)

أية نار قدح القادحُ ... واي جد بلغ المازحُ ؟
لله در الشيب من واعـ ... ـظ وناصح لو سمع الناصح
يابى الفتى الا اتباع الهوى ... ومنهج الحق له واضح
فاسم بعينيك الى نسوة ... مهورهن العمل الصالح

لا يجتلـــي الحـــوراء مـــن خـــدرها ... الا امـــــرؤ ميزانـــــه راجـــــح
مـــن اتقـــى الله فـــذاك الـــذي ... ســـيق اليـــه المتجـــر الـــرابح
شـــمر فمـــا فـــي الـــدين اغلوطـــة ... ورح لمـــا انـــت لـــه رائـــح !!

(١١)

أيـــا رب وجـــه فـــي التـــراب عتيـــقِ ... ويـــا رب حســـن فـــي التـــراب رقيـــقِ
ويـــا رب حـــزم فـــي التـــراب ونجـــدة ... ويـــا رب راي فـــي التـــراب وثيـــق
ارى كـــل حـــي هالكـــا وابـــن هالـــك ... وذا نســـب فـــي الهـــالكين عريـــق
فقـــل لقريـــب الـــدار انـــك ظـــاعن ... الـــى منـــزل نـــائي المحـــل ســـحيق
اذا امـــتحن الـــدنيا لبيـــب تكشـــفت ... لـــه عـــن عـــدو فـــي ثيـــاب صـــديق

(١٢)

يـــا رب ان عظمـــت ذنـــوبي كثـــرة ... فلقـــد علمـــت بـــان عفـــوك اعظـــمُ
ان كـــان لا يرجـــوك الا محســـن ... فـــبمن يلـــوذ ويســـتجير المجـــرم
ادعـــوك رب كمـــا امـــرت تضـــرعا ... فـــاذا رددت يـــدي فمـــن ذا يـــرحم ؟
مـــال اليـــك وســـيلة الا الرجـــا ... وجميـــل عفـــوك ... ثـــم انـــي مســـلم

(١٣)

ســـبحان مـــن خلـــق الخلـــ ... ـــق مـــن ضـــعيف مهـــينِ
يســـوقه مـــن هـــواء ... الـــى قـــرار مكـــين
فـــي الحجـــب شـــيئا فشـــيئا ... يحـــور دون العيـــون
حتـــى بـــدت حركـــات ... مخلوقـــة مـــن ســـكون

(١٤)

إن مــع اليــوم – فــاعلمن – غــدا فــانظر بمــا ينقضــي مجــيء غــده
مــا ارتــد طــرف امــرىء بلذتــه الا وشــيء يمــوت مــن جســده

(١٥)

انقضــت شــرتي فعفــت الملاهــي اذ رمــى الشــيب مفرقــي بالــدواهي
ونهتنــي النهــى فملــت الــى العــد ل ، واشــفقت مــن مقالــة نــاه
ايهــا الغافــل المقــيم علــى السهــ و ، ولا عــذر فــي المقــام لســاه
لا باعمالنــــا نطيــــق خلاصــــا يــوم تبــدو الســماء فــوق الجبــاه
غيــر انــي علــى الاســاءة والتفــ ريــــط راج لحســــن عفــــو الله

(١٦)

الهنــــا مــــا اعــــدلكْ مليــــك كــــل مــــن ملــــكْ
لبيــــــــك قــــــــد لبيّــــــــت لــــــــك
لبيــــك ان الحمــــد لــــك والملــــك ، لا شــــريك لــــك
مــــا خــــاب عبــــد ســــالك انــــت لــــه حيــــث ســــلك
لــــــــولاك يــــــــا رب هلــــــــك
لبيــــك ان الحمــــد لــــك والملــــك لا شــــريك لــــك
كــــل نبــــي وملــــك وكــــل مــــن اهــــل لــــك
وكــــل عبــــد ســــألك ســــبح او لبــــى فلــــك
لبيــــك ان الحمــــد لــــك والملــــك ، لا شــــريك لــــك
والليــــل لمــــا ان حلــــك والســــابحات فــــي الفلــــك
علــــــــى مجــــــــاري المنســــــــلك
لبيــــك ان الحمــــد لــــك والملــــك ، لا شــــريك لــــك
اعمــــل وبــــادر اجلــــك واخــــتم بخيــــر عملــــك
لبيــــك ان الحمــــد لــــك والملــــك .. لا شــــريك لــــك !!

(١٧)

اصـــبر لمـــر حـــوادث الـــدهرِ ... فلتحمـــدن مغبـــة الصـــبرِ

وامهـــد لنفســـك قبـــل ميتتهـــا ... واذخـــر ليـــوم تفاضـــل الـــذخر

فكـــان اهلـــك قـــد دعـــوك ، فلـــم ... تســـمع ، وانـــت محشـــرج الصـــدر

وكـــانهم قـــد عطـــروك بمـــا ... يتـــزود الهلكـــى مـــن العطـــر

وكـــانهم قـــد قلبـــوك علـــى ... ظهـــر الســـرير وظلمـــة القبـــر

ياليـــت شـــعري كيـــف انـــت علـــى ... ظهـــر الســـرير ، وانـــت لا تـــدري ؟

او ليـــت شـــعري كيـــف انـــت اذا ... وضـــع الحســـاب صـــبيحة الحشـــر

مـــا حجتـــي فيمـــا اتيـــت ومـــا ... قـــولي لربـــي ، بـــل ومـــا عـــذري؟

ان لا اكـــون قصـــدت رشـــدي او ... اقبلـــت مـــا اســـتدبرت مـــن امـــري

يـــا ســـوأتا ممـــا اكتســـبت ، ويـــا ... اســـفي علـــى مـــا فـــات مـــن عمـــري

(البوصيري)

رحلة مؤثرة الى رسول الله ...

كيـــف ترقـــى رقيـــك الانبيـــاءُ ... يـــا ســـماء مـــا طاولتهـــا ســـماءُ ؟
لـــم يســـاووك فـــي عـــلاك وقـــد حـــا ... ل ســـنا منـــك دونهـــم وســـناء
انمـــا مثلـــوا صـــفاتك للنـــا ... س كمـــا مثـــل النجـــوم المـــاء
انـــت مصـــباح كـــل فضـــل فمـــا ... تصـــدر الا عـــن ضـــوئك الاضـــواء
لـــك ذات العلـــوم مـــن عـــالم ... الغيـــب ومنهـــا لادم الاســـماء
لـــم تـــزل فـــي ضـــمائر الكـــون تختـــا ... ر لـــك الامهـــات والابـــاء
مـــا مضـــت فتـــرة مـــن الرســـل الا ... بشـــرت قومهـــا بـــك الانبيـــاء
تتبـــاهى بـــك العصـــور وتســـمو ... بـــك عليـــاء بعـــدها عليـــاء
وبـــدا للوجـــود منـــك كـــريم ... مـــن كـــريم ابـــاؤه كرمـــاء ...
نســـب تحســـب العـــلا بحـــلاه ... قلدتـــه نجومهـــا الجـــوزاء ...
حبـــذا عقـــد ســـؤدد وفخـــار ... انـــت فيـــه اليتيمـــة العصـــماء
ومحيـــا كالشـــمس منـــك مضـــيء ... اســـفرت عنـــه ليلـــة غـــراء
ليلـــة المولـــد الـــذي كـــان للـــدين ... ســـرورا بيومـــه ... وازدهـــاء
وتوالـــت بشـــرى الهواتـــف ان قـــد ... ولـــد المصـــطفى وحـــق الهنـــاء
وتـــداعى ايـــوان كســـرى ولـــولا ... ايـــة منـــك مـــا تـــداعى البنـــاء
وغـــدا كـــل بيـــت نـــار وفيـــه ... كربـــة مـــن خمودهـــا وبـــلاء
وعيـــون للفـــرس غـــارت فهـــل كـــا ... ن لنيـــرانهم بهـــا اطفـــاء ؟
فهنيئـــا بـــه لآمنـــة الفضـــل ... الـــذي شـــرّفت بـــه حـــواء !!

***

الـــف النســـك والعبـــادة والخلـــوة ... طفـــلا ... وهكـــذا النجبـــاء
واذا حلـــت الهدايـــة قلبـــا ... نشـــطت فـــي العبـــادة الاعضـــاء
بعـــث الله عنـــد مبعثـــه الشـــهب ... حراســـا وضـــاق عنهـــا الفضـــاء
تطـــرد الجـــن عـــن مقاعـــد للســـمع ، ... كمـــا تطـــرد الـــذئاب الرعـــاء

فمحـــت ايـــة الكهانـــة ايـــا ... ت مـــن الـــوحي مـــالهن امحـــاء !!

***

ثـــم قـــام النبـــي يـــدعو الـــى الله ... وفـــي الكفـــر نجـــدة ... وابـــاء
امـمـــا اشـــربت قلـــوبهم الكفـــر ، ... فـــداء الضـــلال فـــيهم عيـــاء
وراينـــــا اياتـــــه فاهتـــــدينا ... واذا الحـــق جـــاء زال المـــراء
رب ان الهـــدى هـــداك وايـــا ... تـــك نـــور تهـدي بهـا مـن تشـاء
كـــم راينـــا مـــا لـــيس يعقـــل ... قـد الهـم مـا لـيس يلهـم العقـلاء
اذ ابـــى الفيـــل مـــا اتـــى صـــاحب ... الفيـــل ولـــم ينفـــع الحجـــا والـــذكاء
والجمـــــادات افصـــــحت بالـــــذي ... اخـــرس عنـــه لاحمـــد الفصـــحاء
ويـــح قـــوم جفـــوا نبيـــا بـــارض ... الفتـــــه ضـــــبابها والظبـــــاء
وســـــلوه وحـــــن جـــــذع اليـــــه ... وقلـــــــــوه ووده الغربـــــــاء
اخرجـــــوه منهـــــا واواه غـــــار ... وحمتـــــه حمامـــــة ورقـــــاء
واختفـــى مـــنهم علـــى قـــرب مـــرآ ... ه ومـــن شـــدة الظهـــور الخفـــاء
ونحـــا المصـــطفى المدينـــة واشـــتا ... قـــت اليـــه مـــن مكـــة الانحـــاء
فطـــوى الارض ســـائرا والســـماوا ... ت العـــلا فوقهـــا لـــه اســـراء
فصـف الليلـة التـي كـان للمختـار ... فيهـــا علـــى البـــراق اســـتواء
وترقـــى بـــه الـــى قـــاب قوســـين ... وتلـــك الســـيادة القعســـاء
رتـــب تســـقط الامـــاني حســـرى ... دونهـــا مـــا وراءهـــن وراء
ثـــم وافـــى يحـــدث النـــاس شـــكرا ... اذ اتتـــه مـــن ربـــه النعمـــاء
وتحـــدى فارتـــاب كـــل مريـــب ... او يبقـــى مـــع الســـيول الغثـــاء ؟
وهـــو يـــدعو إلـــى الالـــه وان شـــق ... عليـــــه كفـــــر بـــــه وازدراء
ويـــدل الـــورى علـــى الله بـــالتو ... حيـــد وهـــو المحجـــة البيضـــاء
فبمـــا رحمـــة مـــن الله لانـــت ... صـــخرة مـــن ابـــائهم صـــماء
واســـتجابت لـــه بنصـــر وفـــتح ... بعـــد ذاك الخضـــراء والغبـــراء
واطاعـــت لامـــره العـــرب العـــر ... بـــاء والجاهليـــة الجهـــلاء
وتوالـــت للمصـــطفى الايـــة الكبـــرى ... علـــيهم والغـــارة الشـــعواء

فـــاذا مـــا تـــلا كتابـــا مـــن الله ... تلتـــــه كتيبـــــة خضـــــراء !!
وكفـــاه المســـتهزئين وكـــم ســـا ... ء نبيـــا مـــن قومـــه اســـتهزاء
لا تخـــل جانـــب النبـــي مضـــاما ... حـــين مســـته مـــنهم الاســـواء
كـــل امـــر نـــاب النبيـــين فالشـــدة ... فيـــــه محمـــــودة ... والرخـــــاء
لـــو يمـــس النضـــار هـــون مـــن النـــا ... ر لمـــا اختيـــر للنضـــار الصـــلاء
كـــل يـــد عـــن نبيـــه كفهـــا الله ... وفـــي الخلـــق كثـــرة واجتـــراء !!

***

فتنـــزه فـــي ذاتـــه ومعانيـــه اســـتماعا ... ان عـــــز منهـــــا اجـــــتلاء ...
وامـــلأ الســـمع مـــن محاســـن يمليهـــا ... عليـــــك الانشـــــاد والانشـــــاء
كـــل وصـــف لـــه ابتـــدات بـــه اســـتو ... عـــب اخبـــار الفضـــل منـــه ابتـــداء
ســـيد ضـــحكه التبســـم والمشـــي ... الهوينـــــا ونومـــــه الاغفـــــاء
مـــا ســـوى خلقـــه النســـيم ولا ... غيـــر محيـــاه الروضـــة الغنـــاء
رحمـــــة كلـــــه وحـــــزم وعـــــزم ... ووقـــــار وعصـــــمة ... وحيـــــاء
لا تحـــل الباســـاء منـــه عـــرا ... الصـــبر ولا تســـتخفه الســـراء
كرمـــت نفســـه فمـــا يخطـــر الســـو ... ء علـــى قلبـــه ولا الفحشـــاء
عظمـــت نعمـــة الالـــه عليـــه ... فاســـتقلت لـــذكره العظمـــاء
جهلـــت قومـــه عليـــه فاغضـــى ... واخـــو الحلـــم دابـــه الاغضـــاء
وســـع العـــالمين علمـــا وحلمـــا ... فهـــو بحـــر لـــم تعيـــه الاعبـــاء
مســـتقل دنيـــاك ان ينســـب الامســـاك ... منهـــا اليـــه والاعطـــاء ...
خفيـــت عنـــده الفضـــائل وانجـــا ... بـــت بـــه عـــن عقولنـــا الاهـــواء
امـــع الصـــبح للنجـــوم تجـــل ... ام مـــع الشـــمس للظـــلام بقـــاء ؟
معجـــز القـــول والفعـــال كـــريم الخلـــ ... ق والخلـــق مقســـط معطـــاء
كـــل فضـــل فـــي العـــالمين فمـــن فضـــ ... ل النبـــي ، اســـتعاره الفضـــلاء

***

ليتـــه خصـــني برؤيـــة وجـــه ... زال عـــن كـــل مـــن راه الشـــقاء !!
مســـفر يلتقـــي الكتيبـــة بســـا ... مـــا اذا اســـهم الوجـــوه اللقـــاء
جعلـــت مســـجدا لـــه الارض فـــاهتز ... بـــه للصـــلاة فيهـــا حـــراء

مظهـر شـجة الجبـين علـى البـر ... ء كمـا اظهـر الهـلال البـراء[1]

ستر الحسن منه بالحسن فاعجب ... لجمـال لـه الجمـال ... وقـاء

فهـو كـالزهر لاح مـن سـجف الاكـ ... ـمام والعـود شـق عنـه اللحـاء

كـاد ان يغشـي العيـون سـنا منـ ... ـه لسـر فيـه حكتـه ذكـاء

صـانه الحسـن والسـكينة ان ... تظهـر فيـه اثارهـا الباسـاء

فـاذا شـمت بشـره ... ونـداه ... اذهلتـك الانـوار والانـداء

او بتقبيـل راحـة كـان لله ، ... وبـالله ، اخـذها والعطـاء

تتقـي باسـها الملـوك وتحظـى ... بـالعف مـن نوالهـا الفقـراء

لا تسـل سـيل جودهـا انمـا يكـ ... ـفيـك مـن وكـف سـحبها الانـداء

***

عجبـا للكفـار زادوا ضـلالا ... بالـذي فيـه للعقـول اهتـداء

والـذي يسـالون منـه كتـاب ... منـزل قـد اتـاهم ... وارتقـاء

او لـم يكفهـم مـن الله ذكـر ... فيـه للنـاس رحمـة وشـفاء ؟

اعجـز الانـس ايـة منـه والجـن ... فهـلا يـاتي بهـا البلغـاء ؟!

كـل يـوم تهـدي إلـى سـامعيه ... معجـزات مـن لفظـه القـراء ...

تتحلـى بـه المسـامع والافـواه ... فهـو الحلـي والحلـواء !!

انمـا تجتلـى الوجـوه اذا مـا ... جليـت عـن مرآتهـا الاصـداء ..

سـور منـه اشـبهت صـورا منـا ... ومثـل النظـائر النظـراء ...

والاقاويـل عنـدهم كالتماثيـل ، ... فـلا يوهمنـك الخطبـاء

كـم ابانـت اياتـه مـن علـوم ... عـن حـروف ابـان عنهـا الهجـاء

فهـي كالحـب والنـوى اعجـب الـزرا ... ع منـه سـنابل وزكـاء

فاطـالوا فيـه التـردد والريـب ... فقـالوا سـحر وقـالوا افتـراء

واذا البينـات لـم تغـن شـيئا ... فالتمـاس الهـدى بهـن عنـاء

واذا ضـلت العقـول علـى علـم ، ... فمـاذا تقولـه النصـحاء ؟

***

(١) اول ليلة من الشهر.

اي نـــور واي نـــور شـــهدنا ... يـــوم ابـدت لنـا القبـاب قبـاء ؟
قـر منهـا دمعـي وفـر اصـطباري ... فـدموعي سـيل وصـبري جفـاء
فتـرى الركـب طـائرين مـن الشـو ... ق الـى طيبـة لهـم ضوضـاء
وكـأن الـزوار مـا مسـت البـا ... سـاء مـنهم خلقـا ولا الضـراء
كـل نفـس منهـا ابتهـال وسـؤل ... ودعـاء ورغبـة وابتغـاء
وزفيـر تظـن منـه صـدورا ... صـادحات يعتـادهن زقـاء[1]
وبكـاء يغريـه بـالعين مـد ... ونحيـب يحثـه اسـتعلاء
وجسـوم كانمـا رحضـتها ... مـن عظـيم المهابـة الرحضـاء[2]
ووجـوه كانمـا البسـتها ... مـن حيـاء الوانهـا الحربـاء
ودمـوع كانمـا ارسـلتها ... مـن جنـون سـحابة وطفـاء
فحططنـا الرحـال حيـث يحـط ... الـوزر عنـا وترفـع الحوجـاء
وقرانـا السـلام اكـرم خلـق الله ... مـن حيـث يسـمع الاقـراء
وذهلنـا عنـد اللقـاء وكـم اذ ... هـل صـبا مـن الحبيـب لقـاء
ووجمنـا مـن المهابـة حتـى ... لا كـلام منـا ولا ايمـاء !!
ورجعنـا وللقلـوب التفاتـات ... اليـه وللجسـوم انثنـاء ...
وسـمحنا بمـا نحـب ، وقـد يسـمح ... عنـد الضـرورة الـبخلاء !!

***

يـا ابـا القاسـم الـذي ضـمن اقسـا ... مـي عليـه مـدح لـه وثنـاء
بـالعلوم التـي عليـك مـن الله ... بـلا كاتـب لهـا امـلاء ...
ومسـير الصـبا بنصـرك شـهرا ... فكـأن الصـبا لـديك رخـاء
وباصـحابك الـذين هـم بعـدك ... فينـا الهـداة .. والاوصـياء
احسـنوا بعـدك الخلافـة فـي الـدين ... وكـل لمـا تـولى ازاء
اغنيـاء نزاهـة فقـراء ... علمـاء .. ائمـة .. امـراء ..
زهـدوا فـي الـدنا فمـا عـرف الميـل ... اليهـا مـنهم ولا الرغبـاء

---

(١) صوت الطيور.

(٢) العرق الكثير من اثر الحمى.

ارخصوا في الوغى نفوس ملوك ... حاربوها اسلابها اغلاء
كلهم في احكامه ذو اجتهاد ... وصواب وكلهم اكفاء
رضي الله عنهم ورضوا عنه ... فانى يخطو اليهم خطاء ؟
جاء قوم من بعد قوم بحق ... وعلى المنهج الحنيفي جاءوا
ما لموسى ولا لعيسى حواريون ... في فضلهم ولا نقباء
الامان الامان ان فؤادي ... من ذنوب اتيتهن هواء !!
قد تمسكت من ودادك بالحبل ... الذي استمسكت به الشفعاء
وابى الله ان يمسني السو ... ء بحال ولي اليك التجاء
قد رجوناك للامور التي ابردها ... في فؤادنا رمضاء
واتينا اليك انضاء فقر ... حملتنا الى الغنى انضاء
وانطوت في الصدور حاجات نفس ... ما لها عن ندى يديك انطواء
فاغتناء يا من هو الغوث والغيث ... اذا اجهد الورى الالواء
والجواد الذي به تفرج الغمة ... عنا وتكشف الحوباء[1]
يا رحيما بالمؤمنين اذا ما ... ذهلت عن ابنائها الرحماء
يا شفيعا في المذنبين اذا ... اشفق من خوف ذنبه البرآء
جد لعاص وما سواي هو العا ... صي ولكن تنكري استحياء
وتداركه بالعناية ما دا ... م له بالذمام منك ذماء[2]
اخرته الاعمال والمال عما ... قدم الصالحون والاغنياء
كل يوم ذنوبه صاعدات ... وعليها انفاسه صعداء
فبكى ذنبه بقسوة قلب ... نهت الدمع فالبكاء مكاء[3]..
وغدا يعتب القضاء ولا عذ ... ر لعاص فيما يسوق القضاء
اوثقته من الذنوب ديون ... شددت في اقتضائها الغرماء
ما له حيلة سوى حيلة المو ... ثق ، اما توسل او دعاء

---

(١) الجهد والحاجة او الهم والغم.

(٢) بقية الروح.

(٣) الصفير.

راجيـــا ان تعـــود اعمالـــه الســـو ... ء بغفـــــران الله وهـــــي هبـــــاء

او تـــــرى ســـــيئاته حســـــنات ... فيقـــــال اســـــتحالت الصـــــهباء

كـــل امـــر تعنـــى بـــه تقلـــب ... الاعيـــان فيـــه وتعجـــب الـــدجواء

اه ممـــا جنيـــت ان كـــان يغنـــي ... الـــف مـــن عظـــيم ذنـــب وهـــاء

ارتجـي التوبـة النصـوح وفـي القلـب ... نفـــاق وفـــي اللســـان ريـــاء

ومتـــى يســـتقيم قلبـــي وللجســـم ... اعوجـــاج مـــن كبرتـــي وانحنـــاء ؟

كنـــت فـــي نومـــة الشـــباب فمـــا ... اســـتيقظت الا ولمتـــي شـــمطاء

وتماديـــت اقتفـــي اثـــر القـــو ... م فطالـــت مســـافة واقتفـــاء

فـــورا الســـائرين وهـــو امـــامي ... ســـبل وعـــرة وارض عـــراء ...

حمـــد المـــدلجون غـــب ســـراهم ... وكفـــى مـــن تخلـــف الابطـــاء !!

رحلـــة لـــم يـــزل يفنـــدني الصـــيف ... اذا مـــا نويتهـــا ، والشـــتاء ...

يتقـــي حـــر وجهـــي الحـــر والبـــر ... د وقـــد عـــز مـــن لظـــى الاتقـــاء

ضـــقت ذرعـــا ممـــا جنيـــت فيـــومي ... قمطريـــــر وليلتـــــي درعـــــاء[1]

وتـــــذكرت رحمـــــة الله فالبشـــــر ... لـــوجهي انـــى انتحـــى تلقـــاء !!

فـــألح الرجـــاء والخـــوف بالقلـــب ، ... وللخـــــوف والرجـــــا احفـــــاء[2]

صـــاح لا تـــاس ان ضـــعفت عـــن ... الطاعـــة واســـتاثرت بهـــا الاقويـــاء

ان لله رحمـــــة ، واحـــــق النـــــاس ... منـــــه بالرحمـــــة الضـــــعفاء !!

فـابق فـي العـرج عنـد منقلـب الـذو ... د ففـــي العـــود[3] تســـبق العرجـــاء

لا تقـــل حاســـدا لغيـــرك هـــذا ... اثمـــرت نخلـــة ونخلـــي عفـــاء

وائـت بالمسـتطاع مـن عمـل البـر ... فقـــد تســـقط الثمـــار الاتـــاء[4]

وبحـــب النبـــي فـــابغ رضـــا الله ... ففـــي حبـــه الرضـــا ... والحبـــاء

يـــا نبـــي الهـــدى اســـتغاثة ملهـــو ... ف اضـــــرت بحالـــــة الحوبـــــاء

---

(١) مظلمة.

(٢) منازعة.

(٣) قافلة الابل.

(٤) كثرة الثمر.

يـدعي الحـب وهـو يـامر بالسـو ... ء ومـن لـي ان تصـدق الرغبـاء[1]

ان يكـن عظـم زلتـي حجـب رؤيـا ... ك فقـد عـز داء قلبـي الـدواء

كيـف يصـدا بالـذنب قلـب محـب ... ولـه ذكـرك الجميـل جـلاء ؟

هـذه علتـي وانـت طبيبـي ... لـيس يخفـى عليـك فـي القلـب داء

ومـن الفـوز ان ابثـك شـكوى ... هـي شـكوى اليـك وهـي اقتضـاء

ضـمنتها مـدائح مسـتطاب ... فيـك منهـا المـديح والاصـغاء

قلمـا حاولـت مـديحك الا ... سـاعدتها مـيم ودال وحـاء !

حـق لـي فيـك ان اسـاجل قومـا ... سـلمت مـنهم لـدلوي الـدلاء

ان لـي غيـرة وقـد زاحمتنـي ... فـي معـاني مـديحك الشـعراء

ولقلبـي فيـك الغلـو وانـى ... للسـاني فـي مـدحك الغلـواء ؟

فاثـب خـاطرا يلـذ لـه مـد ... حـك علمـا بانـه الـلالاء[2]

حـاك مـن صـنعة القـريض بـرودا ... لـك لـم تحـك وشـيها صـنعاء

اعجـز الـدر نظمـه فاسـتوت ... فيـه اليـدان الصـناع والخرقـاء

فارضـه افصـح امـرىء نطـق الضـا ... د فقامـت تغـار منهـا الظـاء

ابـذكر الايـات اوفيـك مـدحا ... ايـن منـي وايـن منهـا الوفـاء ؟

ام امـاري بهـن قـوم نبـي ... سـاء مـا ظنـه بـي الاغبيـاء

ولـك الامـة التـي غبطتهـا ... بـك لمـا اتيتهـا الانبيـاء

لـم نخـف بعـدك الضـلال وفينـا ... وارثـو نـور هـديك العلمـاء

فانقضـت اي الانبيـاء وايـا ... تـك فـي النـاس مـالهن انقضـاء

والكرامـات مـنهم معجـزات ... حازهـا مـن نوالـك الاوليـاء

ان مـن معجزاتـك العجـز عـن ... وصـفك اذ لا يحـد الاحصـاء

كيـف يسـتوعب الكـلام سـجايا ... ك وهـل تنـزع البحـار الركـاء[3]

لـيس مـن غايـة لوصـفك ابغيهـا ... وللقـول غايـة وانتهـاء

---

(١) الرغبة في التوبة.

(٢) الفرح التام.

(٣) اناء صغير.

انمـــا فضـــلك الزمـــان وايـــا ... تـــك فيمـــا نصـــده الانـــاء

غيـــر انـــي ظمـــان وجـــد ومـــالي ... بقليـــل مـــن الـــورود ارتـــواء

فســـلام عليـــك تتـــرى مـــن الله ... وتبقـــى بـــه لـــك البـــاواء[1]...

وســـلام عليـــك منـــك فمـــا غيـــرك ... منـــه لـــك الســـلام ... كفـــاء

وســـلام مـــن كـــل مـــا خلـــق الله ... لتحيـــا بـــذكرك الامـــلاء[2]

وصـــلاة كالمســـك تحملـــه منـــي ... شـــمال اليـــك او نكبـــاء[3]

وســـلام علـــى ضـــريحك تخضـــل ... بـــه منـــه تربـــة وعســـاء[4]

وثنـــاء قـــدمت بـــين يـــدي نجـــواي ... اذ لـــم يكـــن لـــدي ثـــراء

مـــا اقـــام الصـــلاة مـــن عبـــد ... الله وقامـــت بربهـــا الاشـــياء !!

فها نحن ازاء رؤية اسلامية لاكثر من مسالة ، يتناولها فن شعري يتميز بقدر كبير من النضج ، والعمق ، وطول النفس : الله ... الحياة والموت والمصير ... السعي البشري والجزاء ... البعث والثواب والعقاب ... محبة الرسول المعلم عليه السلام ورسم ملامح شخصيته الفذة وتصوير الدور الكبير الذي نفذه في العالم ... الندم بعد الخطيئة ، والتوبة بعد الضلال ... والعودة الى طريق الله النقي المتوحد المضيء ، بعد حياة ملئى بالظلمة والاعوجاج والضياع ... تسليم سعيد متوحد بقضاء الله وقدره ... تاكيد للقيم الاخلاقية والاجتماعية الصادقة التي يتوجب ان تسود في مجتمع نظيف ، متماسك ، سعيد ... تحقق بالحرية التي اكدها الاسلام واستعلاء على القهر والاذلال ... رفض للممارسات اللااخلاقية الهابطة ... تقييم مؤثر للقيادة المجاهدة التي لا تكف عن (الحركة) بجماهير المسلمين لتحرير ارض مغتصبة ، او تقويض طاغوت باغ ، وتغن بالتزامها الفذ وتوحدها الصعب .. نفاذ شاعري الى قلب الوجود ، وطموح كادح للتحقق بالمصير ...

وقيم ومواقف ورؤى تتداعى عبر القصائد التي اخترناها ، وهي ليست سوى نماذج لا يتيح المجال المحدود الاسترسال فيها ... ومن بين يديها ، ومن خلفها ، حشد كبير عسى ان يتاح له يوما من يعكف على جمعه وتنسيقه ، ودراسته وتحليله في عمل مستقل ، فردا كان ام مجموعة من الباحثين والادباء والنقاد ...

---

(١) الفخر.

(٢) جمع ملأ.

(٣) الريح.

(٤) الرملة اللينة.

شيء عن الالتزام في شعر جلال الدين الرومي

(١)

منذ عشر سنوات على وجه التحديد ، قرات في المجلدين الاول والثاني المترجمين الى العربية من (المثنوي) للشاعر الصوفي الكبير جلال الدين الرومي[١] ... فاستوقفتني بعض ابياته.

(الجدار ... اذا كان يلقي على الارض ظلا طويلا
فان هذا الظل يرتد نحوه
وهذا العالم جبل ، واما اعمالنا فنداء
ولابد ان يعود الينا صوت ندائنا !!) (ص ٩٣)

اعجبتني الصورة الرحبة التي تمتد بكلماتها القلائل لكي تشمل العالم كله ... الانسان في العالم بعبارة اخرى ...

ما الذي يجعله يقدر على هذا ؟ انها قوة الخيال ... ليس هذا فحسب ولكنها حرارة التجربة وتوهج الانفعال ... واصلت القراءة :

(انظر الى قدرتك فان هذه القدرة من الله
وهي نعمة منه جل شانه
لا تطفىء شموع الابصار
فان البصر هو الشمع الذي ينير الطريق للتامل الباطني
واذا انت تركت النظر ، وتركت الخيال
كنت كمن اطفا في منتصف الليل شمع الوصال ..) (ص ١١٨)
(لا تمضي في طريق الياس ففي الكون امال !
ولا تتجه نحو الظلمات ففي الكون شموس) (ص ١٤١)

ليس قوة الخيال فحسب ، ولا الق التوهج فحسب ، ولكنها مسؤولية الالتزام وهندسته الفذة ايضا ...

وواصلت القراءة لكي ازداد اقتناعا بهذا التوافق الصعب بين قوة الخيال ، وحر التجربة ، وهندسة الالتزام ...

---

(١) ترجمة وشرح ودراسة الدكتور محمد عبد السلام كفافي ، المكتبة العصرية ، بيروت –١٩٦٦.

(كل يرجع من حيث اتى

فمن قمم الجبال تمضي السيول المندفعة

ومن اجسامنا تمضي الارواح الممتزجة بالعشق) (ص ١٤٥)

(ان هذه النار حجاب للعين يمنع عنها الرؤية

فها هي ذي الرحمة قد اطلت من الخفاء

فتعالي يا امي وانظري برهان الحق ...

تعالي وانظري الماء الذي يتبدى لك نارا

ودعي هذا العالم الذي هو نار تبدو كالماء !

تعالي وانظري اسرار ابراهيم الذي وجد في النار السرو والياسمين

لقد رايت الموت ساعة مولدي منك ، وكان خوفي عظيما اذ كنت انفصل عنك .

وعندما ولدت ، خلصت من حبس ضيق الى عالم طيب الهواء ، جميل الالوان !

وانني الان ارى العالم مثل الرحم

بعد اذ رايت في النار هذه السكينة

لقد رايت في هذه النار عالما في كل ذرة منه نفس (عيسى) الذي يهب الحياة ...

اقبلي وادعي الاخرين للحضور معك

فان الملك الحق قد اقام في النار الخوان

بل اقبلوا ايها المؤمنون جميعا

فكل شيء سوى هذه العذوبة عذاب !

اقبلوا جميعا مثل الفراش !

اقبلوا الى ذلك الحظ ، فهنا مائة ربيع !) (ص ١٤٧-١٤٨).

وعندما بلغت هذه الابيات

(... ما أهنأ العين التي تبكي من اجله

وما اسعد القلب الذي يحترق في سبيله

وكل بكاء عاقبته الضحك ، والبصير بالعواقب عبد مبارك

فاينما وجد الماء الجاري وجدت الخضرة

وحيثما وجد الدمع المنهمر وجدت الرحمة

فكن مثل الساقية باكيا مبتل العينين

حتى تثبت الخضرة في رحاب روحك

وان اردت الدموع فرفقا بمن تفيض منه الدموع ...) (ص ١٥٠) .

ادركت ان الامر ليس مجرد قراءة سريعة في ديوان مترجم كالدواوين ! ان معايشة الرومي في جزء من عطائه البالغ نحوا من خمسة وعشرين الف بيت ! لتحتاج الى اسابيع واشهر ... وربما سنوات ...

ان تشبع نهمك الى خياله البعيد ، وتوهجه الذي يكوي ، والتزامه الذي يهز العقل ... ان تقتنع بهذا التوافق الصعب ... عليك ان تضحي بشيء غير قليل من وقتك والا كان ضربك في اليم عبثا ، وخروجك الى الشاطىء تحمل في قبضتيك حفنة من اللالي ... امرا مستحيلا ...

ومضى عقد من الزمن ... وعثرت على الوقت ... وها انا ذا وجها لوجه مرة اخرى مع جلال الدين الرومي ، لا افعل سوى ان اغوص مرتين وثلاثا فحسب ، لكي اعرض على القراء الذين يطيب لهم ان يستنيروا بالوهج ... ويحترقوا به ، شيئا من تجربة الرجل لكي تعينهم على الطريق ...

اما البقاء طويلا في الاعماق فلا امن عليه نفسي ... ان نفسي قصير ، وانا اخشى الموت غرقا !!

(٢)

ان الشعر حصان جموح لن يسلس قياده الا للقلة الفذة ... انه تدفق عفوي يند عن سيطرة العقل واحكامه ... تخلق ذاتي يجيء من وراء ابواب الرسم والارادة والتخطيط ... انه عالم بذاته ولذاته ... ومن ثم لن نستغرب اذا طالعنا راي (سارتر) المعروف بان العطاء الشعري عطاء غير ملتزم ... وبقدر ما يتاح الالتزام في ساحة النثر ، فانه في ميدان الشعر يصعب ، بل يستحيل احيانا ...

والقران الكريم يطرح المسالة من زاوية اكثر موضوعية وشمولا ... انه يؤكد على ان التجربة الشعرية هي تجربة هيمان غير عقلاني يتحول ، دونما ضابط او مبرر ، من مكان الى مكان ومن موقف الى موقف ... فهو غير ملتزم ابدا ... الا ان ياوي الى حظيرة الايمان، والا ان يكون مجاهدا او مقاتلا : ﴿ **وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَى أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾ (١).

فاذا ما اضفنا الى جموح الشعر عنفوان التجربة الصوفية التي يعانيها بعض الشعراء ادركنا كم هو صعب مبهظ ان يكون الشاعر الصوفي ملتزما ...

وها هنا ... من التزام الرومي ، الشاعر الصوفي ، وهندسته المرسومة لكلماته وتعابيره وافكاره ومضامينه وصوره واخيلته وتراكيبه ... من قدرته الفذة على تطويع التجربة المتدفقة من

---

(١) سورة الشعراء ٢٢٣-٢٢٧.

وراء الوعي والشعور والتعقل ... من تمكنه من لوي عنقها واستخدامها لما هو اكبر : رؤيته الدينية الشاملة ، وايمانه العميق ... من هنا عبقرية الرومي وتألق الدور الذي لعبه ليس على مسرح الشعر الاسلامي فحسب ، بل على مسرح الشعر العالمي كله !!

ان الرومي يتميز بقوة الخيال ... وهذه باضافتها الى عنفوان التجربة التي يصنعها الاحساس الشعري والمعاناة الصوفية ، تصنع شاعرا ممتازا من المصاف الاول ...

لكن الامر عند الرومي لم يقف عند هذا الحد ، بل انه اعطى شعره ميزة اخرى ... القدرة على الالتزام ، وعدم السماح للتخلق الشعري بالهيمان غير المسؤول في وديان المعاني ، والتفجرات ، والصور ، والافكار ...

انه كان يقاتل جاهلية عصره ... والشعر المقاتل يكون ملتزما دائما ، لان المقاتل الحق لا يحمل الى المعركة سلاحا لا يعرف كيف يطلق منه رصاصة او سهما ...

ان معركة الشعر المقاتل هي معركة شعراء كبار عرفوا كيف ينحتون الكلمة وكيف يضربون بها الاهداف ...

ليس ثمة فوضى ... ليس ثمة تخبط ... ليس ثمة ضرب في غير هدف على الاطلاق ... ان التزام الرومي الاسلامي !! ليتبّدى في كل مثنوية من مثنوياته وفي كل بيت من ابياته ... انه يعرف كيف ينظر الى العالم ، وهو يكتوي بحر التجربة الملتهبة ، فلا ينصهر ويخرج عن دائرة الالتزام ... يعرف كيف ينظر من نافذة العقيدة التي انتمى اليها ... كيف يطل على العالم من فوق ، من المكان العالي الذي رفعه اليه الاسلام ، ورفع كل الذين اثروا اختياره وحده من بين عشرات ، بل مئات ، المناهج والاديان التي شرعها للعباد عباد مثلهم من الوضاعين والكهنة والمرتزقة والطواغيت ...

وفي عدد غير قليل من قصائده يبدو التزامه متالقا في كل جزئية من جزئياته ... لنقل انه الدم الذي يتفجر في اوردة عطائه الشعري وشراييه ، ينبثق عفويا صافيا حلوا من باطنها ، ويتخلق معها ، لانه يصدر عن الرجل الذي يعيش التجربة ولا يدعيها ... وفرق نوعي كبير بين ان ياتي الالتزام من فوق لكي يضبط التجربة بقالبه الصارم ، ورؤيته الحادة ، وبين ان يتدفق من باطن التجربة ، ويجري في اوصالها وهي تتخلق كما يجري الدم النقي في شرايين الاجنة فيهبها الحركة والحياة ...

(٣)

واذا لاحظ القارىء في شعر الرومي طغيانا للفكرة على التعبير ، وللمعنى على التركيب اللفظي ، وللمضمون على الاسلوب ، فلا يصدمنه ذلك فيصدر حكمه متسرعا متعجلا ... ذلك ان نقل التجربة الشعرية من مناخها الاصلي ... تحويلها عن لغتها الاولى التي صيغت بها الى مناخ جديد ولغة غريبة ، سيفقد التجربة – ولا ريب – الكثير ، من تالقها التعبيري وجمالياتها الادائية ، وسيضعف من قدرتها اللغوية ... ومهما كان المترجم بارعا ، كالدكتور محمد عبد السلام كفافي ، في الجزئين اللذين بين ايدينا ، فانه محتوم عليه ان يهبط بلغة التجربة الى المرتبة الثانية ، لكي لايتبقى هناك في القمة الا المعنى ... فلا باس !!

ومع ذلك ، فالقارىء لابد ان يلاحظ ، وهو يقرا في (المثنوي) ، جنوح الرومي في عدد غير قليل من مقطوعاته الى نوع من المناقشات الفكرية التي تتميز بالصرامة والجفاف ، وتقطع التدفق الوجداني ، الغنائي ، لمعطيات الديوان ... وفي مقطوعات اخرى يتبدى ميل الرومي الى الوعظ والارشاد ، الامر الذي يصبغها بروح من المباشرة والتعليمية التي تهبط بها عن تلك المستويات العليا التي حلقت فيها مقطوعاته التي عالجت الفكرة الملتزمة من بعيد، ومن وراء مجازات الشعر وتكويناته التعبيرية وادواته الجميلة وصوره واخيلته ... ولعل ممارسة الرومي لمهام الوعظ والارشاد في المراحل المختلفة من حياته الفكرية قد طبع بصماته على ملامح عدد من قصائده ... ومرة اخرى ، فان نقل التجربة الشعرية من مناخها الاصلي يفقدها – ولا ريب – شيئا غير قليل من تالقها وجمالها ...

وثمة مأخذ آخر يبدو واضحا في التفصيل الذي يمارس فيه الرومي طرح بعض مواضيعه ، متتبعا الجزئيات باكبر قدر من الامانة ، مسلطا الضوء على كل مساحات الموضوع وزواياه ، غير تارك للقارىء ايما قدر من الحدس والتخمين والمتابعة الفكرية والوجدانية للمعضلات التي قد تتفجر من خلال الطرح الشعري ... ان التفصيل هو نقيض التركيز ، وتغطية الجزئيات يفقد القصيدة توترها وتاثيريتها وشدها للفكر والوجدان ...

ومن حق قارىء القرن العشرين الا يستسيغ – كذلك – العناوين القصصية المطولة لقصائد (المثنوي) ... ويشعر بارتطام قاس ... بصلابة هذه العناوين ، وتكوينها النثري التقريري السائد ، والتي اريد بها ان تكون مفتاحا يقود القارىء الى صميم العمل الفني المترع شاعرية ، وعذوبة ، ونداوة ... ان عنوان القصيدة ، كما اعتاد قارىء القرن العشرين ، يتوجب ان يكون متوترا عذبا ، ومركزا لماحيا قديرا باثارته للتداعيات على تهيئة القارىء للتجاوب والتناغم مع المناخ الوجداني والفكري للعمل الشعري.

اننا نقرأ – على سبيل المثال – عناوين كهذه لقصائده العذبة (حكاية عشق ملك لاحدى الجواري وشراء الملك هذه الجارية) ، (كيف ظهر للملك عجز الحكماء عن معالجة الجارية وكيف توجه الملك الى حضرة الله فراى وليا في المنام) ، (الدعاء الى الله ولي التوفيق ان يوفقنا لرعاية الادب في جميع الاحوال ، وبيان وخامة الاضرار التي تنجم عن فقدان الادب) ، (لقاء الملك للطبيب الالهي الذي بشر بلقائه في المنام) ، (بيان ان قتل الصائغ واعطاءه السم كان باشارة الهية وليس نتيجة لهوى النفس والتامل الفاسد ...) الى اخره من العناوين التي تذكرنا باشباهها في حوليات (الطبري) وفصول (ابن سينا) وغيرهما من المؤرخين والفلاسفة والحكماء ... ولعله تقليد سائد يومها ان تعنون القصائد بصيغ تقريرية كهذه ... تماما كما كان تقليدا سائدا الا تعنون القصيدة العربية وان يكتفى بايراد المناسبة التي قيلت فيها ... وانه ما كان للرومي – انصافا له – الا ان يساير التقليد ...

وهذا يقودنا الى مسالة (فنية) اخرى قد يختلف فيها القراء ... تلك هي اعتماد الرومي التكنيك القصصي اطارا لمثوياته ... ذلك ان الرجل يخاطب جيله ... ويومها كان الاداء القصصي ، نثرا وشعرا ، هو الطريقة الفنية الاكثر قبولا وتاثيرا ... وما اكثر الاعمال الشعرية الكبيرة في اداب الشرق والغرب على السواء ، تلك التي اعتمدت هذه الطريقة في طرح معطياتها، ابتداء من عصر الملاحم اليونانية الاولى ... الالياذة والاوديسّة وحتى عصر الملاحم الاسلامية والفارسية التي ابدعها شعراء كبار كالفردوسي وسنائي والعطار وسعدي وشيرازي والرومي ... وها نحن في القرن العشرين نقلب صفحات دواوينه الشعرية التي دبجتها ايد شرقية وغربية فنجد الكثير من صفحاته يعتمد التكنيك القصصي نفسه اطارا لعروضه ...

ومهما يكن من امر فان القصة لدى الرومي لا تعدو ان تكون مجرد اداة لتمرير الحوار الاخاذ على السنة ابطاله وشخوصه ، ذلك الحوار الذي يتفجر حكمه وعذوبة ودهشة وتداعيا ونداوة وجمالا ...

(٤)

ولد جلال الدين محمد بن احمد البلخي ثم القونوي المعروف بالرومي في مدينة بلخ عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) وقد لقب بالرومي نسبة الى ارض الروم (بلاد الاناضول) حيث قضى معظم حياته. كان ابوه فقيها من اتباع المذهب الحنفي ، والظاهر انه احرز مكانة مرموقة حتى لقب بسلطان العلماء . وحين شعر بقرب هجوم المغول غادر بلخ عام ٦٠٩ هـ مصطحبا اسرته، يتنقل بها من مدينة الى اخرى ... نيسابور ، بغداد ، مكة ثم بلاد الاناضول حيث استقر بقونية

بشاعرنا المقام ، وكانت عاصمة للسلطان السلجوقي الذي يتزعم سلاجقة آسيا الصغرى ، وقد توفي ابو الشاعر في هذه المدينة عام ٦٢٨ هـ.

تلقى الرومي اول الامر تعليمه على ابيه ثم على عدد من الشيوخ ، وما لبث ان غادر قونية الى دمشق حيث اقام سنين طويلة ، وعاد الى قونية لكي يتولى التدريس فيها عام ٦٢٨ هـ ، وبقي فيها لايفارقها الا ليعود اليها ، وهناك تجمع حوله عدد من التلامذه والمريدين.

ظهرت عبقرية الرومي كشاعر في فترة كان قد بلغ فيها مرحلة متقدمة من النضج الفكري والنفسي ، ولكن العجيب في تلك العبقرية انها جعلت انتاجه العقلي بعد ان قارب الاربعين يختلف اختلافا كليا عن انتاجه السابق على ذلك. لقد كان واعظا وعد من الفقهاء الاحناف ، فاصبح صوفيا فنانا شاعرا ، وحكيما اخلاقيا ، وفيلسوفا انسانيا.

كيف حدث كل هذا ؟ ان المصادر تصور لنا هذا الانتقال بانه كان فجائيا نشا من التقاء الشاعر بصوفي كثير التجوال كان يدعى شمس الدين التبريزي ، قضى معه مدة عام او عامين ٦٤٢ – ٦٤٣ هـ وكان له اعمق الاثر في نفس جلال الدين ، حتى ليقال انه انشا طريقته الصوفية – التي عرفت فيما بعد بالطريقة المولويه – ذكرى لاستاذه شمس الدين. ولكن وقوع الانقلاب في حياة الرومي لايمكن ان يحدث بتلك الصورة المفاجئة. فلابد ان الرومي كان ميالا الى التصوف ، نزاعا الى ذلك التامل الروحي العميق ، وانه بعد التقائه بذلك الصوفي وجد نفسه وادرك حقيقته ، فانطلق في الطريق الذي كان مقدرا له ان يخلد اسمه على الايام ويضعه في مصاف الخالدين من شعراء العالم ومفكريه.

عاش الشاعر حياة قديس ، يعلم ويرشد ويحضر مجالس السماع والطرب الصوفية وقد احاط به عدد كبير من التلاميذ والمريدين الى ان توفي في جمادى الثانية عام ٦٧٢ هـ ولقي بعد موته من التكريم ما لقي في حياته ، وبني له ضريح اقيمت فوقه قبة عرفت بالقبة الخضراء ، اضيف اليها بعد انتهائها مبان اخرى ..

ترك الرومي بعد وفاته ثلاثة مؤلفات نثرية تتضمن مواعظ وخطبا ورسائل واحاديث ومحاضرات ، وهي (المجالس السبعة) و(مجموعة الرسائل) و(فيه ما فيه) الذي جمعه احد ابنائه او مريديه ، كما ترك ثلاثة اعمال شعرية هي (شمس تبريز) في ذكرى صديقه وموجهه الروحي شمس الدين التبريزي ، و(الرباعيات) و(المثنوي).

وكلمة المثنوي تعني ذلك النظم الذي يعرف بالمزدوج في العربية ، وهو يعتمد في التقفيه على توحيد القافية بين شطري كل بيت من ابيات المنظومة. فكل بيت من الابيات تكون له قافيته المستقلة ، وبهذا تتحرر المنظومة من القافية الموحدة التي طالما عاقت شعراء العرب عن نظم المطولات. وينقسم الكتاب الى ستة مجلدات تضم نحوا من خمسة وعشرين الف بيت (كل

جزء من الاجزاء الستة يشتمل على نيف واربعة الاف بيت) ، ولا تتصل تسمية الكتاب بموضوعه ، وانما بشكل قوافيه ، فهي تسمية شكلية بحتة[1].

(٥)

ما هي ابعاد الالتزام ومؤشراته في شعر الرومي ؟

ها هنا ، من خلال التعامل المباشر مع الشاهد الفني ، كما يريد زعماء النظرية الحديثة في النقد : (سوريو) و (بابير) ، وغيرهما ، يمكن ان نتبين الكثير من هذه الابعاد والمؤشرات: التصور الايماني الموزون لمسالة القدر والحرية ... التوحيد المطلق لله سبحانه والتادب المرسوم في الحوار بعيدا عما يسمى بالشطحات الصوفية التي تند احيانا عن الذوق الايماني الصافي ... التاكيد على القيم والاخلاقيات الاسلامية ... اعتماد معطيات القران والسنة، المحبة الالهية التي تستقيم فلا ينحرف بها طريق ... الرؤية الشمولية للوجود والتي تتجاوز جدران المادية الى ما وراء ، وشدها المبهظ الى فوق ... الواقعية الايجابية والتوازن ... الصراع الدائم بين الخير والشر ... بين الانسان والشيطان ... بين المحبة والبغضاء ... الاحساس المتفائل بالتجدد والتغير والامل ... الحنين العميق الى الاصول الاولى ... التناغم الميتافيزيقي مع الكون والعالم والمخلوقات والاشياء ... قوة الروح والكلمة وخلودها ... رفض الطغيان ، والاستعلاء على الطواغيت ...

تلك هي رؤوس اقلام عريضة (مانشيتات) لعدد فحسب من ابعاد الالتزام ومؤشراته ... وهي كما نرى تنبثق عن رؤية اسلامية اصيلة وتتعانق معها ...

وعلى مستوى الشكل ايضا يعود الرومي لكي يؤكد التزامه : الاتكاء على قصص الانبياء عليهم السلام (اطارا) لكثير من معطياته الشعرية ... اعتماد العديد من الشخصيات الاسلامية عبر التاريخ لبناء حواره ... استخدام الرموز الحيوانية في اجواء تسودها الالفة الميتافيزيقية بما يتجاوز دائرة الحكمة الصرفة باتخاذ الحيوانات كمجرد ادوات او وسائط لتمرير الحوار على طريقة (كليلة ودمنة) ... تاجيج الصراع الدائم ضد الشر والقبح والرذيلة متمثلة بالشيطان ... وضد الطاغوت متمثلا (بفرعون) ، الامر الذي يمنح قصائده بعدا دراميا مثيرا ...

---

(١) انظر بالتفصيل د. محمد عبد السلام كفافي : مثنوي جلال الدين الرومي ، الكتاب الاول ، ترجمة وشرح ودراسة ، ص ١-١٤، المكتبة العصرية ، بيروت -١٩٦٦، جلال الدين الرومي : حياته وشعره ، ص ٢١-٥٤ ، دار النهضة العربية ، بيروت -١٩٧١.

وها نحن ندلف ، بعد هذه الاسطر القلائل الى عالم الرومي الرحيب ، لنقف عند بعض جوانب التزامه ... فلا يروعّن القارىء كثرة ماسنورده من شواهد ، لان هذه الصفحات ليست دراسة لشعر الرجل[1] ، بقدر ماهي (تاكيدا) لالتزامه من خلال تحديد انماط هذا الالتزام وعرض عدد من قرائنه ... وسنقف عند البيت رقم (٢٠٠٠) من الكتاب الاول ... وهو – كما رأينا – واحد من ستة كتب يتضمنها المثنوي ، كي لايطول بنا السرى ويتشعب الطريق ... والفا بيت هي ولا ريب مجال طيب لمتابعة التزام الرجل ، وتذوقه ... راجين الا يكون اعتمادها نوعا من الاقتطاع القسري ...

(٦)

يتناول الرومي مسالة القدر والحرية في مساحات واسعة من شعره ... تلح عليه ... فيعرضها بالطريقة الوجدانية التي تتميز بالنقاء ، والرؤية الشمولية ، والتوازن والتقدير البصير لموقع الانسان في العالم ، ودوره في الخارطة الكونية ، واحاطته بارادة الله الذي وسع كل شيء علما ... الطريقة الوجدانية التي تصل الى هدفها دونما غبش ولا تعتيم مما يثير نقع معارك الجدل الكلامي والتمحل الفلسفي الذي عاناه بعض اجدادنا ممن اوقرت عقولهم وافئدتهم اكداس من فلسفة اليونان الوثنية ، فانحنوا امامها خاشعين ، وتجاوزوا ، على ايمانهم العميق وذكائهم المتوقد ، انه ليس بالمنطق العقلاني الصرف تحل مسالة هي خارج نطاق العقل الصرف ، واوسع بكثير من قدرته على الامتداد ... انهم سعوا الى ان يعطوا رقما نهائيا لحاصل جمع عشرين رقما ينتمي كل منها الى فصيلة هي غير الفصيلة التي تنتمي اليها الارقام الاخرى ...

ان الرومي ، وهو يستمد رؤيته من كتاب الله مباشرة ، يعطينا المفتاح ، بضربات الفن الوجدانية التي تعرف كيف تسوي النتوءات التي تصد العقل ، فتمنح الطريق حتى نهايته ... متوازيا ... مضيئا ... مستقيما ... لولا انه ينحرف احيانا باتجاه مواضعات الفكر وجفافه ... ربما بسبب ترجمة شعره الى لغة اخرى ، فيفقد بذلك وزنه وايقاعه وموسيقاه ، فكاننا – احيانا – لا نقرا شعرا وانما نتابع نقاشا فلسفيا :

(ليس لاحد قوة تجعله يحرك يدا للدفاع ... ولا نطق ينبس بكلمة عن الضر والنفع فاقرا في القران تفسير البيت (السابق) فالله تعالى يقول ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى** ﴾ (سورة الأنفال : الآية ١٧).

فاذا رمينا بسهم فليس اندفاع السهم منا ، فنحن القوس.

---

(١) انظر : كفافي : المرجعين السابقين ، والمؤلف المذكور هو استاذ الآداب الاسلامية بجامعتي القاهرة وبيروت العربية ، وصاحب القدح المعلى في تعريف القارىء العربي بعالم ابن الرومي الفني ، وحياته..

واما الذي يلقي بالسهم فهو الله

وليس ذلك قولا بالجبر ، وانما هو معنى الجبروت ، وذكر الجبروت جاء لكي يستشعر الذلة

وذلنا دليل اضطرارنا ، واما خجلنا من الاثام فهو دليل اختيارنا

ولو لم يكن هناك اختيار ، فما هو الخجل من الاثم ، وما ذلك الاسف والتحرج والحياء ؟

ولماذا يكون **زجر الاساتذة للتلاميذ ؟ ولماذا ينصرف الخاطر عما استقر عليه من تدبير ؟..**

فان كنت لا ترى جبره ، فلا تتحدث عنه ، وان كنت تراه فاين دليل ذلك؟

انك لترى قدرة **نفسك عيانا في كل عمل يكون لك ميل اليه**

ولكنك – عندما **لا يكون العمل وفق ميلك وعلى مرادك – تصبح مجبرا وتقول : ان هذا من الله !!) (ص ١٣٢-١٣٣).**

فها هنا يعرف الرومي كيف يرسم لنا بفرشاته حركة الانسان الحسية والنفسية بين الجبر والاختيار ، وهو يرفض ، في مقطع اخر ، الفكرة الفلسفية القائلة بحتمية فعل الصفات الشيئية ، فالنار لابد ان تحرق وحد السيف لابد ان يقطع ... يقول : ان الله هو الذي منح النار صفة الاحراق ، وهو قادر في حالات ما ولحكمة ما ان يكفها عن الاحراق ... ويضرب لذلك مثلا :

(لقد اتجه الملك الى النار وقال : ايتها الحادة الطبع !

اين طبعك الذي من شانه ان يحرق الدنيا ؟

كيف لا تحرقين ؟ واين خصائصك ؟ هل انعكست نيتك لسوء طالعنا ؟

انك لا ترحمين عابدك ، فكيف نجا منك من لا يعبدك ؟ ..

عجبا لهذه النار المشتعلة العالية ، كيف لا تحرق ؟

افوق عيني غشاوة ، ام على عقلي حجاب ؟

فقالت النار : انني لم اتبدل ! انا النار ؟ دخل الان في فتشعر بضرامي !

وطبعي لم يتغير ولا عنصري ! انا سيف الحق اقطع باذنه ! ..

فاذا كانت نار طبعك تبعث الغم في نفسك فانها تحرقك بامر مليك الدين.

وان كانت نار طبعك تبعث في نفسك السرور فان مليك الدين قد وضع فيها السرور.

واذا اصابك الغم فاستغفر الله ، ان الغم جاءك بامر الله فلا تقف جامدا .

فهو اذا شاء صار الغم سرورا ، واصبح القيد في القدمين حرية وانطلاقا !!

(ان) السبب الروحي يجعل السبب الظاهري عاملا فعالا في بعض الاحيان ، وفي احيان اخرى يجعله عاطلا لا ثمرة له.

وهذا السبب الظاهري تالفه عقول عامة البشر ،

واما الاسباب الروحية فلا يالفها الا الانبياء ...

ان الهواء يصبح نارا بامر الحق ، وكل منهما سكران من خمر الحق

وانك لترى – يا بني – اذا احسنت النظر ، ان ماء الحلم ونار الغضب هما من الله

ولو لم تكن الريح عارفة بالحق فكيف كانت تفرق بين المؤمنين والكفار من قوم عاد؟) (ص ١٥٠-١٥٢).

انها ارادة الله ... لكن حرية الانسان تظل عاملة ضمن دائرتها الكبرى لمن اراد ان يعمل (فلا تقف جامدا ، فهو اذا شاء صار الغم سرورا ، واصبح القيد في القدمين حرية وانطلاقا) !

(ان نار الشهوة لم تصب اهل الدين ، ولكنها هبطت بمن عداهم الى قاع الثرى

وموج البحر – اذا تدفق بامر الله – ميز بين قوم موسى وبين اهل مصر

والارض – عندما جاءها الامر – سحبت قارون بذهبه وعرشه الى قاعها

والماء والطين – حينما ارتويا من انفاس عيسى –

انبثقت لهما قوادم وخوالف واصبحا طائرا يحلق

ولقد رقص جبل الطور لما راى نور موسى ، واصبح صوفيا كاملا ، وبريء من النقص

واي عجب اذا صار الجبل صوفيا عزيزا ؟

او لم يخلق جسم موسى ايضا من قطعة من طين ؟) (ص ١٥٣-١٥٤).

وهكذا يتخلق فعل الانسان فيتشكل معه وجوده ويتحدد مصيره خيرا كان ام شريرا ، نبيا كان ام شيطانا ... انه الفعل الذي يرفع ويخفض ... ينجي ويغرق ... يطير ويرتكس ... يصل بالانسان الى الكمال وينحط به الى الدرك الاسفل ... الفعل الذي يجعل من كتلة الطين جبلا صوفيا او بشرا نبيا ... حيثما التقت ارادة الله بحرية الانسان المتاحة ضمن دائرتها الكبرى ... ومن لم يسع للصعود بفعله الى فوق فلا يامنن من الغرق اذا جاء الطوفان.

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾[1].

وهذا حوار بين الاسد والوحوش فيه شيء غير قليل من جفاف المعادلات الفكرية ، ولكن فيه كذلك تاكيد وتوسيع لاطروحات الرومي ورؤيته لمسالة القدر والحرية ... ان التوكل على الله مطلوب ، وما هو مطلوب كذلك الاخذ بالاسباب التي بثها الله في العالم واودعها فينا لكي نقدر على اداء مهمتنا في الارض ...

---

(١) سورة النساء : ١٢٣.

(قال الاسد : اذا كان التوكل هو المرشد الصادق فان الافادة من الاسباب هي ايضا سنة النبي

فقد نادى الرسول باعلى صوته : (اعقل فخذ بعيرك وتوكل على الله)

واستمع الى مغزى قول القائل (الكاسب حبيب الله)

ولا تكن بتوكلك متراخيا عن الاسباب والوسائل

فقالت الوحوش للاسد : اعلم ان الكسب من ضعف الخلق ...

فليس هناك كسب احسن من التوكل ، واي شيء احب الى الله من التسليم ؟

فكم يفر المرء من بلاء ليقع في بلاء اخر ، وكم يهرب المرء من الثعبان ليلقى التنين!!

لقد احتال الانسان فكانت حيلته شركا وقع فيه ، وكان موته فيما حسب انه حياته !

فقد اوصد الباب والعدو في منزله ، وان حيلة فرعون لم تكن الا قصة من ذلك النوع

فهذا الحقود قد قتل الوف الاطفال ، بينما كان الطفل الذي يبحث عنه في منزله !

ان بصرنا يعاني الكثير من العلل ، فاذهب وافن بصرك في بصر الحبيب !

فاذا اصبح ابصارنا إبصاره فما اجمل العوض ؟ انك ببصره تجد كل امل تتطلع اليه ...

فذلك الاله الذي ينزل الغيث من السماء ، قادر ان يمنحنا الخبز رحمة منه واشفاقا.

فقال الاسد : نعم ! ولكن رب العباد وضع سلما امام اقدامنا

فالواجب ان نصعد السلم درجة درجة نحو القمة ، واما القول بالجبر هنا فانه طمع ساذج

ان لك ساقين ، فكيف تجعل من نفسك انسانا اعرج ؟ وان لك يدين فكيف تخفي اصابعك ؟

فالسيد عندما يضع الفاس في يد عبده يتضح مراده دون حاجة الى القول

فاليد مثل القاس ، اشارة منه الينا لنسعى ، والتفكر في العقبى عباراته الموجهة الينا

فان جعلت اشاراته في قليل ، ضحيت بروحك من اجل تحقيق ما اشار به

فاشاراته تمنحك الاسرار ، وتضع عنك وزرك ، وترفع قدرك

وان حمل امانته ليجعلك محمولا الى عليين ، وان تقبل اوامره ليجعلك مقبولا عنده

واذا قبلت امره اصبحت ناطقا بامره ، وان كنت تبغي الوصل اصبحت واصلا من بعد ذلك القبول.

ان السعي لشكر نعمته لهو القدرة والاختيار ، واما انكار النعمة فهو الجبر

فشكرك على القدرة يزيد من قدرتك وحرية ارادتك ، واما الجبر فيخرج تلك النعمة من يديك

واعتقادك الجبر مثل النوم في الطريق ، فلا تنم ! وكن يقظا حتى ترى الباب والصرح !

حذار ايها الجبري الذي لا يعتبر ! لا تنم الا تحت هذه الشجرة المثمرة !

فلسوف تهز الريح الغصون في كل لحظة فتساقط على النائم نقلا وزادا

ان اعتقاد الجبر كالنوم بين قطاع الطرق ، وهل يجد الامان طائر لم يكتمل جناحاه ،

فاذا توكلت على الله فتوكل عليه في عملك.

الق البذور ثم توكل على الخالق الجبار !!) (ص ١٥٨-١٦٢).

وبعد ان يطرح المزيد من الصور لتاكيد رؤيته (ص ١٦٣-١٦٤) يقول :

(ليس الجهاد في مغالبة القضاء ، ذلك لان القضاء هو الذي فرض علينا ذلك الغلاب. انك لست مكسور الراس ، فلا تعصب راسك !

وابذل جهدك يوما او يومين ثم اضحك الى الابد ! ..

فالجهد حقّ كما ان الدواء حق ، والمرض حق ، وما منكر الجهد الا جاهد في انكار جهده) (ص ١٦٥-١٦٦).

وفي مكان اخر يعود الى (الفكرة) ذاتها .. هجوم ساخر على الجبر بمفهومه السلبي الذي يشل فاعلية الانسان وقدراته التي اودعها الله فيه ...

(... كل من بقي – لتراخيه وكسله – بلا شكر ولا صبر ، فهو يعلم انه يسير في طريق الجبر.

وكل من اتخذ الجبر مذهبا ، امرضه الجبر ، ولازمه حتى يودعه قبره ولقد قال الرسول (ان من يتمارض يمرض حتى يموت كما ينطفىء السراج).

فما الجبر ؟ انه ربط لعضو قد كسر ، أو وصل لعرق قد قطع

فاذا لم تكن قدمك قد كسرت في تلك الطريق فممن تهزا ؟ ولماذا ربطت تلك القدم؟

ومن يكسر قدمه في طريق الاجتهاد ويصل اليه براق يمتطيه ...)(ص ١٧٤-١٧٥).

وان في الابيات الاخيرة حقا لواحدة من مئات الصور الكاريكاتورية الساخرة التي ترسمها ريشة الرومي فتنطبع في الذهن والوجدان ... فلا تفارقهما !!

وفي مقابل هذه السخرية يضع لمسه واحدة ، بكلمات قلائل ، توجز البديل المطلوب وتصور ، في الوقت نفسه ، قدرته على الفاعلية والانطلاق ...

والانسان معرض في (فعله) للضياع في كل لحظة ... لخداع البصر او عمى الالوان .... فلا يكاد يرى الاشياء على حقيقتها ... فيقع في مظنة الهوى والاوهام ... صحيح ان الله سبحانه قد منح الانسان الحرية في مساحة ما من حياته ، الا ان عليه ان يكون حذرا ... حتى

اشد المؤمنين ايمانا ... بل ان اشدهم ايمانا ، لهو بامس الحاجة الى الحذر ... ففعل الانسان دونما معونة من الله ذي الارادة المطلقة ، لن يقدر على الكشف النهائي عن طبيعة القيم والاشياء ... وقد يضيع ... ومن ثم يرسل الرومي هذا الدعاء ، ويلح على الاخرين ان يرسلوه ... نقيا ... عميقا ... خالصا :

(... يا علام الغيوب ! لا تسحقنا بحجر من مكر السوء
وان كنا قد اتينا فعل الكلاب ، فلا تطلق علينا الاسد من مكمنه يا خالق الاسد !
ولا تجعل للماء العذب صورة النار ، ولا للنار صورة الماء !
(انك حين تسكرنا بشراب قهرك ، تجعل للعدم صورة الوجود
فما السكر ؟ انه حجاب للعين عن الابصار ، فيظهر لها الحجر جوهرا والصوف عقيقا !
وما فقدان الوعي ؟ انه ابدال ؟ للحس ، فيبدو للعين خشب الطرفة صندلا).
(ص ١٨٦).

وما الانسان ؟ وما حريته ؟ ازاء (قضاء) الله الشامل الذي يحيط بكل الخلائق والموجودات والاشياء ؟ ان الرومي يرجع فيؤكد الجانب الاكبر والاخطر في الصورة كيلا يتوهم احد انه يذهب الى الطرف الاقصى في التاكيد على حرية الانسان ، وتفلته من كل قيد ، فوقيا كان ام تحتيا ... انه كمؤمن صادق الايمان ، يملك في وجدانه وفؤاده جوانب الصورة كلها بالوانها وظلالها وخطوطها وتكويناتها ومساحاتها ، كما علمه القران ان تكون ... فهو اذا ما حدث وان ضرب فرشاته لتعميق مجرى حرية الانسان عاد فضربها لكي ترسم لنا دائرة القضاء الالهي الشامل الذي يلف ، فيما يلف ، حرية الانسان بما انه جزء لا يتجزا من قدر الله ، وقضائه في الكون ... والعالم ... والتاريخ ...

(... ان الغراب المنكر لحكم القضاء كافر ، ولو كانت له الاف العقول !! ..
انني ابصر الفخ في الهواء ، اذا لم يحجب القضاء عين عقلي
وحينما ياتي القضاء ينام العلم ، ويغدو القمر اسود ، ويحجب الشمس
فمتى كانت مثل هذه التعمية نادرة من القضاء ؟
اعلم ان من القضاء ان ينكر المرء القضاء !) (ص ١٨٩).

هكذا ... حتى تمرد الانسان على القضاء هو في نهاية الامر محكوم بالقضاء ، لانه موقف ، ومواقف الانسان جميعا محسوبة في دائرة الارادة الالهية النافذة وعلمه الشامل المحيط.

وقد يسأل سائل ، وكثيرا ما يسال : كيف يختم الله على قلب هذا الانسان بالكفر وقلب ذاك بالايمان ؟

ان الذين عايشوا القران ، وعاشوه ، يعرفون الجواب جيدا ... ان الله سبحانه يعلم علما لدنيا يعلو على جدران الزمان ، مجرى الفعل البشري : اين يبدا ، وكيف يلتوي به الطريق ، وفي اي مكان يصب ... ومن ثم يصدر حكمه ، دون ان يشكل هذا الحكم اي تقاطع مع حرية الانسان الذاتية في اختيار هذا الطريق او ذاك ، رغم انه صائر الى هذا المصير او ذاك ... ان الذين يتدبرون القران يعرفون الامر جيدا ... والرومي يطرح هاهنا بداهاته الايمانية بصوت الشعر ، وصوره ، واخيلته ، وقناعاته الوجدانية :

(ان عندنا لكل شيء اسمه الظاهري ، واما سر هذا الاسم فلدى الخالق

فالخشبة التي كان يمسك بها موسى ، كان اسمها عنده عصا واما عند الخالق فكان اسمها حية وقد كان لعمر هنا في الدنيا اسم عابد الاصنام.

ولكن اسم الايمان كان له من قبل ان يولد

فكل ما كان عندنا في عداد النطف كان ماثلا امام الحق كانه معه

لقد كانت هذه النطفة صورة في العدم ، ولكنها كانت موجودة امام الحق بدون زيادة او نقصان.

ان عاقبة امرنا هي التي تمثل حقيقة اسمنا عند الخالق

فهو يسمي المرء بعاقبته ، لا بما يكون عارية مؤقتة

ان عين ادم حين ابصرت بالنور الطاهر تجلت لها ارواح الاسماء واسرارها

وعندما ابصر الملائكة انوار الحق في ادم خروا وسارعوا لتمجيده

لقد ادرك كل هذا ، ولكنه حين وقع القضاء اخطا في ادراك نهي واحد

فقد عجب ، اهذا النهي كان من اجل التحريم ، ام انه كان قابلا للتاويل ومجالا للوهم؟

وعندما رجح في قلبه التاويل ، سارع طبعه في حيرة نحو القمح

فلما اصابت الشوكة قدم البستاني (ادم)

وجد اللص (ابليس) فرصته وسارع الى حمل الثمار

وحينما خلص ادم من حيرته ، عاد الى الطريق السوي فوجد ان اللص قد سرق المتاع من دكانه فتأوه قائلا (ربنا ظلمنا انفسنا).

يعني ان الظلمة قد حلت وضاع الطريق

فهذا القضاء سحاب يحجب وجه الشمس ، وهو يجعل الاسد والتنين مثل النار فان كنت لا ارى الفخ عند نزول القضاء ، فلست وحدي الجاهل في تلك الطريق فما اسعد من استمسك بالعمل الصالح ، وتخلى عن العنف ، ولزم الضراعة ...) (ص ١٩٠ – ١٩٢ **).**

وهكذا ينتهي الرومي الى ما اكده قبل قليل ، ان حرية الانسان وحدها لا تكفي ، ولابد لها من اضاءة من فوق كي تعرف الطريق فلا تقع في الفخ ، او تصاب بعمى الالوان والضلال ...

والفخ الذي يكمن في طريق الانسان عند نزول القضاء ، ليس – بحال – فخ التراجيديات اليونانية حيث يحلو للالهة ان تعبث بالانسان وان تلعب معه لعبة القط والفار ، وان تنصب في طريقه المصائد والافخاخ للايقاع به والاطباق عليه ، دونما تفريق بين المحسن والمسيء والمصيب والخاطىء ، والصالح والطالح ... بل انها ليلذ لها احيانا ان تختار العناصر الممتازة من بني ادم لكي تدخلها حلبة الصراع فيكون لهزيمتها وقع اشد في نفوس الالهة المتعطشة للانتقام.

لا ... ليس الفخ الذي يعنيه الرومي هو ذاك الذي لا تزال اوربا تخافه وترهبه وتقاتل دونه – انما هو الفخ الذي ينصبه جهل الانسان ، وغفلته ، وقصوره ، وممارساته الخاطئة ، وكفره ، ومروقه ... لنفسه ، فيقع فيه يوم نزول القضاء الذي لا راد له ... يقع في الحفرة التي حفرها بيديه ومخالبه واسنانه وفرجه وبطنه ... ومن ثم فان بمقدور الانسان ان يسلك طريقا لا افخاخ فيه صعدا الى الافق الوضيء السعيد ... (فما اسعد من استمسك بالعمل الصالح ...) كما يقول الرومي في ابياته تلك ...

ثم ها هو ذا يجمع على صعيد واحد الجبر والاختيار ، ولا يجد ثمة استحالة في ذلك ، او صعوبة ، كما يتصور اصحاب النظرة الاحادية الذين ياسرهم وجه العملة الواحد فيتعامون عن النظر الى الوجه الاخر مصرين على انكار وجوده ... ان الرومي يعرف كيف يستشرف بحسه البصير جوانب الحقيقة كلها ... وبما انه يصدر عن موقف ايماني فانه يجد نفسه ملزما بهذا الاستشراف الشامل ... والنتيجة ... هي القدرة على جمع وتوحيد ما يبدو للناس تناقضا وتقاطعا، وما هو في حقيقته الا الاوجه المختلفة للجوهر الواحد ...

(ان الذين يعرفون الجبر – يا بني – هم اولئك الذين فتح الله لهم بصرا في قلوبهم فانكشف لهم الغيب المقبل ، وتلاشى عندهم ذكر الماضي

فالاختيار والجبر عندهم غيرهما عند الاخرين ... ان القطر في الاصداف جوهر.

فكم خارج الاصداف من قطرة صغيرة او كبيرة ، ولكنها في الاصداف درة صغيرة او كبيرة ...

ان الاختيار والجبر كانا عندك خيالا ، ولكنهما ، عندما حلا فيهم ، اصبحا نور الجلال!

فالخبز على المائدة هو ذلك الجماد ، ولكنه في جسم الانسان يصبح روحا مبتهجة.

فهو لا يتحول عن طبيعته في قلب المائدة ، ولكن الروح هي التي تحوله عنها بمائة السلسبيل ...

ان كتلة اللحم الادمية ذات العقل والروح تشق الجبل والبحر والمنجم

ولو ازاح القلب الغطاء عن وعاء الاسرار لهرعت الروح منطلقة نحو العرش ...)

(ص ٢١١-٢١٢).

والرجل يطرح في مواضع كثيرة اخرى من ديوانه تصوره الايماني المتوازن للقدر والحرية، او للجبر والاختيار[١].

والنتيجة الاخيرة ؟

ان الانسان حر ، ولكنه بحريته هذه انما يتحرك ضمن مشيئة الله وفي تواز معها ... ليس ثمة تعارض او صراع ... انما هو التجاوب والامتداد ...

ان الانسان هو بارادة الله ... وما افعاله سوى تعبير عن هذه الارادة من خلال صيرورتها الانسانية.

يقول الرومي مفسرا اية ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ** ﴾[٢].

(انا لو اتينا الى الجهل فهذا سجنه ، ولو جئنا الى العلم فهذا ايوانه واذا استسلمنا للكرى فاننا سكارى به ، واذا صحونا فانا طوع يديه

(واذا بكينا فاننا سحابه المحمل بالرزق ، واذا ضحكنا فاننا حينذاك برقه

ونحن - في الغضب والحرب - صدى لقهره ! ونحن - حين الصلح والصفح - صدى لحبّه ! فمن نحن في هذا العالم المعقد ؟

اننا كالألف ، فماذا تملك الألف من الحركة ؟ لا شيء قط) (ص ٢١٦).

واذا كان قضاء الالهة في ميثولوجيا اليونان ، والغرب عموما ، هو قضاء الغدر والانانية والكراهية والبغضاء ... فان قضاء الله ، في التصور الاسلامي ، هو قضاء المحبة والمواساة والفرح والامن ... القضاء الذي ياخذ بيد الانسان مهما بدا من قسوته ! وعنفه وفجاءته ... صعدا الى القمة ... لكي يضرب له مخيما في اعالي السماء !

(... فالقضاء اذا كان يغشاك بظلمه الليل ، فانه ياخذ بيدك في عاقبة الامر. والقضاء اذا قصد روحك مائة مرة ، فانه ايضا يهبك الروح ، ويداويك. ان هذا القضاء ، لو سد الطريق امامك مائة مرة.

---

(١) انظر كذلك : الصفحات ٧٧-٧٩، ٩٣-١٠٩،٩٤-٢١٢،١١٠-٢١٤ ، ٢٢٩-٢٣٢ للاطلاع على المزيد من النماذج.

(٢) سورة الحديد : الآية ٤.

فانه يضرب لك مخيما فوق اعالي السماء !) (ص ١٩٢).

وصدق الله العظيم

﴿ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١].

﴿ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[٢].

(٧)

والتزام الرومي يتبدى في موقفه الموزون ، المتادب ، النقي ، الذي لا غبش فيه ولا توتر ولا (شطحات) ... من الذات الالهية ... وهو موقف ليس سهلا ميسورا على شاعر متصوف عاشق في الوقت نفسه ، تلهمه تجربة الشعر وتكويه نار التصوف والمحبة ...

وغير الرومي كثيرون من الشعراء والمتصوفة لم يطيقوا البقاء طويلا عند نقطة التوازن الصعبة فاثروا السقوط السهل في خطابهم لله ، ووصفهم لذاته سبحانه ، وهم يحسبون انهم يعبرون عن مدى تجربتهم ... اسمعه يقول :

(انا نرجو من الله ان يوفقنا للادب ، فان من لا ادب له يبقى محروما من لطف الرب.

ان من لا ادب له لايقتصر اذاه على نفسه ، وانما هو يشعل النار في جميع الافاق.

لقد كانت مائدة تتنزل من السماء بدون عناء ، وبدون بيع او شراء

ولكن جماعة من بين قوم موسى قالوا بوقاحة : اين الثوم والعدس ؟

فانقطع عنهم خبز السماء ومائدتها ، وبقي لهم عناء الزراعة والكدح بالفاس والمنجل

ولكن عندما شفع عيسى لدى الحق ، ارسل لهم الخوان والغنيمة على الطبق.

فعاد اهل الوقاحة الى ترك الادب ، وتخاطفوا الطعام كالشحاذين

فناداهم عيسى قائلا : ان هذه المائدة دائمة ولن ينقطع ورودها الى الارض

ان سوء الظن والحرص – امام مائدة العظيم – كفر

لقد اغلق باب الرحمة على الناس من جراء هؤلاء الذين اعماهم الحرص

ان السحب لاتجيء اذا منعت الزكاة ، ومن الزنا يقع الوباء في جميع الجهات

فكل ما اصابك من ظلمات وغم ليس الا نتيجة للتبجح والتوقح

وكل من ابدى توقحا في طريق الحبيب فهو قاطع الناس ولا رجولة عنده

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٦.

(٢) سورة النساء : الآية ١٩.

فمن الادب امتلا بالنور الفلك ...

ومـن الوقاحـة كـان كسـوف الشـمس ، ومـن الجـراة رد الشـيطان عـن البـاب)

(ص ٨٠-٨١).

واسمعه يقول :

(... لقد قال الشيطان : (بما اغويتني) فهذا الشيطان الدنيء قد اخفى فعله

وقال ادم : (ربنا ظلمنا انفسنا) ، وهو مثلنا لم يكن غافلا عن فعل الله

وقد اخفى فعل الله في ذنبه – تادبا – فجنى ثمارا لنسبته الذنب الى نفسه

وبعد التوبة قال له الله : يا ادم ! الم اخلق فيك هذا الجرم وتلك المحن ؟

الم يكن هذا تقديري وقضائي ؟ فلماذا اخفيت ذلك وقت اعتذارك ؟

فقال ادم : لقد خشيتك فلم اتخل عن الادب

فقال الله : واني ايضا قد حفظت لك ادبك ...) (ص ٢١٣-٢١٤).

واسمعه يقول :

(... وكان من غرورهم ان لم يقولوا (ان شاء الله) فاظهر لهم الله عجز البشر

ان ترك الاستثناء عندي قسوة

ولست اعني به مجرد القول الذي هو حالة عارضة لا يؤمن بها القلب

فكم من متكلم لا ياتي في قوله بعبارة (الاستثناء).

ومع ذلك فروحه مقترنة بروح تلك العبارة ...

ولما راى الملك عجز الحكماء ، جرى عاري القدمين نحو المسجد

ودخل المسجد واتجه نحو المحراب ، وابتل مكان السجود بما جرى من دمعه

فلما افاق من الغرق في لجة الفناء ، اطلق لسانا جميلا بالمدح والثناء فقال :

يا من هو على الدوام ملجؤنا عند الحاجة ، انا ضللنا السبيل مرة اخرى

ولكنك انت قد قلت : انني اعرف سرك فسارع الى اعلانه

فلما ارتفع الصياح من اعماق روحه ، جاش بحر العطاء ...) (ص ٧٧-٧٨).

فها هو ذا الرومي في المقاطع الثلاثة ، وغيرها كثير ، يؤكد على خصيصة من ابرز خصائص العقيدة الاسلامية في معطياتها عن الله سبحانه ... ان الفرق بين الخالق والمخلوق هائل ... هائل ... لا يحده حد ولا يقيسه مقياس ... وان على المخلوق ان يعرف جيدا حجمه الحقيقي ، وان يتخذ موقفه المتادب من خالقه لا يتجاوزه خطوة واحدة الى الامام او الى الوراء ...

وفرق واي فرق بين هذا الموقف المحسوب بين الله وعباده في منظور الرومي المستمد من اخلاقية الاسلام وبين مواقف الغربيين ، القدماء والمحدثين من الله في ميثولوجياتهم

وفلسفاتهم وادابهم وسلوكهم اليومي ... بينه وبين مواقف بعض المتصوفة الذين تشطح بهم قوة التجربة الى حيث يسقطون الميزان !

وهو يناجي الله سبحانه بالنبرة المتادبة الرقيقة نفسها التي ترّد الامر كله لله ...

(يا من انت في ساعة الالم راحة لنفسي !

ويا من انت في مرارة الفقر كنز لروحي

ان ما لا يحمله الوهم ولا يبصره الفهم

يصل الى روحي منك لانك قبلتي

ففي ركعات الصلاة يكون خيالك ايها الملك

واجبا ولازما لي لزوم السبع المثاني) (ص ٣٣ – ٣٤).

وهو عندما يحكي لنا عن تجربة المحبة التي تصهر وتذيب يظل على توازنه فلا يسقط او يحاول القفز الى فوق كما يفعل بعض غلاة الصوفية

(ان الروح التي ليس شعارها الحب الحقيقي

من الخير الا توجد ، فليس وجودها سوى عار !

كم ثملا بالحب ، فان الوجود كله محبة

وبدون التعامل مع الحب فلا سبيل الى الحبيب

يقولون ما الحب ؟ قل : هو ترك الارادة

ومن لم يتخلص من ارادته فلا ارادة له

ان المحب ملك والعالمين نثار عند قدميه

ان المحبة والمحب باقيان الى الابد

فلا تربط قلبك بسواهما لانه عرض زائل

عانق الروح وان كانت لا حدود لها

فالازهار التي تتولد في الربيع تموت في الخريف

وبستان المحبة لا مدد له من الربيع وتلك الورود التي يجيء بها الربيع مقترنة بالاشواك

كما ان خمر العصير لا تخلو من خمار

فلا ترتعد فوق حصان الجسد ، وسر مسرعا على قدميك !

فان الله يهب جناحين لمن تخلى عن حصان الجسد)) (ص ٣١ – ٣٢).

وفي مناجاة اخرى يحكي لنا الرومي عن احتراقه بنار المحبة ... لكنه الاحتراق الذي لا يفقده توازنه لحظة ...

((ايها الحبيب ! اني لم ار طربا في الكونين بدونك

لقد رايت كثيرا من العجائب ، ولكني لم ار عجبا مثلك !
يقولون ان الاحتراق بالنار نصيب الكافر
ولم ار محروما من نارك سوى ابي لهب
ولكم وضعت اذن الروح على نافذة القلب
فسمعت كلاما كثيرا ولكني لم ار شفتين)) (ص ٣٣)

وفي مقطوعة ثالثة يضع لمساته الموحية وهو يتحدث عن العاشق والمعشوق ..

((ان المعشوق هو الكل واما العاشق فحجاب
والمعشوق هو الحي واما العاشق فميت
وحينما لا تكون للعاشق رعاية من العشق
فانه يبقى تعسا كطائر بلا جناح
وكيف تكون لي عقل يدرك ما امامي وما ورائي
حينما لا يكون نور حبيبي امامي ووراءي ؟
ان العاشق يقتضينا ان نبوح بهذا القول
والا فكيف نكون المراة اذا لم تعكس المرئيات ؟
او تدري لم اظلمت صفحة مراتك ؟
انها اظلمت لان الصدا قد علاها ولم ينفصل عنها)) (ص ٧٥-٧٦).

وكثيرة هي الشواهد على هذه الرؤية النقية التي نظر الرومي من خلالها الى الله سبحانه ... والاستثناءات قليلة لا تكاد تعد ... اما القاعدة فتكاد تغطي الديوان كله[١].

وتظل نداءات الرومي المؤثرة تطرق وجداننا لكي تنطبع هناك **((ان روحي وقلبي لا طاقة لهما بذلك الجيشان ، فمع من اتحدث وليس في هذا العالم اذن تسمع ؟))** (ص ١٢١) **((فيا من قلوبهم تحت جلودهم متحللة بالفناء ، عودوا من العدم بنداء الحبيب))** ! (ص ١٤١).

***

وموقف الرومي المتوازن ، المتادب ، الصافي من الله سبحانه وتعالى ينسحب على انبيائه الكرام لكي ما يلبث ان ينتهي عند خاتمهم عليه الصلاة والسلام ... فهو ليس من اولئك الشعراء والمتصوفة الذين ينسون رسل الله سبحانه ، وهم يتحدثون عن المحبة التي تلف العالم في وحدتها، وهو ليس من اولئك الفلاسفة الذين اذا تحدثوا عن الروح والدين والقيم مزجوا الاديان

---

(١) انظر كذلك الصفحات : .

جميعا ، دونما تفريق بين مراحل نموها الزمني ... وضيعوا على الاسلام ، عامدين او غير عامدين. تفرده ، وتميزه ، واكتماله ... باسم وحدة الاديان !! لا هو من هؤلاء ولا من هؤلاء ... فهو – من جهة – يحشد في مثنوياته الكثير الكثير من مواقف الانبياء عليهم السلام ، ويستمد من القيم والتعاليم التي جاءوا بها ونفذوها ، نهرا متدفقا من العطاء ... ونظرة سريعة الى عناوين قصائده ترينا حجمه وابعاده ... ونسمعه يقول :

(... ضلت جملة اهل العالم ، فقليل من الناس من يعرف ابدال الحق
فقد ادعوا انهم مساوون للانبياء ، وظنوا انفسهم مثل الاولياء
وقالوا : انظروا ! اننا بشر وهم بشر ، ونحن واياهم اسارى للنوم والطعام
ومن عماهم لم يدركوا ان هناك فرقا لا نهاية له بينهم وبين هؤلاء
فالنحل كلها تاكل من مكان واحد
ولكن يجيء من بعضها اللدغ ومن بعضها الاخر ياتي العسل
ومن القصب صنفان يشربان من ماء واحد
ولكن احدهما خال والاخر حافل بالسكر
فتامل مائة الف من امثال هذه الاشياء
وانظر كيف يفصل بينها طريق طوله سبعون عاما !
فهذا ياكل فتتولد منه القذارة ، وذاك ياكل فيصبح كله نورا الهيا !
وهذه ارض طيبة ، وتلك مالحة رديئة ...
فلو تشابهت الصورتان فذاك جائز ، فالماء المالح والماء العذب شبيهان في الصفاء!
ومن الناس من يقيس السحر بالمعجزة ، فيظن ان كليهما مبني على المكر
فالسحرة من اجل منازعتهم لموسى امسكوا عصى مثل عصاه
لكن بين هذه العصا وتلك العصا فرقا واسعا ؛
وبين هذا العمل وذاك العمل طريق عظيم) (ص ٩٧-٩٩).

ونسمعه يقول :

(لقد كانت لفرعون الاف من الرماح
ولكن موسى حطمها جميعا بعصا واحدة !
وجالينوس كانت له في الطب الاف من طرق العلاج
وكلها – امام عيسى ونفسه – لم تكن الا خرافة
وكانت هناك الاف من دفاتر الشعر
ولكنها جميعا باءت بالعار امام حرف من النبي الامي ..) (ص ١٢٣).

ونسمعه يقول :

(... في كل لحظة للنفس مكر ، وكل مكر يغرق مائة فرعون مع اتباعهم.
فاهرب الى اله موسى والى موسى ، ولا ترق ماء الايمان بطبيعة فرعونية
(واربط يدك بالاله الاحد ، وباحمد ، وتخلص يا اخي من (ابي جهل) البدن (ص ١٤٦).

ويقول :

(... نعم ! ولكن انظروا ايضا الى الجهود التي بذلها الانبياء والمؤمنون !
لقد بارك الله تعالى جهودهم ، وما لاقوه فيها من جفاء وحر وبرد
فجاءت تدابيرهم في جملة الاحوال لطيفة ، وكل ما جاء من لطيف فهو لطيف.
لقد صادت شباكهم طائر الفلك ، وتحققت لهم الزيادة في كل ما كان ينقصهم.
فاجتهد ايها السيد ما استطعت في اتباع طريق الانبياء والاولياء ...) (ص ١٦٤)

ويقول :

(... فكل نبي كان يدعو امته – مثلما ادعوكم – حتى يخلصها
فهو الذي راى في السماء طريق النجاة ، على حين ظل هذا الطريق – في نظر الناس – منطويا في الخفاء كانه انسان العين
لقد راه الناس صغيرا كانسان العين
ولكن ما يسلك احد منهم سبيل التفكر في عظمة ذلك الانسان الصغير) (ص ١٦٨ -١٦٨).

ويقول :

(ما اسعد الرجل الذي تخلص من ذاته واصبح متحدا مع وجود حي !
وواها على ذلك الحي الذي جلس مع الميت
لقد اصبح ميتا وفرت منه الحياة !
فان انت فزعت الى قران الحق فقد امتزجت بارواح الانبياء
فالقران احوال الانبياء ، وهؤلاء اسماك بحر الكبرياء الطاهر ...
ان الارواح التي تحررت من اقفاصها انما هي الانبياء المرشدون الفضلاء
فمن الخارج ياتيك صوتهم ، صوت الدين قائلا :
هذا طريقك للخلاص ... هذا ...) (ص ٢١٩).

ولكن الرومي ، وهو يقف وقفة التمجيد والتكريم هذه للانبياء جميعا عليهم السلام ، بما يتطلب منه موقفه الايماني المشبع بالفهم عن القران ... لا ينسى لحظة انه مسلم اولا واخيرا ... تابع من اتباع النبي الامي الاخير محمد (عليه السلام) ... وان اسلامه اذا كان يفرض عليه احترام رسل الله كافة ، والايمان بوحدة رسالاتهم ، فانه يفرض عليه في الوقت نفسه الالتزام

الكامل بالرسالة الاخيرة ، والمحبة المطلقة لرسولها ... والتمييز بينها وبين سائر الاديان السماوية الاخرى التي انحرف بها الطريق ، ونسخها الدين الاخير ...

ان عددا من الشعراء والفلاسفة واصحاب النظريات الاخلاقية كثيرا ما ينسون هذا فلا يميزون بين الاديان بحجة وحدة مصدرها وغايتها على السواء ... لكن التمييز – بالمقياس الذي تحدثنا عنه – ضروري لشاعر ملتزم كالرومي ... ومن ثم فهو يتدفق في مثنوياته بين الحين والحين – وهو يعود فيؤكده بين الان والاخر ... وهو يعلن التزامه المتميز هذا بوضوح :

(ان السنة هي اسلم الطرق ، والجماعة هم خير رفقاء الطريق ...) (ص ٣٨).

ونستمع اليه يقول :

(ان اسم احمد كان في الانجيل ، وكان نعته انه راس الانبياء وبحر الصفاء
كان في الانجيل ذكر لمحاسنه وشكله ، وكان فيه ذكر لغزوه وصومه واكله
وكانت هناك طائفة من النصارى ، عندما تصل الى ذلك الاسم وذلك الخطاب ،
فانها من اجل ثواب الله ، تقبل ذلك الاسم الشريف ، وتضع وجهها على ذلك الوصف اللطيف.

لقد كان هؤلاء امنين من الفتنة والخوف ، مستجيرين بالتجائهم الى اسم احمد
وقد خلف من بعد هؤلاء ذرية كبيرة ، صار نور احمد لها هاديا ورفيقا
واما ذلك الفريق الاخر من النصارى ، فقد كان يستهين باسم احمد
فحاق بهؤلاء الهوان والذل ... واصاب الاضطراب دينهم واحكامهم
بما جاءتهم به تلك الصحف المعوجة البيان
ان اسم احمد افاض مثل ذلك العون ، فكان لنوره مثل تلك الرعاية
فاذا كان اسم احمد قد صار حصنا حصينا
فكيف تكون ذات هذا الروح الامين ؟!) (ص ١٤١-١٤٢).

ويرفع صوته مناديا.

(ما احلى رسائل الخالق ! انها خالدة من اولها الى اخرها
ان خطب الملوك تفنى ، كما يفنى سلطانهم
ويخلد مجد الانبياء كما تخلد اقوالهم
ذلك لان مجد الملوك من الهواء ، واما مجد الانبياء فمن مقام الكبرياء !
واسماء الملوك ترفع من الدراهم بعد موت هؤلاء
واما اسم احمد فيظل يطبع فوقها الى الابد !!
واسم احمد هو اسم جميع الانبياء
فعندما يصل العدد الى المائة ، يكون التسعون معنا !) (ص ١٧٨).

وفي مكان اخر يخاطب الانسان ، ويعلمه ، مستمدا من تجربة الرسول (عليه السلام) هديه وتعاليمه :

(فكن مستقيما كالسهم ، وانطلق من القوس ...

فاما وقد رجعت من الحرب الظاهرة ، فاني قد اتجهت الان الى حرب الباطن

لقد عدنا من الجهاد الاصغر ، وها نحن مع الرسول في الجهاد الاكبر

واني لاتلمس من الله القوة والتوفيق ...

واعلم ان من اليسير على الاسد ان يمزق الصفوف

ولكن الاسد هو ذلك الذي يتغلب على نفسه) (ص ٢٠٣).

ويكاد يذوب محبة وهو يتغنى بالنور الذي جاء به المصطفى ... النور الذي هو اشبه بتيار الكهرباء ، ينتقل بلمح البصر عبر مائة سراج دون ان يفقد شيئا من قوته وتدفقه والقه العجيب :

(فخذ نوره من ادم ان شئت ، او منه ان اردت

وخذ الخمر من الابريق ان شئت ، او من الكاس ان اردت !

فان هذه الكاس وثيقة القربى بالابريق

فيا ايتها الكاس المباركة ليس هناك من هو سعيد مثلك !

ولقد قال المصطفى : طوبى لمن راني وامن بي ، وطوبى لمن راى من راني

فحين يقتبس السراج نور الشمعة ، فكل من راه راى الشمعة يقينا !

فلو انتقل النور على هذا النحو خلال مائة سراج

فرؤية اخر سراج ملاقاة للاصل) (ص ٢٥٤-٢٥٥)[١].

وسنجد في مقطع تال كيف اعتمد الرومي في مواطن كثيرة من مثنوياته ، أحاديث الرسول (عليه السلام) وسنته ...

(٨)

والرومي يتميز برؤية شمولية للوجود تتجاوز جدران المادية الى ما وراءها ، وشدها المبهظ الى فوق ، تماما كما اراد له الاسلام ان يكون ... وهو من اجل تاكيد رفضه للمادية الضيقة ، واستعلائه عليها ، وكسره اطواقها التي تضيق الخناق على الانسان ... هو من اجل هذا يرسم الكثير من الصور الشعرية الساخرة التي هي اشبه بالكاريكاتور الذي يجسم الخطا ويدفع الناس للضحك منه وعليه ...

---

(١) انظر الصفحات : .

(كانت ذبابة على عود قش فوق بول حمار !!

وقد رفعت راسها كربان السفينة وقالت :

اني اسميهما بحرا وسفينة ، وهذا ما استغرق فكري فترة من الزمن !

فانظر هذا البحر وتلك السفينة ، وانا فوقهما الربان الحصيف الراي

فكانت هذه الذبابة تسير سفينتها على صفحة البحر ، وقد بدا لها هذا القدر ماء لا يحد

لقد كان هذا الماء يبدو بلا حدود بالنسبة لها

ومن اين لها ذلك النظر الذي يراه على حقيقته ؟

ان عالمها يمتد الى المدى الذي يدركه بصرها

فعلى قدر العين يكون مدى بحرها !!) (ص ١٧٦).

هذه هي صورة المادي ، الكافر ، في كاريكاتور الرومي : ذبابة على عود قش فوق بول حمار ... ترى ، لضيق رؤيتها ، وتفاهتها ، وانحسارها المفجع ، انها تقود سفينة في بحر واسع ممتد ... وان ماساة الماديين انهم يقيسون العالم والكون بالمدى المحدود الذي تدركه ابصارهم (فعلى قدر العين يكون مدى بحرها) ... وهكذا تكون القشة في رؤية الذبابة سفينة ، ويكون بول الحمار ... بحرا ... ترى كم عانت (الحقيقة) من قصور الرؤية البشرية على مستوى المنظور والغيب على السواء ؟!.. كثيرا جدا ، وهي في القرن العشرين تئن من هذا القصور ... لولا ان العلم الجديد اخذ يشق للفكر البشري مجرى اخرا ... اوسع ... واعمق ... واكثر موضوعية واخلاصا ... فحطم الكثير من السدود والجدران ، ومزق الكثير من الستائر والسدف ووسع مدى الرؤية بما لا يقاس عما كانت عليه في القرون السابقة ... ان يوم اللقاء بين العلم والدين قد اوشك ان يكون !!

وكثيرة هي مواقف الرفض والاستعلاء ازاء رؤى الماديين ، وانصاف المؤمنين كذلك ، في مثنويات الرومي ... وما اكثر ما ينعى على الانسان ضيق الافق الذي اختاره بنفسه ، وعدم محاولته استشراف الافاق الرحبة البعيدة التي تحرره من شد الضرورات وتريه ما لم يكن يرى ...

انه يستمد من قصة موسى والخضر في كتاب الله ، حيث مارس الاخير افعالا بدت للوهلة الاولى غير مبررة ولا معقولة ... ثم لما تكشف عنها الحجاب ، بدت على حقيقتها فعلا اخلاقيا معقولا ... يستمد منها احدى مؤشراته في هذا السبيل.

(... فاذا كان الخضر قد خرق السفينة في البحر

فقد كان في عمله هذا مائة صواب

وقد خفي هذا على وهم موسى ، مع كل ما له من نور وفضل

فلا تطر انت بلا جناح !!)

ويواصل مقارنا هذه الفعلة بفعلة ملك كان قد تلقى اشارة الهية بقتل احد الرجال

(ان فعلة الملك تلك وردة حمراء ، فلا تسمها دما !!

وهذا الملك سكران بالحكمة ، فلا تقل انه مجنون !

فاذا كان الملك قد قصد بفعله هذا اراقة دم مسلم فانا كافر لو ذكرت اسمه

فان العرش سيهتز اذا مسه الشقي ، ويسود بهذا المدح ظن التقي

لقد كان ملكا وكان واسع الادراك ، وقد كان من خاصة الله ،

وان الشخص الذي يقتله ملك مثل هذا يكون مآله الى الحظ السعيد والجاه الرفيع

ان الطفل يرتعد امام ابرة الحجام

ولكن الام المشفقة يسعدها مثل هذا الالم

فهو ياخذ نصف حياة ، ويعطي بدلا منه مائة حياة

بل هو يعطي ما ليس يخطر لك في بال !

انك تتخذ من نفسك مقياسا للامور

ولهذا وقعت بعيدا ، بعيدا ...) (ص ٩٥-٩٦).

وفي مكان اخر يقول :

(كثيرون هم اصحاب الكهف في هذه الدنيا

وهم الان الى جانبك او في مواجهتك

فالغار معهم ، والرفيق يسامرهم

ولكن الله ختم على بصرك وسمعك ، فاي جدوى لك من وجودهم ؟..

فكل من كان منتبها للعالم المادي فهو في غفوة عن عالم الروح ، ويقظته اسوا من نومه

وعندما لا تكون ارواحنا مستيقظة للحق

فان يقظتنا تكون مثل اغلاقنا الباب

والنفس كل يوم من لكز الخيال وضربه ، ومن الضر والربح وخوف الزوال

لم يبق لها صفاء ولا لطف ولا بهاء

ولا طريق سفر نحو السماء ...) (ص ١١١-١١٢).

ويرسم هذه الصورة المعبرة

(... ان هذا الاله له من القدرة ما يجعله يخلق بنفخة منه مائة عالم كعالمنا !

فهو يظهر لعينك مائة عالم كعالمنا ، حينما يجعل تلك العين مبصرة بنوره

فاذا كان هذا العالم يبدو امامك عظيما لا اول له ولا اخر

فاعلم انه لا يساوي ذرة امام قدرة الله

وسيروا نحو تلك الناحية ، فهناك ارضكم الرحبة !

فهذا العالم محدود ، وتلك بلا حدود

ولكن الظواهر المادية ، والصور ، تقف حائلا) (ص ١٢٢-١٢٣).

وهو ياخذ على الحس ما يقود اليه من وهم وخداع وتعتيم على صوى الروح ، ويدعو الى تجاوزه صوب الباطن ، والا فاننا سنظل اسرى الوهم والخداع وضيق الافق ... انه يرفع صوته محذرا :

(حذار يا اسارى القول والبيان !

يا من تنشدون الوعظ المبني على حديث اللسان واستماع الاذن

ضعوا القطن في اذن حسكم الاسفل وحلوا رباط الحس من امام اعينكم

ان اذن الراس حجاب لاذن الباطن

فما لم تصم اذن الحس بقيت اذن الباطن صماء

فلتخلصوا انفسكم من الحس والاذن والهواجس حتى تسمعوا نداء (ارجعي) !

ان قولنا وفعلنا هما السلوك الظاهر

واما السلوك الباطن فمكانه اعالي السماء !

فالحس لم ير الا اليابس ، لانه ولد من اليابس

واما عيسى الروح فقد مر بقدميه على الماء !

فالجسم اليابس من شانه ان يسير على اليابسة

واما الروح فمجراها في صميم البحر !

وما دمت قد قضيت عمرك في طرق اليابسة

تارة في الجبل ، وتارة في البحر ، واخرى في الصحراء

فمن اين لك ان تجد ماء الحياة ؟

وانى لك ان تشق عباب بحر الروح ؟..) (ص ١٢٧-١٢٨).

وينادي الانسان ان يسافر بحثا عن المعنى ، وان يتخطى الصور والاشكال .. وان قوة الخيال الشعري لتتبدى ها هنا مرسومة معطياتها بعناية تهز الوجدان

(... فاذهب ، واسع وراء المعنى يا عابد الصورة !

ان المعنى جناح لجسد الصورة

والزم اهل المعنى حتى ينالك منهم العطاء وتصبح جوادا

ان الروح التي تخلو من المعنى تكون في الجسد كسيف خشبي في الغمد ...

لا نصلح الا وقودا للنار

فلا تحمل الى الميدان سيفا خشبيا

وانظر في اول الامر الى عدتك حتى لا يسوء مآلك

فان كان السيف خشبيا فامض واطلب غيره

وان كان قاطعا فتقدم الى الامام طربا

ان السيف الحق مكانه خزانة اسلحة الاولياء ، ورؤية هؤلاء كيمياء لك

وان ابتعت رمانة فاخترها ضاحكة متفتحة حتى ينبئك تفتحها عن حال حبها

فما اجمل ضحكها ! ذلك لانه يظهر من خلال فمها قلبها كما يظهر اللؤلؤ في صندوق الروح

ان ضحك الرمان يجعل البستان ضاحكا ، وصحبة الرجال تجعلك من الرجال

فان كنت قطعة من الصخر او المرمر صرت جوهرا لو اتصلت برجل ذي قلب

فاشرب روحك حب هؤلاء الطاهرين

ولا تسلم قلبك الا لحب هؤلاء السعداء القلوب

ولا تمضى في طريق الياس ، ففي الكون امال

ولا تتجه نحو الظلمات ، ففي الكون شموس !!) (ص ١٤٠-١٤١).

وفي مكان اخر يعود لتاكيد المعنى نفسه

(... لقد صارت علوم اهل الحس خطاما في فم البشر

فلم تدعهم يشربون لبان ذلك العلم الروحاني الرفيع

ولكن الله القى في سويداء القلب جوهرة لم يودع مثلها في البحار ولا في الافلاك

فيا عابد الصورة ! الام اعتدادك بالصورة ؟

ان روحك المجردة من الحقيقة لم تتحرر منها !

فلو كانت الانسانية بالصورة وحدها لتساوى احمد وابو جهل

ان النقش على الحائط يكون على صورة الانسان

ولكن تامل ! كم ينقص تلك الصورة من الصفات الادمية

فهذه الصورة اللامعة ينقصها الروح

فاذهب وفتش عن ذلك الجوهر النادر الوجود ...) (ص ١٦٩-١٧٠).

وانه لمن فضول القول التاكيد على ان حملة الرومي على الحس ، والدعوة لتجاوزه الى عالم الروح ، بما يمثل خروجا على دعوة القران المتشعبة ، الشاملة ، لاعتماد الحس في فهم

الكون والعالم والكشف عن سننهما وقوانينهما[1] ... هذه الحملة لا صلة لها البتة بما يمكن اعتباره رفضا للاسلوب التجريبي الذي يعتمد المعطيات الحسية في البحث العلمي الذي دعا القران الى التزامه ... فهذه مسالة اخرى تماما ، لا تهم الرومي الشاعر المتصوف من قريب ولا من بعيد ، وهي ليست ميدانه ... انما ميدانه الانسان نفسه ، بالاحرى ، تجربة الانسان الدينية في العالم ... ان الحس هو خطوة واحدة فحسب ، والوقوف عندها طويلا قد يصيب الانسان بخداع البصر وعمى الالوان ... ولابد من خطوات اخرى صوب الباطن هناك حيث تفتح كوى الروح بوابات العالم والكون ، وترفع الانسان الى افاق ما كان بمقدور الحواس يوما ان ترفعه اليها.

ان الرومي يدعو الانسان للثورة على شياطين الحس والخداع ... بهذا المعنى وحده ...

(... فمزقهم ايها القلب ، ولا تتوان في ذلك

مزق جلودهم فما هم الا جلود !!

وما الجلد ؟ انه الكلام المزوق الذي لا دوام له كانه الفقاقيع فوق الماء !

ان الكلام مثل الجلد والمعنى لبابه ، وانه مثل الصورة ، واما المعنى فمثل الروح ، والجلد هو الذي يستر عيب اللباب الفاسد ، كما انه يحرص على ان يغطي اللباب الطيب وحين يكون القلم هواء والدفتر ماء ، فسرعان ما يفنى كل ما نكتبه !) (ص ١٧٧).

(فيا من تستمع الي ! كم من ظلم تراه في الناس

وما هو سوى طبعك وقد ركب فيهم

ففيهم قد انعكس وجودك ، بنفاقك وظلمك وقبيح غفلتك

ولست تعاين هذا القبح في نفسك والا لناصبتها العداء بكل روحك !..

انك قد وضعت امام عينيك زجاجة زرقاء

ولهذا السبب بدا لك العالم ازرق اللون

فان لم تكن اعمى فاعلم ان هذه الزرقة من نفسك ...) (ص ١٩٨).

وها هو يستمد من احدى الوقائع التاريخية ... زيارة قام بها رسول القيصر الى الخليفة عمر بن الخطاب في المدينة ... شواهد اخرى على دعوته لتحرير الروح من شد الحواس .. بعد ان يترع الواقعة بحشد من الاخيلة والتداعيات التاريخية :

(... وقال رسول القيصر : أيها الخدم ، اين قصر الخليفة حتى اتجه اليه بحصاني ومتاعي ؟

---

(١) انظر كتابي المؤلف : تهافت العلمانية ، الفصل الاول ، والتفسير الاسلامي للتاريخ ، فصل المسألة الحضارية.

فقال له القوم : ليس لعمر قصر ، وانما لعمر قصر الروح المضيء !..
فكيف تستطيع – ايها الاخ – ان تبصر قصره وقد نبتت شعرة في عين قلبك ؟
الا فلتنظف عين قلبك من الشعر والعلل ، قبل ان تطمح الى مشاهدة قصره
فكل من كانت له روح تطهرت من الهوس سرعان ما يرى الحضرة والايوان الطاهر
فمحمد حين خلص من النار والدخان كان وجه الله في كل ناحية اتجه اليها
فاذا كنت رفيقا لوسواس الهوى الخبيث ، فكيف تدرك معنى (ثم وجه الله) ؟
وكل من فتح له باب في صدره فانه يرى الشمس مشرقة في كل مدينة
ان الحق – بين الاخرين – ظاهر جلي ، كالبدر بين النجوم
فضع طرفي اصبعك فوق عينيك وانظر !
هل ترى من العالم شيئا ؟ الا فلتكن منصفا !!
فان انت لم تر هذا فليس بعدم ! وما العيب الا في اصبع نفسك التعسة
فتنبه وارفع اصبعك عن عينك ثم شاهد – بعد ذلك – ما تشاء
ان قوم نوح قالوا لنوح : اين الثواب ؟
فقال انه من تلك الناحية التي حجبتموها بما استغشيتم من ثياب ...
ان الانسان بصر ، واما ما عدا ذلك فجلد ، والابصار الحق هو مشاهدة الحبيب
فان لم تبصر العين الحبيب فخير لها ان تكون عمياء
كما ان من الخير البعد عن الحبيب الثاني
فحين تلقى رسول الروم بسمعه هذه الالفاظ النضرة زاد اشتياقه
فارسل البصر منقبا عن عمر ، وترك متاعه وحصانه للضياع
فمضى مقتفيا اثر ذلك الرجل العظيم ، في كل ناحية ، سائلا عنه كالمجنون
قائلا : امثل هذا الرجل يكون في الدنيا ؟ انه – مثل الروح – محتجب عن الدنيا ...
ورأته امرأة اعرابية دخيلا فقالت له :
انظر ! ان عمر تحت تلك النخلة !!) (ص ٢٠٤-٢٠٦).

والرومي ، كما يبدو من هذا المقطع وغيره ، لا يدعو الى الغاء الحواس او تمجيدها وشلها عن العمل ، انما يؤكد على ضرورة صقلها وتنقيتها لخدمة اهداف الروح ... صحيح انه يضعها في المرتبة الثانية للمعرفة الروحية ... الا انه لا يلغيها الغاء ... ولا ينسى ، وهو يؤكد على تحرير الروح من شد الحواس ، انه حتى في هذه الحالة فان رؤية موضوعية للعالم لن تتحقق دائما ، بل على العكس ، قد يقود تجاوز الحواس ، وضبطها ، ومقاييسها ... قد يقود الذات الى ان تنطبع على صفحة العالم فلا تراه الا من خلال نسيجها الخاص !! فالمسالة ليست

في التحرر من خداع الحواس فحسب ... بل هناك ماهو اكثر اهمية. تنقية النفس من الشوائب ... من الميول والاهواء والنزوات والظنون ... وما اكثرها ...

ان انارة الحس تكشف لنا عن مواقع اقدامنا القريبة ... اما ضوء الروح فانه يكشف عن العالم والكون ... ولمن يريد ان يقطع الخطوات الكبيرة حقا ان يستضيء بالروح !!

(ان بحث العقل والحس متصل بالاثر او السبب

واما بحث الروح فمتصل بالعجب وباعجب من العجب

لقد اشرق ضوء الروح ايها المستضيء فلم يعد هناك لازم وملزوم ولا ناف ومقتض

ذلك لان البصر – الذي بزغ امامه نور الله – ما ابعده عن الحاجة الى دليل كالعصا ...) (ص ٢١٥).

ان (معرفة) ما وراء المنظور تقتضي طرائق هي غيرها في التعامل مع المنظور وان النتائج المتمخضة عن الاولى هي اكبر واشمل بكثير عنها في الثانية.

والروح ، ذلك المجهول الذي يبدو غائبا عن العيان ، ظاهرة قريبة منا .. منطلقة بنا على حصانها الاشهب الى افاق العالم وبوابات الكون ... وما اروع هذا المقطع الذي يتجاوز الرومي فيه مقولات الفكر الجافة ، التي التقينا بها مرارا ، الى وجدانية الشعر الطرية ... المتوهجة.

(... وكم من عوالم تصل اليها تجارة العقل !

وما اوسع المدى الذي تمتد اليه بحار الفكر !

وصورنا تتحرك مسرعة فوق ذلك البحر العذب

كانها الكؤوس فوق سطح الماء ...

والعقل محجب عن العيان ، واما الظاهر فهو عالم صورنا فيه موج او رذاذ من بحر العقل

وكلما اتخذت الصورة وسيلة الى ذلك البحر

فان البحر يلقي بالصورة بعيدا عن وسيلتها

حتى لايرى القلب من اعطاه السر ، كما لايرى السهم من قذف به بعيدا

ومثل من لا يرى كمثل من يعتقد ان حصانه ضائع

على حين هو يحثه بعناء على الاسراع في الطريق

ان هذا الرجل الكريم يظن حصانه ضائعا

مع ان حصانه يمضي منطلقا به كالريح !

فهو مشتت الفكر ، يبحث عنه منتحبا في كل مكان

ويمضي منقبا مستفسرا عنه من باب الى باب

قائلا : اين من سرق حصاني ؟ ومن يكون ؟

فيجيبه من يقول : فما هذا الذي انت ممتطيه ايها السيد ؟

نعم هذا حصان ، ولكن اين الحصان ؟

الا فلتثب الى رشدك ايها الفارس الباحث عن حصانه !

فالروح هكذا ، ظاهرة قريبة منا ، لكنها غائبة عن اعيننا

فمثلها كمثل البطن يملؤه الماء ، على حين جفت الشفتان كحلق الابريق !

وكيف ترى الاحمر والاخضر والوردي ، اذا لم تر النور قبل هذه الالوان الثلاثة ؟

فاما وقد ضاع عقلك في الالوان ، فقد اصبحت هذه الالوان حجابا لك من النور ! ..

ان الالوان لا ترى بدون النور الخارجي ، وهكذا لون الخيال في الباطن

والنور الخارجي يجيء من الشمس ومن السها

وأما النور الباطني فمن انعكاس الانوار العلى

والنور الذي في العين ليس الا نور القلب

فأنوار العيون حاصلة من انوار القلوب !

وأما النور الذي في القلب فهو نور الله !..) (ص ١٧٨-١٨٠).

وفي مقطع اخر نلتقي به ينادي قلبه متوسلا اليه ان يغادر الالتصاق بالهيكل الترابي الزائل الى عالم الروح لكي يتعلم هناك ثانية كيف يكون الطيران ، ويرجع الى الافق البعيد الذي قدم منه.

(ايها القلب ! لماذا انت اسير لهذا الهيكل الترابي الزائل !؟

الا فلتنطلق خارج تلك الحظيرة ، فانك طائر من عالم الروح

انك رفيق خلوة الدلال والمقيم وراء ستر الاستار

فكيف تجعل مقامك في هذا القرار الفاني ؟

انظر الى حالك واخرج منها وارتحل من حبس عالم الصورة الى مروج المعاني انك طائر العالم القدسي ، نديم المجلس الانسي

فمن الحيف ان تظل باقيا بهذا المقام) (ص ٣٣).

كما يتحدث عن قوة الروح ... كيف تكون ... تحول الموات الى حياة مبتهجة ... تشق الجبل والبحر والقمر ...

(فالخبز على المائدة هو ذلك الجماد

ولكنه في جسم الانسان يصبح روحا مبتهجة

فهو لا يتحول عن طبيعته في قلب المادة

ولكن الروح هي التي تحوله عنها بمائها السلسبيل
فهذه قوة الروح ... فكيف تكون قوة روح الروح ؟
ان كتلة اللحم الادمية ذات العقل والروح تشق الجبل والبحر والمنجم !
فقوة الروح التي تقتلع الجبل تتجلى في شق الحجر
وأما قوة روح الروح فمجلاها شق القمر
ولو ازاح القلب الغطاء عن وعاء الاسرار
لهرعت الروح منطلقة نحو العرش ...) (ص ٢١٢).

والكلمة التي تصدر عن الروح ... قد تخرب عالما باكمله ، وقد تجعل الثعالب الميتة أسودا !!

(ان الارواح في اصلها كنفس عيسى
ولكنها وهي متجسدة يكون نفسها تارة جرحا واخرى بلسما
فلو ارتفع حجاب الاجساد عن الارواح
لكان كلام لكل روح كنفس المسيح ...) (ص ٢٢٤).

وينعكس ايمان الرومي العميق بقوة الروح ، وقدرتها الكبيرة على الفعل والتغيير ، على رؤيته تجاه العالم والوجود ... انها رؤية متفائلة ، مشرقة ، مطمئنة الى (التجدد) الذي يلاحق العدم ، والانبعاث الذي يوقف زحف الفناء

(ان الدنيا تتجدد في كل لحظة ونحن لا نحس بتجددها
وهي باقية على هيئتها الظاهرة
والعمر ، وان بدا مستمرا في الجسد ،
فانه يتجدد في كل لحظة ، كما يتجدد ماء النهر) (ص ١٨١-١٨٢).

وفي مقطع آخر نسمعه يقول :

(في كل لحظة ، يا رب قافلة وراءها قافلة تسير من العدم الى الوجود
ففي الخريف تذهب الاف الاغصان والاوراق منهزمة الى بحار الموت
بينما الغراب يرتدي السواد كالحزين وينوح على الخضرة في البستان
وثانية يجيء الامر من سيد الارض فيقول للعدم : رد ما اكلت !
أيها الموت الاسود ! رد ما اكلت من زروع واعشاب وورق وحشائش
فيا اخي ! اجعل عقلك معك لحظة واحدة
ان بك في كل لحظة خريفا وربيعا
وانظر بستان قلبك اخضر ريان نضرا
حافلا ببراعم الورد والسرو والياسمين) (ص ٢٥٠).

ويصرخ :

(فيا من قلوبهم تحت جلودهم متحللة بالفناء

عودوا من العدم بنداء الحبيب ...) (ص ٢٥٣).

ولكنه لا ينسى لحظة الجانب الاخر من الصورة ... الوجه الاخر للحركة في العالم : صيرورة الحياة والموجودات والاشياء صوب الذبول ، والتعري ، والتساقط ، والنحول ... تلك هي سنة الحياة الدنيا ... تالف بين الاضداد ، كما اراد الله سبحانه ان تكون ... وتلك هي ميزتها الجوهرية عن حياة الخلود ، كما يريد لها الله – كذلك – ان تكون !!

فلنعاين رؤيته الشمولية التي تتلمّس الحكمة الالهية في تواجد الاضداد ، عبر هذه المقطوعة التي تتدفق وجدانية وجمالا ...

(... ان البستان ليرتدي حلة الخضرة حينا ، وحينا يتعرى

وذلك ليكون العالم حينا صابرا وحينا شكورا

والشمس التي تشرق وهي في لون النار

تصبح في ساعة اخرى منقلبة الراس نحو المغيب

والنجوم المشرقة في جوانب السماء الاربعة

انما هي ، بين لحظة واخرى ، مبتلاة بالاحتراق

والقمر الذي يتفوق على النجوم في الجمال

غدا من مرض النحول وكانه الخيال

وهذه الارض الساكنة الوقور تجعلها الزلزلة مرتعدة كاللهب

وكم في الدنيا من جبل جعله هذا البلاء المتوارث فتاتا ورمالا !

وهذا الهواء جاء مقترنا بالروح والحياة

ولكنه حين وقع القضاء اصبح فاسدا عفنا

والماء العذب الذي كان قريبا للروح

اصبح في الغدير الراكد اصفر اللون ، مر المذاق ، معتكرا

والنار المنتفخة برياح الغرور تقضي بالموت عليها نفخة ريح واحدة

واعلم ان حال البحر في اضطرابه وجيشانه

انما هو ناشيء من تغير عقله وتبدله

والفلك الدوار الدائب على السعي والتنقيب ، ليس حاله الا كحال ابنائه

فهو حينا في الحضيض ، وحينا في الوسط ، وحينا في الاوج

وبه افواج وافواج من كواكب السعد والنحس

فيا ايها الجزئي الذي هو من كليات مختلطة !

لتكن ذاتك سبيلك لتفهم حال كل موجود !

واذا كانت الكليات معتلة سقيمة ، فكيف لا تكون جزئياتها مصفرة الوجوه ؟

وخاصة ذلك الجزئي الذي تجمعت به الاضداد

واتحد فيه الماء والتراب والنار والهواء

ان الحياة تألف بين الاضداد ،

وما الموت الا قيام للحرب بينها !

ولقد الف لطف الحق بين الاسد وحمار الوحش ، هذين الضدين المتباعدين

واذا كان هذا العالم مريضا ... سجينا

فاى عجب يكون لو خفي المريض ؟) (ص ١٩٤-١٩٥).

والرومي يلتمس بحسه الايماني البصير ، من وراء التناقضات والاضداد ، ليس فقط وحدة العالم وتماسكه والتئامه ، بل التناغم والالفة بين مخلوقاته وموجوداته جمادات ... وحيوانات ... واناسا ... واذا كان القران الكريم قد حدثنا مرارا عن الذرات التي تسبح في قلب الاشياء مسبحة بحمد الله والطيور التي تسبح في الفضاء مسبحة بحمد الله ... واذا كان العلم الحديث ، في اشد نظرياته الفيزيائية جدة ، يحدثنا عن تواجد نوع من الوعي والحرية في بنية العالم والكون ... فان الرومي ، الذي تعلم كثيرا من كتاب الله ، يصوغ رؤيته شعرا فيمنحنا المزيد من الشواهد المؤثرة على روح المحبة والتالف المتواجدة في اعماق الكون والعالم ... عن الجماد ، والحيوان ، والانسان ... وهي تسير جنبا الى جنب ، وتعمل جنبا الى جنب ، من اجل التحقق بحياة افضل على هدي الله ... انه حتى الاشياء الجامدة ، وظواهر الطبيعة ، تسهم في صراع الحق ضد الباطل ، وتنفث الخير والمحبة في ارجاء العالم ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُو** ﴾[1].

(هكذا تكون ريح الاجل مع العارفين

انها رقيقة طيبة كنسيم البستان

ان النار لم تنشب انيابها في ابراهيم

وكيف كات تنهشه وهو الذي اختاره الحق ؟

ان نار الشهوة لم تصب اهل الدين

ولكنها هبطت بمن عداهم الى قاع الثرى

وموج البحر - اذا تدفق بامر الله - ميز بين قوم موسى وبين اهل مصر

والارض - عندما جاءها الامر - سحبت قارون بذهبه وعرشه الى قاعها

والماء والطين - حينما ارتويا من انفاس عيسى -

---

(١) سورة المدثر : الآية ٣١.

انبثقت منهما قوادم وخوالف واصبحا طائرا يحلق
وما تسبيحك الا بخار الماء والطين
وقد صار هذا طائر الجنة لما نفخ فيه القلب الصدوق
ولقد رقص جبل الطور لما راى موسى
واصبح صوفيا كاملا ، وبرىء من النقص !
واي عجب اذا صار الجبل صوفيا عزيزا ؟
أو لم يخلق جسم موسى ايضا من قطعة طين ؟) (ص ١٥٣-١٥٤).

وفي اكثر من مكان يعود ليؤكد المعنى نفسه.

(... من كان غافلا عن الزرع والربيع
انى له ان يدرك قيمة الزمن ؟
فالواجب ان تفر الى كنف من لطف الحق
فانه يصب على الارواح الاف الالطاف
واذ ذاك تجد لك ملجا ، فكيف يكون هذا الملجا ؟
ان الماء والنار يصبحان كلاهما جيشا لك !
أو لم يصبح البحر صديقا لنوح وموسى ؟ أو لم يصبح عنيف القهر لاعدائهما ؟
أو لم تكن النار قلعة لابراهيم ، حتى صعدت دخان الحقد من قلب النمرود ؟
أو لم يدع الجبل اليه يحيى ويدفع عنه قاصديه برجم الحجارة ؟
وقال له : يا يحيى تعال ! واهرب الي لاكون لك ملجا من السيف القاطع ؟)
(ص ٢٤٥).

وثمة شواهد كثيرة ، اخرى ، منبثة قي شرايين الديوان ، لن يتسع لها المجال.

(٩)

والتزام الرومي يتبدى في ساحة اخرى : الواقعية الايجابية ، والصراع ضد الباطل والطغيان ، ويرتبط بموقفه من القدر والحرية ... انه لا يقعد مستسلما للتيار ، متكا على الهامه الصوفي ... يجيء في لحظات الخطر فينتشله من الغرق ... كلا ... انه يقاوم ... وبجهد في البحث عن مكامن الشر والخطيئة لقتالها في زوايا النفس وحنايا الشعور ، ويدعو المؤمنين في العالم لرفع سلاحهم ضد الطاغوت الذي يدعي خصائص الالوهية لنفسه ويعتدي على سلطان الله الواحد ... ان الانسان معرض في كل لحظة للوقوع في الشرك ، وما لم يشمر عن ساعد الجد للبحث عن اكلة جهده وكدّه ، فانه لن يحصد الا الهشيم ...

(رباه ! ان امامنا مائة الف من الشباك والحب
ونحن كالطيور الحريصة الجياع !
ففي كل لحظة نقع في شرك جديد
حتى ولو كان كل منا بازا او عنقاء
وانت – يامن لا حاجة بك الينا – تخلصنا في كل لحظة
ولكننا نعود فنقع في حبائل اخرى !
فنحن نضع الحب في هذا المخزن ، بيد اننا لانكاد نجمع القمح حتى نفقده
وليس ينتهي بنا التفكير اخر الامر
ان هذا الخلل الذي يقع بالقمح جاء من مكر الفار
فمنذ ان صنع الفار جحرا في مخزننا ، خرب بخداعه هذا المخزن
فاعملي أيتها النفس اولا على رفع شر الفار ثم اجتهدي في جمع القمح ...
فلو لم يكن في مخزننا فار سارق
فاين قمح اعمالنا طوال اربعين عاما ؟) (ص ١٠٨).

وهو ، لواقعيته الايجابية ، يدعو الى العمل حتى اخر دقيقة ... الى التشبث بالحياة حتى اخر لحظة ...

(... فالرجل الغريق – وهو يكاد يلفظ الروح – ينقض بيده على كل قشة
وهو – لخوفه على حياته – يضرب بيده ورجله لعل احدا ياخذ بيده في هذا الخطر.
والحبيب يعجبه هذا الهياج ، فكفاح اليائس خير من النوم ...
من اجل هذا يا بني قال الرحمن ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[1]
ففي هذا الطريق لا تتوان عن النحت والصقل !
ولا تفرغ لحظة واحدة حتى اخر انفاسك
وكن – حتى اللحظة الاخيرة – نفسا اخيرا يتردد لتكون موضع العناية الالهية
فكل روح – في رجل او امراة – بذلت جهدها
فان اذن مليك الروح وعينه ترقبان ذلك ...) (ص ٢٤٣-٢٤٤).

ان هذا لا يصدر الا عن شاعر اشبع فهما عن كتاب الله ... الانسان بالعمل ... والعمل حتى اخر لحظة ... واذا قامت الساعة وفي يد احدكم فسيلة – يقول رسول الله عليه السلام – فاستطاع ان يغرسها ، فليغرسها ، فله بذلك اجر ... والرومي هو واحد من خريجي مدرسة الرسول عليه السلام هذه ...

---

(١) سورة الرحمن : الآية ٢٩.

(... لو ربطت اثنين او ثلاثة من الطير برباط واحد
بقيت على الارض حبيسة الالم
ولكنها تدير فيما بينها مشورة بالغة الخفاء
يمتزج غموضها بما يخدع من يلحظها !
ولقد كان الرسول يجري مشورته بطريقة مستقرة
فكان يجيب صحابه دون ان يذيع سرا !
انه كان يعلن رايه بكلام اتخذ صورة المثل
حتى يلتبس الامر على الخصم فلا يعرف الراس من القدم
وكان يحصل على جوابه من خصمه
بينما كان الخصم لا يدرك من سؤال الرسول سوى رائحته) (ص ١٧٣).

فهو ليس العمل فحسب ، ولكنه العمل المبرمج المرسوم ... العمل الذي يتوخى الوصول الى الهدف باكبر قد من الضمانات وباقل قدر من التكاليف .. ان الرسول المعلم نفسه ، وهو الذي يستمد من وعد الله المطلق ، يرينا كيف انه بدون برمجة وتخطيط فان جهد بني ادم سوف ينتهي الى لا شيء ... عبث هو العمل الذي لا يعرف من اين ينطلق ، وفي اي طريق يسير ، والى اي هدف يسعى ... لقد كانت حياة الرسول كلها ... من الفها الى يائها ... شاهدا كبيرا على هذا السعي المرسوم ... وهو نبي الله ومبعوثه ... ومن ثم تتساقط دعاوى اولئك المتصوفة الذين انحرفوا عن الطريق ، وادعوا انهم بابتهالاتهم المجردة عن العمل ، وبعملهم المجرد عن الحذر والتخطيط ، قادرون على تحقيق اهدافهم ... وهاهو الرومي ، شاعر الصوفية الاكبر ، كما يسمى ، يرفض هذا التحريف ، ويقتفي خطا معلمه رسول الله (عليه السلام).

وهو من اجل هذا لا يدعو – شأن العديد من المتصوفة – الى تخريب الجسد ، ان هذه الدعوى مرفوضة في قاموس الرومي ... ان الجسد يخرب يوم يخرب من اجل اعادة بنائه لكي يكون اكثر اكتمالا وامضى عملا ، واقدر على خدمة مطالب الروح وتنفيذ اهدافها ... اما ان يخرب الجسم لغرض التخريب فحسب ، ويترك – هكذا – خرائب واطلالا فان الامر مرفوض، ونحن لا نجد في كتاب الله حرفا واحدا مما يقودنا الى القول بان الدنيا قنطرة (فاعبروها ولا تعمروها) ... أو لسنا نقرا ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[1].

---

(١) سورة الاعراف : الآية ٣٢.

(ان حس الدنيا سلم لهذا العالم
واما حس الدين فهو سلم السماء !
فاطلب صحة حس الدنيا من الطبيب
والتمس صحة حس الدين عند الحبيب
وصحة حس الدنيا تجيء من سلامة البدن
واما صحة حس الدين فتاتي من خرابه
فطريق الروح يخرب الجسم ، ولكنه يعود فيعمره بعد هذا التخريب
فهو كمن خرب دارا من اجل كنز الذهب ، ثم زادها عمرا بذلك الكنز ذاته
او كمن قطع الماء وطهر مجرى النهر ، ثم عاد فاجرى ماء الشرب فيه
او كمن هدم القلعة واخذها من الكفار ، ثم اقام على ارضها مائة برج وسد)
(ص ١٠١).

وواقعية الرومي تقودة الى النزول الى قلب الساحة لمجابهة الطغيان ... والكلمة الملتزمة سلاح خطير من اسلحة الميدان ... والذين يؤثرون ان ينسحبوا بكلماتهم من قلب المعركة ، هم كالجند المهزومين ، يخيفهم رعب القتال عن مواصلة الكفاح ... والرومي هو واحد من تلامذه القران ، وقد تعلم منه ان الشعر ان لم يكن مؤمنا ومقاتلا في الوقت نفسه ، فانه سوف يجنح باتجاه السلبية ، والانعزال ... سيغدو هيمانا دائما في وديان الضلال ...

فلابد للشاعر ان يحمل كلماته الى ارض المعركة لكي يقذف بها طواغيت العالم الذين يريدون ان يعبدوا الناس لأنفسهم ، بدلا من الله ، والذين يسترقون لأنفسهم خصائص الالوهية ، ويسعون في الارض فسادا ... وانهم لمهزومون مهما امتد بهم الطريق ، مأخوذون بظلمهم مهما طالت بهم الحياة ...

(... لقد وقع في البئر الذي كان قد حفره ، ذلك لان ظلمه كان مرتدا الى راسه
ان الظلم قد اصبح للظالمين جبا حالك الظلمة ...
وكل من كان اكثر ظلما كانت بئره اكثر هولا !
ان العدل الالهي قد امر باسوا العقاب لاسوا الذنوب
فيا ايها الذي يحفر بئرا من الظلم ! انك لتنصب لنفسك شركا !
فلا تجعل نسيجك حول نفسك كما تفعل دودة الحرير !
انك تحفر البئر لنفسك فاحفرها بقدر
ولا تكن موقنا بان الضعفاء لا معين لهم ، واتل من القران قوله : (اذا جاء نصر الله والفتح)

فلو طلب الامان ضعيف من اهل الارض لثار لنجدته جيش من السماء
وان انت عقرته باسنانك ، وجللته بدمائه ، اصابك وجع الاسنان فماذا انت فاعل ؟..
يا ربنا انزل على هذا العالم الماء الطهور ، حتى تصبح جملة ناره نورا !
ان ماء البحر رهن امرك ، والماء والنار – يا الهي – مما تملك
فان ترد تصبح النار ماء زلالا
وان لم ترد فان الماء ايضا يصبح نارا !!
وهذا الطموح فينا انما هو من ايجادك
والخلاص من الظلم – يا رب – من عطائك ...) (ص ١٩٧-١٩٩).

وهو يدير احدى قصصه الشعرية على صراع بين اسد وارنب ... بين ظالم ومظلوم ... ينتهي بانتصار الاخير

(... لقد اندفع صياد الاسد نحو الوحوش قائلا : ابشروا يا قوم اذ جاء البشير
بشراكم بشراكم ، يا اهل المرح والسرور ! ان كلب الجحيم قد عاد الى الجحيم.
بشراكم بشراكم ، فان قهر الخالق قد اقتلع الانياب من عدو ارواحكم
ان الذي حطم بمخالبه الكثير من الرؤوس ،
قد اكتسحته مكنسة الموت كما تكتسح القذارة ...
وقالت الوحوش : الا فلتحدثنا ايها الارنب كيف دبرت حيلتك ، وكيف سحقت ذلك الشرير بمكرك ؟
حدثنا ، فلعل قصتك تصير علاجا لنا ! وتكلم فلعلها تصبح بلسما لارواحنا
تكلم ، فان ظلم ذلك الظالم اصاب ارواحنا بالاف الجراح !
فقال الارنب : لقد كان هذا بتاييد الله ايها الكبراء ! والا فما شان ارنب في هذه الدنيا؟
لقد وهبني القوة ، وانار قلبي ، ونور القلب قد امد بالقوة يدي وقدمي
وما يجيء الفضل الا من عند الله ، كما ان تبديل الاحوال ايضا ياتي من الحق
والحق يظهر هذا التاييد في ادوار مختلفة لاهل الظن واهل العيان
فتنبه ولا تفرح بملك وقتي ، ولا تدع الحرية يامن انت اسير الزمن الموقت
فكل من نسج ملكه مما هو اعلى من الزمن الموقت ،
قرعت له الطبول فوق الكواكب السبع ...
أيها الكبراء ، لقد قتلنا عدونا الظاهري وبقي عدو امر منه في باطننا) (ص ٢٠٠ -٢٠٢).

والرومي يتخذ من بعض الزعامات التاريخية كفرعون ونمرود وهامان ، رموزا للطاغوت الذي ينزل ظلمه بالناس ! ويقيم السدود بوجه الحق والعدل والخير والمحبة ، ويسلط عليهم من سخرياته ما يشاء ، ويرسمهم بخطوط كاريكاتورية مقنعة تدفع الناس الى النفور منهم والضحك عليهم !! ويعتمدهم مراكز ثقل في الصراع الدائم بين الايمان والكفر ... هنالك حيث تكون العاقبة دوما للايمان ...

ومرارا يعود الرومي في مثنوياته الى فرعون والنمرود وهامان[1]...

(١٠)

والرومي يعتمد كتاب الله وسنة رسوله (عليه السلام) عبر نهر معطياته المتدفق من المنبع حتى المصب ... وهو اعتماد يتحرك على مستويين ... المستوى الاول عام ، شامل يتمثل في هذا الانعكاس الواضح للرؤية الاسلامية بقرانها وسنتها في معطيات الرومي الشعرية ... في روحها ومضامينها وتوجهاتها والتزاماتها ... وهو ما حاولنا ان نسلط الضوء في هذه العجالة على جانب منه فحسب ... واما المستوى الثاني فهو خاص ... محدد ... يتمثل باعتماد ايات واحاديث معينة بالذات ، تارة للاستشهاد الحرفي ، وطورا لاتخاذها (خلفية) يستند اليها في تكوين صورة من الصور او تركيب معنى من المعاني ... وهي تجيء بمثابة شاهد اخر على التزام الرومي ...

والنماذج كثيرة ... وهي منبثة في مثنوياته من اولها الى اخرها ... ويمكن ان نمثل لها بعدد من الشواهد فحسب ، سبق لمترجم الديوان ان اشار اليها في مواضعها ...

(العشق حل في روح الطور ايها العاشق ، فسكر الطور وخر موسى صعقا) (ص ٧٥) اشارة الى قوله تعالى : **﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً ﴾** (سورة الاعراف : الآية ١٤٣).

(فاذا كان الخضر قد خرق السفينة في البحر فقد كان في عمله هذا مائة صواب) (ص ٩٥) اشارة الى قوله تعالى : **﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾**(سورة الكهف : الآية ٧٩).

(والبحر الملح والبحر العذب في هذه الدنيا بينهما برزخ لا يبغيان) (ص ١٠٠) اشارة الى قوله تعالى : **﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾** (سورة الرحمن : الآيتان ١٩-٢٠).

---

(١) انظر كشف الاعلام في الترجمة العربية ص ٦٢٧-٦٣٥.

(وتلك حال العارفين ، دون نوم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾[1] فلا تكن منكرا) (ص ١٠٩-١١٠).

(والظل في قوله تعالى (كيف مد الظل) صورة اولياء الله ، وهذه هي الدليل المنبىء عن نور شمس الله) (ص ١١٣).

اشارة الى قوله تعالى : **﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ... ﴾** (سورة الفرقان : الآية ٤٥).

(فلا تمش في ذلك الوادي دون ان يرشدك هذا الدليل وقل (لا احب الافلين) مثلما قال الخليل) (ص ١١٣).

اشارة الى قوله تعالى : **﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾** (الانعام : الآية ٧٥).

وقوله تعالى : (طهرا بيتي) بيان لطهر الجسد ، فهو كنز النور وان كان سره من التراب) (ص ١١٤).

اشارة الى قوله تعالى : **﴿ ... وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾** (سورة البقرة : الآية ١٢٥).

(فلتخلصوا انفسكم من الحس والاذن والهواجس حتى تسمعوا نداء (ارجعي)) (ص ١٢٧).

اشارة الى قوله تعالى : **﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾** (سورة الفجر : الآيتان ٢٧-٢٨).

(فاقرأ في القران ... فالله تعالى يقول : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ ﴾[2]...

فاذا رمينا بسهم فليس اندفاع السهم منا ، فنحن القوس واما الذي يلقي بالسهم فهو الله) (ص ١٣٢).

(ولما كان الكفار قد جاءوا من جنس سجّين فان سجن الدنيا وافق هواهم ...

واما الانبياء فانهم اذ كانوا من جنس عليين فقد تساموا الى علياء الروح والقلب) (ص ١٣٤).

اشارة الى قوله تعالى : **﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾** (سورة المطففين : الآيتان ٦-٧) وقوله : **﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾** (سورة المطففين : الآيتان ١٧-١٩).

---

(١) سورة الكهف : الآية ١٨.

(٢) سورة الانفال : الآية ١٧.

(واذا كنت تريد خبرا عن ذلك الخروج اليهودي الاخر فاقرا سورة ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾[1] ...) (ص ١٤٢-١٤٣).

(فالطيبون لهم مبراث من الماء الحلو ، وهو المقصود في قوله تعالى (اورثنا الكتاب) (ص ١٤٣).

اشارة الى قوله تعالى : **﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ... ﴾** (سورة فاطر : الآية ٣٢).

(والماء والطين – حينما ارتويا من انفاس عيسى – انبثقت لهما قوادم وخوالف واصبحا طائرا يحلق) (ص ١٥٤).

اشارة الى قوله تعالى : **﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ ... ﴾** (سورة آل عمران : الآية ٤٩).

(وكل من كانت امه الهاوية ، اصبحت له الهاوية زاوية ومسكنا) (ص ١٥٥).

اشارة الى قوله تعالى : **﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۞ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾** (سورة القارعة : الآيتان ٧-١١).

(وعندما قيدت الارواح بامره تعالى (اهبطوا) صارت اسيرة الغضب والحرص والرضى) (ص ١٦٠).

اشارة الى قوله تعالى : **﴿ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... ﴾** (سورة البقرة : الآية ٣٦).

(واذا اشكل الامر عليك وانت تتامل هذه الحقائق ، فانت في شك من قوله تعالى (انشق القمر) (ص ١٧٥).

اشارة الى قوله تعالى : **﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾** (سورة القمر : الآية ١).

(ان أبا البشر آدم ، أمير علم الاسماء ، كان كل عرق من عروقه ينبض بآلاف العلوم) (ص ١٩٠).

اشارة الى قوله تعالى : **﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ... ﴾** (سورة البقرة : الآية ٣١).

(فتاوه قائلا : ربنا ظلمنا انفسنا . يعني ان الظلمة قد حلت ، وضاع الطريق) (ص ١٩٢).

اشارة الى قوله تعالى : **﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾** (سورة الاعراف : الآية ٢٣).

---

(١) انظر سورة البروج : الآيتان ٣-٦.

(ولا تكن موقنا بان الضعفاء لا معين لهم واتل من القران قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾[1] ... ان ذا العطاء قد رعى اصلنا حتى استغلظت اشجارنا واستوت) (ص ٢٠٠).

اشارة الى قوله تعالى : ﴿ ... **وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ** ... ﴾ (سورة الفتح : الآية ٢٩).

(فمحمد حين خلص من النار والدخان ، كان وجه الله في كل ناحية اتجه اليها) (ص ٢٠٤).

اشارة الى قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ** ... ﴾ (سورة البقرة : الآية ١١٥).

(والا فكيف كان الاشفاق منها ، لو لم يكن قلب الجبل قد اصبح دما ؟)(ص ١٥٦).

اشارة الى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا** ... ﴾ (سورة الاحزاب : الآية ٧٢)[2].

وأما أحاديث الرسول (عليه السلام) فهذه بعض شواهدها :

(كان كل منهما سباحا عالما ، فتصلت رحوهما دون رابطة مادية) (ص ٨٠)

اشارة الى قول الرسول (عليه السلام) (الارواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف).

(ولقد سمعت اذني قول الرسول (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) فاخترت هذا بقلبي وروحي) (ص ١٥٨).

اننا عيال الله ، نطلب منه اللبن ، وقد قال الرسول (الخلق عيال الله) .. (ص ١٦٠).

(ولقد قال الرسول : ان من يتمارض يمرض حتى يموت ، كما ينطفىء السراج) (ص ١٧٤).

(ففي كل لحظة لك موت ورجعة ! ولقد قال المصطفى : الدنيا ساعة) (ص ١٨١).

(فاذا ما وضع الحق عليها قدمه من اللامكان ، اصبحت ساكنة بمشيئة الله) (ص ٢٠٣).

---

(١) سورة النصر : الآية ١.

(٢) وانظر الصفحات.

اشارة الى قول الرسول (عليه السلام) : (لا تزال جهنم تقول هل من مزيد ؟ حتى يضع فيها رب العزة قدمه فتقول : قط قط وعزتك).

(لقد قال الله : اني لسانك وعينك ! اني حواسك ورضاك وغضبك !

فاذهب فانك من قلت عنه (بي يسمع وبي يبصر) ...) (ص ٢٥٤).

اشارة الى قول الرسول (عليه السلام) عن ربه سبحانه وتعالى (من عادى لي وليا فقد اذنته بالحرب ، وما تقرب الي عبدي بشيء احب مما افترضت عليه. وما يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها)[1].

(١١)

والان ... دعونا في ختام رحلتنا السريعة هذه على شاطىء بحر (المثنوي) الخضم، ذلك الذي قضى فيه المستشرق المعروف (نيكلسون) خمسة وعشرين عاما !!.. دعونا نغوص معا مرة ومرتين وثلاثا ... لكي نستخرج بعض اللالي ، فنتملاها عن كثب ... بعيدا عن حواجز الاثبات والنقد ... وجدران التحليل والتعليل ...

– ١ –

(... لقد هبط ادم الى الارض للبكاء ، ليكون منتحبا ، نائحا ، حزينا

فهو قد نزل من الفردوس ومن اوج السماء السابعة ،

الى موضع صف النعال ملتمسا العذر

فاذا كنت من ظهر ادم ومن صلبه ، فكن طالبا للعذر ، وكن ايضا من شيعته !

واجعل من نار القلب ودمع العين نقلا

فان البستان لا يتفتح الا بالسحاب والشمس

وما الذي تعرفه عن مذاق ماء المدامع ؟

وما انت الا عاشق للخبز كالعميان ؟

فلو انك اخليت هذه الجعبة من الخبز لجعلتها مليئة بجواهر الجلال

فلتفطم طفل روضك عن لبن الشيطان ، ثم اجعلها – بعد ذلك – رفيقة الملائكة ...

ان اللقمة التي تزيد النور والكمال هي تلك التي تنال من الكسب الحلال

---

(١) وانظر الصفحات.

اما الزيت الذي يجيء فيطفىء سراجنا ، فسمه ماء ما دام يطفىء السراج
فمن اللقمة الحلال يتولد العلم والحكمة
ومن اللقمة الحلال ينبعث العشق والرقة ...
وهل زرعت – قط – قمحا فاثمر لك شعيرا ؟..
ان اللقمة هي البذرة والافكار ثمرتها ، اللقمة هي البحر والافكار جوهرها
ان اللقمة الحلال في الفم يتولد منها الميل للعبادة ،
والعزم على الذهاب الى ذلك العالم !)[1]

– ٢ –

(... في استعدادنا للرحيل ، لسنا شيئا قط بدون عناية الله ...
فيا الهي ! يا من فضلك مجيب الحاجات !
انه لا يجوز ذكر احد الى جانبك
لقد وهبتنا هذا القدر من الهداية ، وسترت الكثير من عيوبنا حتى هذه اللحظة
فاجعل قطرة العلم التي منحتنا اياها تتصل ببحارك !
ان في روحي قطرة من العلم فخلصنا من الهوى ومن تراب الجسد !
وذلك قبل ان يخسفها هذا التراب ، وقبل ان تنسفها هذه الاهواء
وان كنت انت القادر على ان تاخذها وتخلصها من التراب والهواء حين نسفها
فالقطرة التي تقع في الهواء ، او تسقط على التراب ، متى هربت من خزانة قدرتك؟
واذا وقعت في العدم ، او في مائة عدم ، فانها تجعل راسها قدما حين تدعوها
والاف الاضداد يقتل بعضها بعضا ، ولكن حكمك يبعثها من جديد
ففي كل لحظة – يا رب – قافلة وراءها قافلة ، تسير من العدم الى الوجود !
أو ليست جملة الافكار والعقول تصير كل ليلة غرقى في بحر عميق ؟
أو ليست هذه الملكات الإلهية ترفع كالاسماك رؤوسها في وقت الصباح ؟
وفي الخريف تذهب الاف الاغصان والاوراق منهزمة الى بحار الموت !
بينما الغراب يرتدي السواد كالحزين ، وينوح على الخضرة في البستان
وثانية يجيء الامر من سيد الارض فيقول للعدم :
رد ما اكلت ايها الموت الاسود ، رد ما اكلت من زرع واعشاب وورق وحشائش
فيا اخي ! اجعل عقلك معك لحظة واحدة !

---

(١) ص .

ان بك في كل لحظة خريفا وربيعا !
وانظر بستان قلبك اخضر ريان نضرا
حافلا ببراعم الورد والسرو والياسمين !
قد احتجبت فيه الغصون وراء ما تكاثر من ورق
واستتر السهل والقصر وراء ما كساه من ازهار
وهذا الكلام المنبعث من العقل الكلي
ان هو الا شذى هذا البستان والسرو والسنبل
وهل تنسمت قط شذى الورد في مكان خلا من الورد ؟
ام هل رايت فورة الخمر حيث لا خمر ؟
والشذى هو دليلك وقائدك الذي يمضي بك الى الخلد والكوثر
والشذى دواء للعين يمنحها النور
وقد تفتحت عينا يعقوب حين تنسم شذى يوسف
فان انت لم تكن يوسف فكن يعقوب ، وكن مثله اليفا للبكاء والشجن
ولا يكن منك سوى ضراعة يعقوب واهاته ! فاجعل نفسك ميتا بالضراعة والفقر !
حتى يبعثك من الموت نفس عيسى ، ويجعلك مثله مباركا سعيدا !
والا فكيف يغدو الحجر الصلد اخضر من الربيع ؟
الا فلتكن ترابا حتى تنبت الورد مختلف الالوان
لقد ظللت السنين الطوال حجرا يجرح القلب ،
فجرب لحظة واحدة ان تكون ترابا !)[1]

– ٣ –

(اسمعت انه كان في عهد عمر ، عازف للصنج مطرب بارع ؟
كان البلبل يغدو ثملا بصوته
وكانت انفاسه تزين المجالس والمجامع ، وكان غناؤه يقيم القيامة !
لقد كان مثل اسرافيل الذي يرجع صوته الارواح الى اجساد الموتى
او كان مثل رسائل اسرافيل ، ينبت بسماعها جناحان للفيل !
ولسوف يصبح اسرافيل ذات يوم صيحة تهب الروح لمن تحلل جسمه مائة عام !
والانبياء ايضا انغام في باطنهم بها للطالبين حياة لا تقدر بثمن

---

(١) ص .

وليست اذن الحس تسمع هذه الانغام ...
ان انغام باطن الاولياء تبادر بقولها : يا اجزاء النفي والعدم !
تنبهوا وارفعوا رؤوسكم من (لا) النفي
واخرجوا بها من هذا الخيال والوهم !
وانتم ايها المنحلون في عالم الكون والفساد
ان ارواحكم الباقية لا تنمو ولا تولد
ولو انني شدوت بطرف من هذه الانغام
لرفعت الارواح روحها من القبور
فلتجعل اذنك قريبة منها ، فليست ببعيدة عنك ،
ولكني لم يؤذن لي بنقلها اليك
وتنبه ! فان الاولياء هم اسرافيل الزمن الحاضر ،
فمنهم للموتى حياة وانتعاش !
فالارواح الميتة في قبور الاجساد تقفز من اكفانها مستجيبة لندائهم !
وتقول : ان هذا النداء مختلف عن جميع النداءات !
ان البعث لهو فعل نداء الله !
لقد متنا وتحلل كياننا كله ، وجاء نداء الحق فنهضنا جميعا ...
فيا من قلوبهم تحت جلودهم متحللة بالفناء !
عودوا من العدم بنداء الحبيب)[1].

– ٤ –

(لقد قال الرسول : ان نفحات الحق تتسابق في هذه الايام
فانصتوا وتنبهوا لهذه الاوقات ، واغنموا مثل هذه النفحات !
لقد جاءت نفحة ، وتطلعت اليكم ومضت
لقد وهبت الروح لكل من ارادت ثم تولت
وجاءت نفحة اخرى فتنبه لها حتى لا تتخلف عن تلك ايضا ايها الرفيق !
ان النفس النارية وجدت فيها ما يطفىء نارها
كما احست منها الروح الميتة بالحركة تدب فيها
وهذه الحركة انما هي نضارة شجرة طوبى واهتزازها ...

---

(١) ص .

فهذه النفحة لو وقعت في الارض والسماء لانصهرت مرائرهما في الحال رعبا !
وذلك من خوف هذه النفس الذي لا نهاية له الا فلتقرا قوله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾[1].

والا فكيف كان الاشفاق منها لو لم يكن قلب الجبل قد اصبح دما ؟
وبالامس مدت لي هذه النفحة يدها ، في صورة اخرى
فعرضت لي بضع لقم سدت امامي الطريق ...
فوخز الاشواك انما هو من اجل لقمة
الا فلتخرجوا الشوك من كف لقمان ...
أيها الجمل ! ان فوق ظهرك حملا من الورد
ومن نسيمه قد نبت فيك مائة بستان !
ولكن ميلك متجه للشوك والرمان ،
فاي ورد ستجنيه من شوك الرمال ؟
فيا من طوفت من درب الى درب وراء هذا الطلب
الأم تقول : اين هذا البستان اين ؟
فما دمت لم تخرج من قدمك هذه الشوكة فابصارك مظلم ، فكيف تتجول ؟
ان الانسان الذي لا تسعه الدنيا ، يحجبها عنه سن شوكة !
ولقد جاء المصطفى ليضع الوفاق ...)[2].

---

(١) سورة الاحزاب :٧١.

(٢) ص .

قراءة في شعر الحسناوي

(١)

ما دام الفنان المسلم يكتب (شعرا) فهو لا يقف في مكان واحد ... وهو بهذا يمنحنا (الشاهد) على ان الالتزام في الشعر الاسلامي ليس رتابة ، ونمطية ، وسكونا ... ولكنه تنوع وابداع وحركة دائمة في الزمان والمكان ... على السطح وفي الاعماق ...

ان النهر واحد ... وماءه واحد ... والقانون الذي يسيره واحد ... لكنه بين المنبع والمصب ، يلتوي ويستقيم ... يموج وينساب ... يرقص ويحزن ... يضحك ويبكي ... يطوف مدنا اهلة ويجتاز صحار وقفارا ... يسعد ويرتاح في احضان الروابي الخضراء ، ويشقى ويتعذب وهو ينزلق في الاراضي البور ... يبرد ويكتوي بالنار.

كلنا يعرف (حياة) الانهار ... في مذكراتها ألف حزن وفرح ... في رحيلها يتعاقب الليل والنهار ...

ان الشعر الاسلامي الملتزم ... هو واحد من هذه الانهار ...

(٢)

ليست (نقدا) ... ولكنها (قراءة) في شعر (الحسناوي) ... امامي الان اثنان من دواوينه (في غيابة الجب)[١] و (ملحمة النور)[٢]. انه على مستوى الشكل يعتمد كافة الصيغ المعروفة في هندسة الشعر ... ما يسمى بالعمودي وما يعرف بالحر ... وما يمتد جسرا بين هذا وذاك ... والرجل لا يتردد في الافادة منها جميعا. ليس ثمة داع للتردد ... والجدل القديم الجديد بين انصار لهذه الصيغة وطلاب لتلك ... الجدل الذي تفاقم خطبه في بعض لحظات التوتر والانفعال فجاوز عالم النقد الى حلبة الملاكمة ... ما كان له ان يكون ... فالشاعر الجيد ، يبني بهذه المادة او تلك ، ويعتمد هذا المخطط الهندسي او ذاك ... ان القصيدة شخصية عميقة الغور ، متشابكة العلائق ، معقدة التكوين ... وليس من الانصاف ان نحكم عليها من لون بشرتها وسواد عينيها !!

---

(١) مكتبة الاقصى ، عمان.

(٢) دار القلم ، دمشق – ١٩٧٤.

ان لون البشرة وسواد العيون ، مدخل ، الى التركيب السايكولوجي للقصيدة ... مدخل فحسب ... ولكن ما يكمن وراء المداخل والابواب شيء يستعصي على الحكم السريع ...

(٣)

مهما بكم من امر ... فالرجل في (غيابة الجب) يكتب شعرا حرا ... (تعال) ، ذلك هو عنوان المقطع الاول :

(ابي لم يكن بنبي
ولم ادع يوما بيوسف
ولا طرفت مقلتي سجدة النيرين ولكن (جران ... جران ... جران ...)
ذئاب عوت في شرايين حلمي
– من الطارقون ؟ ...
وفي لحظات الديوان الاخيرة نسمع
(ناطحة السحاب احجار على احجار
وما سقى النبات والحيوان والانسان
من سالف الزمان
الى الابد
يحصده رمان
مزدهر في الملحق الخلفي من جمجمة البشر
في البدء كانت الكره
وكانت الافلاك والتاريخ اصداء الكره
ومثلما تفتتح الحكاية
تنتحر الحكاية ...)

وبين البدء والنهاية ، بين الطرق على الباب وانتحار الحكاية ، يحدثنا الحسناوي عن واحدة من تجاربه ، محفور عنوانها على غلاف الديوان ، حديثا يتدفق حرارة وعفوية وجمالا ... ماذا آخذ وماذا ادع ؟!

ليس بمقدوري على اية حال ان انقل للقارىء القصيدة كلها ... القصيدة التي تحمل شخصيتها المتميزة ، المتماسكة ، الواضحة ... من البدء حتى المنتهى ... الكلمات والتعابير والاجواء الموسيقية والمعطيات ... ولكن اذا كان لابد من شاهد فلابد من (جريمة) الاقتطاع ... (اذا كان) ، تحت هذا العنوان نستمع :

(اذا كان حزبي الربيع
وكان الد خصومي الصقيع
اذا كان سيفي الغناء
وشطر صلاتي السماء
ونصحي وشتمي حداء ...
اذا جار غيري وغيري اشتكى
اذا غصن عند بابي اتكى
ومثل مآفي السماء بكى
اذا انا لم احرق الياسمين
ولم اطا النعل في الواطئين
اذا بليت كالرذائل افئدة الاخرين
اذا انتحرت روحهم من قديم
ومذ نبتت في البطون
اذا نصبوا للهواء الكمين
اذا صلبوه وطار
نسيما طليقا
عليلا رشيقا
كما ارتعشت لغة العاشقين
اذا سرقوا الانجم الذهبية
اذا هربت منهم الانجم الذهبية
تهيم كوالهة امويه
تسائل عن (طارق) و (زياد)
عن الوثبات الوراء
تفتش عن جبهة عربيه
فما الذنب ذنبي ...)
وفي (قتيل الليل) نقرا :
(صحوت ... الليل قتيل سملت عيناه حيا
مد ذراعيه صقيعا في يديا
صمت مشوب كرسول العاصفه

قعقع رعدها وما اسمع
متى ، متى السكون ،
يقلقني
يستلني من كهف اهل الكهف ؟
نامة صوت ايقظتني ؟
قرعة باب ؟
لا .. خسء الوهم وتعسا للسرير
اضلاعه اوهن من ضلعي الكسير
جداري الاملس اصداء قرار
مات القرار !

***

ماذا وبعد الثانية !
ماذا ؟ ايكذب الجرس ؟
وهذه الازات تغتال الغلس
تخشخش القتيل
ويلاه ! ليتني القتيل ، ليتني السرير
ويلاه ! عادت الجنود
الواد عاد
العفن القديم والسياط والجلاد
العربات السود
الكهرباء في المغاور
أما ارتويت أيها الزمن
من دمي البديد ؟!
انشق ايها الجدار !
طر بي ولو الى الجحيم
دعني امر
لن يزعجوك مثلهم انت
عفوا لانت خير
دعني امر ايها الصديق

دعني اخا الالم
دعني امر ...)
وفي (لا تسحروا الابصار) نقرأ :
(... ايتها الظنون :
نحن صدقنا شعبنا ، فلا تصدقينا
لأجل كل حبة من قمحنا
لأجل كل زهرة من روضنا
كوني كما ترجو النساء
كوني كما ادعى الدجال
وكذبينا ...)

(٤)

شعر ... اليس كذلك ؟ ولا يهم بعد هذا ان يكون شكله قديما او حديثا ... ان يؤطره الامتداد العمودي الرصين ، او ينطلق حرا من العمود ، مفروشة تفاعيله بحيوية ورشاقة ما دامت لا تتمرد على رحمها العربي وتكسر تقاليد الهندسة الشعرية التي صنعتها عشرات القرون من الجهد والعناء ...

والقصيدة تتابع المجرى الزمني للحدث ، دقيقة بدقيقة ولحظة بلحظة ... قصة واحد من مئات يجد نفسه مسوقا الى رحلة في غيابة الجب ... كما دفع اخوة يوسف اخاهم من قبل ، وقالوا لأبيهم : اكله الذئب.

وبين الحين والحين يخترق الشاعر مقولة الزمن والمكان ... لكي يبعد في التاريخ:
(ظلام ... ظلام ... وجدراننا لا ترام).
كاسوار (بابل)
كجبال (عاد)
وابوابنا – رحم الله اسكندرا ذا القرون –
ظلام ... ظلام ...)
لكي يبعد – كذلك – في تاريخه الخاص :
(تذكرت شيئا بجيبي
مددت اليه يدي
افتش عنه وعن امسي المبعد
لعلي اشم نسيم الفضاء

عبير الحدائق

غبار المدارس

لعلي اعود ولو بالخيال

الى ذلك العالم المبعد ...)

لكي يرتاح الى الطبيعة قليلا :

(توحدت روحا وجسما

كما اعتنق الكون جرما فجرما

كما ابتسم الروض كما وزهره

ولم تنشطر فيه ذره ...)

لكي يغوص الى الاعماق بحثا عن الحرية :

انعشني الهواء

ذكرني حريتي

عارية ، ناجية بجلدها

وحيدة تنعم بالسكينه

بالكلمة العذراء

هاربة من اعين الجريمه

حيث مدى الجريمه

تطوف في الافاق في الاحداق

تقتحم البيوت

تكمن للوسواس

حيث مدى الجريمه

تمسخني والناس كالبهيمه

ما اعطر الاحساس بالهواء !! ...)

وما يلبث ان يعود الى المجرى الزمني الذي اختاره للتجربة :

(ودبت الايام

كسيحة الاقدام

دبيب انمال على انمال ...)

وكان بمقدوره ان يقلب الزمان والمكان راسا على عقب ... ان يبدا من لحظة الحرية وينتهي الى غيابة الجب ... ان يدمر التسلسل المعقول للحدث ، ما دام ان الحدث نفسه

(غير معقول) .. وما دام ان زماننا نفسه مقلوب راسا على عقب !! نبدأ بالحرية وننتهي الى الجب ... ولكن ... من يدري ؟ لعلها نبوءة ... لعلها تلميح بالذي سياتي ...

ان المصير لا يتشكل عبثا ... انه يتخلق في رحم التجربة ... وبدونها فليس ثمة مصير

(من جبنا
من حقدنا
من الف الف مخلب في كفنا
سننقب الجدران
سنملا الاسواق
ونفجا النخاس والقرصان ...)

(٥)

تستمد القصيدة دفئها وعذوبتها من صدقها الفني : تعبير متدفق عن تجربة حارة تتراوح نغماتها الوجدانية بين النبرة الحزينة والفرح الطاغي ، بين التامل الرزين والثورة الجارفة ... وتنتقل في لمساتها جزئيات التجربة وكلياتها فهي تقترب من التفاصيل حتى تكاد تلتصق بها ، وتلح احيانا في الاقتراب فتغدو (عرضا) مباشرا ... وتبعد حينا اخر لكي تنتزع من الاشياء اليومية ، الاشياء الصغيرة المبعثرة ، معنى عاما او هدفا شاملا.

من هذا التناغم بين الثنائيات ... من هذا الحوار المتقابل ، تستمد القصيدة ملحها العذب ، وموسيقيتها فلا يمل القارىء ولا تبرد استجابته ...

يقول في (بني) :

(مهما يكن فسوف تدرك الحقيقة
ستذكر الاب الذي تعشق الحقيقة
والكلمة الحمامة الطليقة
تعشق الاطفال والجيران والحديقة
وسار ... سار في قطار لا يعود
لا تبتئس ان اوردوك يا بني موردي

فدربنا الشمس ، ودرب الشمس لحن ابدي ...) وفي المقطع الاخير من (هل الكرات قدري ؟) يقول :

(من عامي السابع في فمي كره

أبي طريد الانتداب
عامين ... دهرين ... يعاني الاغتراب
ونحن في مفاصل الابواب
لم نزرع الكمون في حياتنا ولا اتجرنا به
لكننا كنا وما زلنا ملوك الملح والكمون ...)

(٦)

ثمة ماخذ يمس التركيب الموسيقي للقصيدة ... ان الحسناوي يترك بعض القوافي معلقة، مفردة ، ونبحث دونها عن جرس يجاوبها ويناغيها ، فلا نجده ، وتبقى القافية مفردة ، معلقة ، يتيمة.

وهذا مثل من عديد ، ويستطيع القارىء ان يعثر على امثلة اخرى فيما اوردناه من مقاطع ، وفي مساحات الديوان كله ...

(من جبنا
من حقدنا
من الف الف مخلب في كفنا ...).
(سننقب الجدران
سنملا الاسواق
ونفجا النخاس والقرصان ...)

وها هي النون الساكنة في (الجدران) تناغيها شقيقتها في (القرصان) ومن ثم تجد الضربة الموسيقية صداها ، بعد فاصل قصير ، فترتاح لها الاذن والاعصاب. اما القاف الساكنة في (الاسواق) قتبقى معلقة ، وحيدة ، تبحث عن شقيقة لها تجيب نداءها فلا تعثر عليها ... وكان احرى – بعد فاصل اخر – ان نلتقي بالمطلوب ... انها – اذا استخدمنا مصطلحات المقام الموسيقية – جواب بلا قرار ...

ويطمح القارىء ، في طبعة جديدة للديوان ، ان يعثر على القرار ...

(٧)

وها هو ذا في (ملحمة النور) يتجاوز اللحظات الراهنة قليلا ، ويوغل في التاريخ ، لكن (العصر) ما يلبث ان يناديه فيعود اليه ثانية ... ومن اجل ان ترتبط حبات الملحمة في

خيط واحد ، يسمي وجهها التاريخي بالفجر الاول ، ويسمي وجهها المعاصر بالفجر الرابع عشر ، ويختار لكل وجه بعض لحظاته المكثفة ، او بعض شخوصه الملهمة ... وهو في كلتا الحالتين يعرف بحاسته الفنية كيف يقع على الموقف الدراماتيكي لكي يصوغه شعرا يرفد به ملحمة النور فتزداد تالقا وكهرباء ...

الاسراء والمعراج ، ويوم بدر ... لحظتان من اشد اللحظات كثافة وتوترا تاريخيا في عمر رسولنا العظيم عليه السلام ... صانع فجرنا الاول ... وكل فجر ...

عبد الله بن أم مكتوم ... سراقة بن مالك ... ابو خثيمة ... وكعب بن مالك ... اربعة شخوص يتمثل عنصر الصراع الدرامي في تجربة كل واحد منهم : على مستوى الشخصية او على مستوى الحركة التاريخية نفسها ...

هذه هي مرتكزات الملحمة في فجرها الاول ... وانه لاختيار جيد ، رغم ان التجربة الاسلامية يومها تضمنت عشرات ، بل مئات غيرها من اللحظات والشخوص التي صنعت الملحمة ... لكن الفنان ليس مكلفا بان يغطي مساحة التجربة بعطائه ، تلك مهمة المؤرخ ... ومع ذلك !! فما دام الحسناوي قد اختار ان يكون ديوانه (الصغير) هذا (ملحمة) والملحمة قصيدة قصصية طويلة النفس ، كما هو معروف ، فانه كان يتوجب عليه تنفيذ مطاليب المصطلح الفني ، او تغيير العنوان للخروج من الورطة ، كأن يغدو مثلا (مواقف في ملحمة النور) او (قصائد من ملحمة النور) ...

إلا أنه بدلا من هذا وذاك ، يحاول في مقدمة مجموعته ان يبرر موقفه ... يقول (على الرغم من اهمية التعريف في الفنون لا ارى التقيد به او الخضوع له لاكثر من سبب. اولا: دور المصطلحات والتعريفات في الفن غير دورها في العلم. ثانيا : التعريفات في الفن ، كتعريف الملحمة ، يتناولها التطور والتحوير. ثالثا : التعريفات بنت النقد والنقد تابع للابداع لا سابق له. رابعا : تعريفات الملحمة مستوردة من ادب الغرب ولكل ادب ، ان لم اقل لكل اديب ، مزاياه ... وهذه المجموعة الشعرية قصائد يغلب عليها الطابع القصصي وتنتسب الى موضوع عام ، الموضوع منظور اليه في مرحلتين تاريخيتين ...).

معك يا حسناوي ... فالقصائد التي تنبثق عن تجربة محددة الزمان والمكان ، وتلتزم تقنيتها القصصية ، يمكن ان تعتبر في نهاية التحليل قصيدة واحدة ... ملحمة بعبارة اخرى ...

لكن ... الم يكن يتوجب عليك في هذه الحالة ان تمد في مساحات قصائدك .. وبصراحة ... ان تزيد المواقف عددا لكي تغطي قدرا اكبر من لحظات التجربة ، فيزداد العرض تواصلا وتماسكا وبالتالي اقناعا فنيا للقارىء الذي يتعامل مع (ملحمة) وليس مع (مجموعة) شعرية ؟

الـنفس الطويـل ... ولا يهمنـا بعـد هـذا ان تكـون الملحمـة قصـيدة واحـدة ام قصـائد عددا ... ومن يدري ... فلعل الحسناوي يرجع الى التجربة العظيمة مرة ثانية وثالثة لكي يصنع منها ملاحم شعرية اخرى ... فالمنجم عميق ، واحجاره الكريمة مغرية حقا ... وهي تتلالا في ذلك المكان البعيد ...

واظننا – بعد هذا – مشوقون لان نسمع شيئا مما قاله الرجل مرتحلا الى الفجر الاول ، وسوف نضطر هاهنا ايضا الى (الاقتطاع) ، فلا مفر منه امام مجال ضيق كهذا ...

في (الاسراء والمعراج) يتخذ الحسناوي من (البراق) ، ذلك المخلوق المعجز الذي نقل رسولنا عليه السلام الى القدس وعرج به الى السماء ، مركز ثقل فني لكي يتابع من خلاله الرحلة الفذة :

حـط البـراق علـى ثـرى البطحـاء والليـل يضـرب خيمـة الظلمـاء

حـط البـراق علـى بسـاط جهالـة سـوداء قـد اغفـت علـى شـحناء

يعرض للأزمة التاريخية التي كانت مكة ، والعالم كله بالتالي ، تعانيها في عصر الاصنام والاوثان ... وظهور الاسلام ... وتحدي رسوله العظيم لقيم العصر ومواضعاته ... الصراع غير المتكافىء بين الصوت الجديد والزعامات العتيقة ...

وبعد سني العذاب الاولى ان الاوان لتكريم النبي الذي حمل على كتفيه هموم العالم وما اعياه الكفاح :

فلترتفـع قـدماه فـوق رؤوسـهم بعـد الهـوان وشـدة الايـذاء

يسرى به الى القدس ... ثم يعرج به الى السماء ... والف مغزى ومغزى يكمن هناك ...

صـعدا ابـا الزهـرة فـوق ظلامهـم واهنـا فـدربك طـافح الاضـواء

هـذي النجـوم الزهـر جئنـك سـمرا فاسـحب علـى السـمار ذيـل عفـاء

واعـرج فطـف بالانبيـاء فعنـدهم نصـح الهـداة وخبـرة الحكمـاء

صـعدا ابـا الزهـرة حتـى المنتهـى مـن سـدرة وجلالـة وبهـاء

واسـجد لربـك شـاكرا الاءه واسـال لتعطـى غايـة الاشـياء

وليس ثمة غاية وراء هذه الرحلة الكونية التي كرم الله بها نبيه ومسح على قلبه المكروب ...

وتكاد تكون قصيدة (عبد الله بن ام مكتوم) الصحابي الاعمى الذي دخل على الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمشركون لديه يفاوضونه ايام الدعوة الاولى ، فانشغل بهم الرسول عنه لحسم الخلاف معهم ، فعاتب الله رسوله على ذلك في (عبس وتولى) ، ثم كان من هذا

الصحابي ما كان ... تكاد تكون من ابدع قصائد الملحمة في بنائها الفني وقافيتها السينية الجميلة التي تذكرنا بسينية البحتري ورائعته التي يصف بها طاق كسرى ورسومه الجدارية وكانه يخرج بريشة كلماته مسرحية حية شاخصة للعيان ...

يبدأ الحسناوي ، هنا كذلك ، بفرش الارضية التاريخية التي ظهر الاسلام فيها ... الارضية التي تتحرك على اديمها حشود من الجهالات والخرافات ، وتعتصر ماءها جموع من الزعامات والكهانات ويلفها ظلام (جاهلي) عميق ..

في انحسار من الحضارات نحس وكسوف من كل فكر وشمس
وانكباب على التراب ... مهين وانسلاخ من السماوات نكس
واعتساف على الموازين باغ وانـدفاع مع الخرافة شرس

يطلع الفجر الجديد ... وثمة لمسات خاطفة بفرشاة الشعر لملامح صانع هذا الفجر ... ثم :

ها هم المرجفون جاءوا اليه يتلاحون بعد بغي وشكس
خمسة من طغاة مكة اعما م واشراف ، يا لعزة خمس

ويتمنى الرسول (عليه السلام) ان لو يأوي هؤلاء الى الدين الجديد فتكون له بهم قوة ...

... حلم راق للنبي طويلا ... وهو في لجة الخيال المنسي
واذا طارق يلوح على البا ب ملحا على اغتراف وقبس

وتبدأ ، من ثم ، قضية ابن ام مكتوم ... علامة شرف في فجر الملحمة ... ونقطة ضوء شفيف ...

... مقبلا يرسل السؤال عريضا فيغطي هديره كل جرس
يا ابا القاسم المفدى اغثني بعطاء السماء ، قد طال حبسي
ضمني ، ضمني لركبك اني مؤمن . يافداك قومي ونفسي

كان الرسول (عليه السلام) مشدودا الى الامنية الكبيرة : واحد او اكثر من الزعماء الخمسة ينتمي للدعوة الجديدة فيكون لها بهم قوة ... فمن تراه يكون ابن ام مكتوم هذا ؟!

من تراه يكون والسادة الخمـ ـسة اعلام في قريش وقيس ؟
من تراه إذا العقيدة شاءت كسب ود الخصوم ساعة باس ؟

لكن الله ... سبحانه وتعالى ... له حكم آخر ... وان نزول المقاطع الاولى من سورة (عبس) في هذا الموقف ... تعاتب الرسول (عليه السلام) ، وتضع الموازين القسط ، ليكفي وحده ليقول الناس : حاشا لهذا الدين ان يصنعه انسان !!

النبـــــوات – يـــــا محمد – ميـــــزا ... ن السـماء الاغـر ، فاصـدع بفـاس

واحطـــم الشـــرك والجبـــابر حطمـــا ... واطمـــس البغـــي كلـــه ، اي طمـــس

... كيـف تسـلو ابـن مكتـوم الفـــ ... ذ بخمـــس مـــن الخفـــافيش يـــبس

ان فـــردا عنـــد الالـــه صـــدوقا ... لهـو خيـر مـن الـف جيـل وجـنس

وينتهي العرض الاول للموقف التاريخي باعلان انتصار الموازين الجديدة التي جاء الاسلام لكي يعمل بها في العالم.

... المـــــوازين بالعقيـــــدة تعلـــــو ... والطواغيـــــت لانخفـــــاض ودعـــــس

في المقطع الثاني من القصيدة تتغير الموسيقى باعتماد تفعيلة اخرى اكثر خفة ، كما تحل النون محل السين قافية لها ... ويشعر القارىء بارتياح نفسي لهذه النقلة الفنية ...

شتان بين قبائل الانسان

هذا امرؤ هاد وذا شسطاني

شتان بين الروح والريحان

وممرغ في الوحل للاذقان ...

على مستوى المضمون يتناول هذا المقطع الكثير من الجوانب التي شهدناها في المقطع الاول ويضيف عليها امتدادا زمنيا يصل بنا الى مرحلة (الفتوحات) حيث لعب ابن ام مكتوم دوره ... واحد من الاف المقاتلين الذين بعثهم الاسلام لتغيير العالم ...

... فليمض (عبد الله) حتى القادسـ ... يـة ، ولـيكن فـي حومـة الميـدان

... لا الليـل يوحشـه ولا نقـع الغبـا ... ر يكـــف رايتـــه عـــن الخفقـــان

هـذا الـذي قـد عـاين الفـردوس عـن ... كثـــب ومـــا قعـــدت بـــه عينـــان

ففي موازين الدين الجديد يبصر الانسان بروحه لا بعينيه ، وما لم تقد العينان صاحبهما الى حقيقة الايمان ، فليس ثمة نفع يرتجى منهما ... وبهذه الضربة تختتم القصيدة :

لا العين والعينان نافعتان

ما لم يكن في النفس مصباحان

لا العين والعينان نافعتان ...

ما لم يميزا جوهر الايمان ...

(٨)

ايهـــا الخـــابطون عبـــر الـــدروب انظرونـــــي اخبـــركم بالعجيـــب

انظرونـــي لا رابكـــم حـــد ســـيفي واجتيـــاحي الكثيـــب بعـــد الكثيـــب

من هذا المنادى الذي يعبر الصحراء مسرعا ... والى اين ؟

انمـــا اســـمي ســـراقة ان ســـالتم مـــن بنـــي جعشـــم حمـــاة الغريـــب

انه اذن (سراقة بن مالك) : صحابي كان مشركا حين لحق بالرسول (عليه السلام) أيام الهجرة القاسية طمعا بجائزة قريش ... فيعده الرسول في تلك اللحظة المظلمة بسوار كسرى!! وميزة القصيدة تبدو في النقلة الزمنية السريعة بين تلك اللحظة المظلمة ولحظة الانتصار الكبير.

ايـــن عينـــاك يـــا ســـراقة لمـــا فـــتح الله مقفـــلات الشـــعوب ؟

دكـــت (الله اكبـــر) الظلـــم دكـــا وتمشـــى الضـــعيف غيـــر هيـــوب

... لـو تـرى الفـاتحين عبـر الصحاري ينثـرون الغنـى وعبـر الـدروب ...

ونتجاوز قصيدتي (يوم بدر) و(ابو خيثمة) فهما ليستا شعرا ولكنهما صنعة لفظية جيدة ... تعانيان – اذا صح التعبير – من فقر الدم ، من هبوط النفس الشعري ... نتجاوزهما الى (كعب بن مالك) : احد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك – على غير عادته – وعانى من نهي الرسول (عليه السلام) عن كلامه ، من المقاطعة القاسية ، ولما جاءه كتاب امير غسان يغريه بالردة احرقه وقال : وهذا ايضا من البلاء ... حتى تاب الله عليه ...

نختار – من القصيدة – موقفه ازاء لحظة الاغراء الصعب ... امير غسان يتسلل من الثغرة ، ويعرض عليه ان يلحق به لكي يغمره فضة وذهبا ... تماما كما تسلل امبراطور الروم ، فيما بعد ، من الثغرة التي فتحتها صفعة ابن الخطاب في كبرياء (جبلة بن الايهم) ، امير غسان ، ردا على اهانته لفرد عادي من جماهير الناس ، فليس في الاسلام – اذا اردنا الحق – فرد عادي واخر ممتاز !!

يومها ... استجاب جبلة للاغراء وغادر ارض الاسلام الى بيزنطة ، ليس هذا فحسب بل انه غادر دينه الجديد الى النصرانية طمعا في اغراء الجاه والدنانير ... لكن ... اذا كان جبلة قد تربى في مناخ امبراطوري بطران ، فان كعبا قد عايش مناخ النبوة الصابر ... المحتسب ... وشتان ... وها هو ذا امام اللحظة الصعبة :

يـــا نبطـــي اعـــرض عنـــي فهـــل بلـــغ بـــي مـــا يشـــتهي اعـــدائي ؟

كتـــاب مـــولاك يقـــول انـــه اتـــاه مـــا القـــى مـــن الجفـــاء

الحـــق بنـــا نواســـك ابـــن مالـــك بئســـت مواســـاة علـــى الباســـاء

كعـــب يواســـيه عـــدو مشـــرك ... مـــا ابعـــد الارض عـــن الســـماء

انظـــر كتابـــه الحريـــري كعجـــ ... ـل (الســـامري فتنـــة الاهـــواء

لاحرقنـــه كمـــا احرقـــت جـــا ... هليتـــي فـــي عصـــفة ازدراء

امـــا جفـــاء اخـــوتي امـــا انتظـــا ... ـر (المصـــطفى) مشـــيئة القضـــاء

فهذه صواعق البلاء !!

ونلتقي به في لحظة اخرى ... وهو يدعو الله ان يكشف عنه البلاء ... ما ارطبه من نداء !! لنكاد نشم معه رائحة الفجر البليل ... ونرى دمعتين تنحدران من عينيه ... ام تراهما تظلان عبر الموقف كله معلقتين هناك ؟!

ربـاه يـا غفـار ، يـا رحـيم ، يـا ... مصـــرف الاصـــباح والامســـاء

يـا قابـل التـوب ويـا منـزل الـ ... ـغيـث علـى ظـوامىء البيـداء

يـا كاشـف الغـم ويـا مشـتت الـ ... ـليـل بنـور فجـرك الوضـاء

كعـب يناديـك علـى (سـلع) وحيـ ... ـدا ، ضـارعا ، فـي خيمـة العـراء

خمسـون ليلـة مضـت والنهـي مـا ... زال يشـد احبـل العنـاء

اذا لقيـت (المصـطفى) مسـلما ... لـم ادر ان رد علـى دعـائي

وان لقيـت المسـلمين اعرضـوا ... اعـراض ملـدوغ عـن الحربـاء

عفـوت عـن (ادمنـا) لمـا عصـى ... يـا خـالقي مـن طينـة ومـاء

فهـل يضـيق عفـوك الثـر وقـد ... عـدت الـى حمـاك فـي اسـتخذاء ؟

وتكـاد الـدموع تطفـر مـن عيوننـا ونحـن نسـتقبل مـع (كعـب بـن مالـك) اسـتجابة السماء ... لقد نجح الرجل في الامتحان الصعب وايم الله !!

مـاذا سمعت ؟ (ابشرن كعب بن مـا ... لـك) نـداء ، ام صـدى نـداء ؟

الليـل ولـى والنهـار مقبـل ... واختلطـت معـالم الاشـياء

يـا كعـب هـذا فـارس وذاك را ... جـل يناديـك بـلا ابطـاء

وهمـا ارى ام حلمـا يسـعى الـ ... ـي حـاملا بشـائر النعمـاء ؟

(بشـراك يـا كعـب بـن مالـك بعفـ ... ـو الله وافـاك مـن السـماء

تـاب علـى الثلاثـة الـذين خلـ ... ـفـوا وصـحت ايـة الرجـاء

حتـى اذا ضـاقت علـيهم ارضـهم ... ونفسـهم ضـاقت علـى البلاء

ولـم يظنـوا ملجـا ينجـي مـن الـ ... ـجبـار الا عقـدة الـولاء

تـــاب علـــيهم ليتوبـــوا انـــه مـــا رد تائبـــا بـــلا رضـــاء

ونجتاز الابيات التالية لكي نلتقي بآخرها ... ضربة حلوة ... من الحسناوي :

مـــا اســـعد الضـــائع يلقـــى اهلـــه بعـــد انقطـــاع الرحـــل والرجـــاء

(٩)

للفجر الرابع عشر الذي لا زلنا نعيش اطرافه المتارجحة بين الضوء والظلمة ... يختار الرجل لملحمته بطلين شهيدين : هاشم الرفاعي وابا حسان !!

يريد بقصيدته الاولى ان يرثي الشاعر الشاب (هاشم الرفاعي) الذي اغتيل في ظروف مريبة ... ان (يعارض) نونيته المشهورة التي نظمها وهو في المعتقل يرثي بها نفسه :

ابتـــاه ... مـــاذا قـــد يخـــط بنـــاني والســـــيف والجـــــلاد ينتظـــــران ؟

لكن حر التجربة التي تخلقت فيها قصيدة الرفاعي ... جمراتها ... بعبارة اخرى ، جاءت اشد توهجا واحتراقا ، ومن ثم كانت اكثر (تاثيرية) واعمق شاعرية من القصيدة المعارضة التي تغلب المباشرة والتسطيح على كثير من ابياتها ...

فاما (مصطفى السباعي) ... فقد قدم له الشاعر ، او قدمه لنا ، بعبارة اخرى ، في خمس مقطوعات تلخص لنا ، بلغة الفن ، تاريخ الرجل الذي لا تزال بصماته ، وستظل ، مطبوعة على واجهة العصر ... عطاء البطل الذي لا تزال مواقفه وكلماته ، وستظل ، محفورة في شرايين الفجر الرابع عشر الذي اوشك على انتهاء !!

ها هنا يكتوي الحسناوي بالنار ، فيمنحنا من حر تجربته شعرا دافئا يزداد تالقا والتهابا مع صعود منحنى الرجل الصعب ... في الشام ... في فلسطين ... في مصر ... في وطن الاسلام ... في العالم كله ... حتى اذا ما بلغنا قمة المنحنى ، وتلقى شاعرنا نبا الرحيل المحتوم ... استحالت الابيات رثاء مؤثرا حزينا ...

فاذا تجاوزنا المقطع الاول الذي لايسامت المقاطع التالية ولا يرقى الى مستواها الفني شكلا ومضمونا ... وجدنا انفسنا امام اربعة مقاطع اخرى يقف ثالثها في القمة ولا ريب ... ونقرا منه :

ذهـــب الـــدخيل ولـــم تـــزل اذنابـــه وتغلغلـــت فـــي المـــارقين رغابـــه

فـــي الـــنفس منـــه هيبـــة وقمـــاءة فكانمـــا لـــم تنـــتقض اطنابـــه

الفكـــر فيـــه حـــائر ... متهالـــك يجثـــو لـــه – يـــا للحجـــا – ويهابـــه

والنـــاس : هـــذا معجـــب مســـتعبد او ناشـــز غـــالي ، فطـــار صـــوابه !!

... اراؤنـــا شـــتى يوحـــدنا القلـــى ... وتلمنـــا فـــي النائبـــات نيابـــه

... ضـاعت فلسطين الشـهيدة خلسـة ... والثـــار لـــم توخـــذ لـــه اســـبابه

... لا ثـــار الا للســـباغ الضـــاريا ... ت وللالـــى عجمـــتهم احقابـــه

... في كل صقع سوف نغرس غرسة ... مـــن معـــدن القـــران طـــاب شـــرابه

وبكـــل جامعـــة سنرســـي معهـــدا ... فـــذا يعـــانق شمســـه طلابـــه

فـــاذا رحلنـــا لـــم تـــزل اعلامنـــا ... تحمـــي الـــذمار ، منيعـــة ابوابـــه

ونقرأ في المقطع الخامس :

اتحلـــو لـــي دمشـــق وقـــد تـــولى ... (ابـــو حســـان) كالامـــل الشـــهيد ؟

تـــــولى فالاصـــــائل والاماســـــي ... يتيمـــــات باحـــــداق الوجـــــود

ودربـــــي ذلـــــك الســـــامي اليـــــه ... تطـــاول فـــي الجفـــاء وفـــي الصـــدود

اقلـــــب نـــــاظري طيـــــا ونشـــــرا ... فتطـــــويني وتنشـــــرني قيـــــودي

فمـــــا للـــــدار غامـــــت لا اراهـــــا ؟ ... ومـــــا للبـــــاب يرســـــف بالحديـــــد ؟

وكنـــــت ازوره نهـــــلا وعـــــلا ... فـــــارجع بـــــالنمير وبالرغيـــــد

فاما قصيدتا الديوان الاخيرتان (في الماساة) و (لوحة) ، فما كان اجدر الا تلحقا بالديوان ما دام قد اريد له ان يكون (ملحمة) ... من ثم ، فان تواجدهما ها هنا يمثل خروجا على مقتضيات المنهج الفني لهذه المجموعة الشعرية ، ما كان له ان يكون !!

(١٠)

عموما ... وما اكثر ما قاد التعميم صاحبه الى التهلكة !! لكن المجازفة ممتعة !! عموما فان الموازنة بين العملين تقود الى ترجيح القول بان (الحضور الشعري) (في غيابة الجب) اكثر كثافة منه في (ملحمة النور).

بمجرد ان نخطو عتبات الديوان الاولى نجد انفسنا في حضرة الشعر : الموسيقى ... والاصداء ... والتداعيات ... والصور ... والاخيلة ... والظلال ... والنداوة ... والتواصل الوجداني والتراكيب الجملية ... والتعابير ...

كثيرة هي هذه القيم الفنية (في غيابة الجب) ... اكثر بكثير من تواجدها هناك في (ملحمة النور) ... ونسال انفسنا : لماذا لم يخرج علينا صاحبها بعمل ، او اعمال اخرى ، تعتمد الشعر الحر ، او ما يسمى شعر التفعيلة ، اطارا فنيا ، ما دام ان الرجل هاهنا

اكثر شاعرية منه هناك ، وما دام قد مضى على صدور ديوانه الاول ما يقرب من العقد من الزمان ؟

سؤال لا يملك الاجابة عليه الا (الحسناوي) نفسه !!

الاسلامية في رواية عمالقة الشمال

(١)

يمكن اعتبار (عمالقة الشمال)[١] واحدة من اهم اعمال (نجيب الكيلاني) الروائية ، واكثرها نضجا ، سواء وضعت في صف رواياته الاسلامية المعاصرة (ليالي تركستان ، عذراء جاكرتا ، رمضان حبيبي) ام ادرجت في قائمة معطياته الروائية كافة ... فلنر ...

تعتمد الرواية ضمير المتحدث ، ولهذا طعمه الطيب !! فثمة مناخ شعري مشجي يصنعه هذا الضمير في كثير من الاعمال ... وثمة (حضور) القارىء في قلب الواقعة الروائية ... في صميم مجراها ... فضلا عن انه يحتم على الكاتب اقتصادا في السرد وتركيزا قلما نجدهما مع الضمير الغائب (العالم بكل شيء) ...

(اسمي عثمان امينو ، انحدرت من قبائل الفولاني في شمال نيجيريا ، يقال ان قبائلنا قد اتت مهاجرة من صعيد مصر في قديم الزمان ، وقد كانت لنا حروب وغزوات وممالك في اجزاء كثيرة من افريقيا وفي نهاية القرن الثامن عشر ظهر لنا زعيم مشهور في التاريخ اسمه عثمان دان فوديو ، استطاع ان يوحد قبائلنا ويجعل لها جيشا جبارا تخفق فوقه الوية الاسلام ... وهكذا حكمنا امارات كثيرة منها سوكوتو وكانو وبورنو ... قبر عثمان دان فوديو ما زال حتى الان في مدينة سوكوتو ... لعل ابي سماني باسم عثمان تيمنا بهذا القائد العالم المسلم العظيم ...) (ص ٥).

هكذا تبدا رواية (عمالقة الشمال) ، وتتدفق – من ثم – كواحد من انهار افريقيا ... غزيرة العطاء ... حلوة الطعم ... رائعة الايقاع ...

يحدثنا عثمان امينو ، ونحن – بعد – عند منابع النهر الروائي ، عن مدن نيجيريا وملامح البيئة لكي يفرش امامنا (المكان) الذي ستتدفق على مسرحه الاحداث. يختم العرض باسطر معدودات وتلك ضرورة فنية ، اذ الفنان ليس جغرافيا ، وعليه اذا ما اراد تجاوز الخطر ان يكثف معطيات البيئة باقل قدر من الكلمات.

(لم اتزوج بعد ...) وبهذه الضربة يلج بنا (الكيلاني) عالم ابطاله الخاص ... ومنذ هذه اللحظة وحتى نهاية الرواية ، سيتعانق الخاص والعام ، الانسان والامة ، الضمير والعقيدة ، البطل والتاريخ ، عثمان امينو ونيجيريا ... وسنتابع ماساة هذا البلد من خلال حركة ابطاله ...

---

(١) مؤسسة الرسالة – دار النفائس ، الطبعة الثانية ، بيروت –١٩٧٤.

والتوافق بين الطرفين مرسوم بعناية فائقة ... فلم يشا القاص ان يستسلم لاغراء (التاريخ) فتفقد حبكة روايته شدها وكثافتها وتركيزها وتتميع العلاقات الدرامية بين ابطاله ...

(لم اتزوج بعد ... لماذا ؟ قد يظن البعض ان عدم زواجي حتى الان سببه انني اريد ان اتفرغ للعبادة والدعوة ... لا ... دعني اعترف ... ان الدماء الحارة في عروقي تلهب جسدي ، والزواج نصف الدين ... الزواج نداء الفطرة في اعماقي ...) (ص ٦).

ضربة واقعية ... اليس كذلك ؟ ولكن ، لنترك التعليق الان كيلا نزعج القارىء بمقاطعتنا بين الحين والاخر ، ولنواصل – أولا – عرض الرواية ... ولكن كيف ؟ ان (التلخيص) سيقتلها ولا شك ... ولكن لابد مما ليس منه بد ... ويبدو ان جريمة القتل الوحيدة التي لا يحاسب عليها انسان هي هذه ... تلخيص العمل الفني ... ومن ثم ساحاول ان اخلص من جريمتي باسرع وقت ، لا خوفا من القانون ، فالقانون كما عرفنا لا يعاقب على هذه الجريمة ... ولكن ... تخلصا من الاحساس الثقيل بالذنب !!

(٢)

عثمان امينو رجل نظيف ... داعية للاسلام ... يمارس التجارة ليتمكن من مواصلة الطريق ... يغريه صديقه (نور) بعد لاي بالذهاب الى السينما ، وهناك يتعرف على (جاماكا) ، ممرضة حسناء متنصرة ، يرتجف لمراها ، وينتهي به الامر الى الفرار من المكان ... لكن صورتها ونبضها المثير استقرا هناك في اعمق اعماقه ... فكيف الفرار ؟ **(قد تسالني لماذا لم اتزوج ؟ لاشك ان جاماكا هي السبب ... لاني لو التقيت بفتاة مثلها منذ سنين لتزوجتها على الفور ... لكني لم اكن قد وجدت الفتاة التي تجعلني افكر في الزواج قبلها ...)** (ص ١٢).

بمرور الوقت يزداد تعلقا بجاماكا ، وبمسعى شيطاني من نور تتعلق هي الاخرى به ، وتضع نفسها في طريقه ... وعبثا يحاول الفكاك ...

يرحل الى الجنوب بصحبة قطيع من الاغنام تعاقد على بيعه هناك ، ويطلب منه شيخه (عبد الله) ان يقوم بجولة اخرى في ميدان الدعوة الى الاسلام ، مهمته الاصيلة ، فيلبي ويطيع ... يبيع قطيعه في العاصمة لاغوس فيجد نفسه متفرغا للدعوة ... ينطلق الى قبائل الايبو مع صديق له يدعى عبد الرحيم كان يحرس القطيع ... يستاجران سيارة (لاندروفر) وينطلقان شرقا ... بعد اجتياز مخاطر شتى يصلان احدى القرى الوثنية ويلتقيان باميرها فيرحب بهما ... وفي اللحظة المناسبة يقطع الطريق عليهما مبشر اوربي يدعى (الاب توم) ولكنهما يكسبان التحدي ويحبطان محاولاته الخبيثة لاقامة جدار بينهما وبين اهالي القرية وزعمائها ... فيلجا الى محاولة

الاغتيال مستيعنا ببعض انصاره ، لكن المحاولة تحبط هي الاخرى ، ويصر زعيم القرية على رحيل (توم) بعد اذ انكشفت اساليبه الخبيثة ... كما يصر على قتل الجاني .. الا ان اصرار عثمان وصاحبه على العفو عنه يكون له مردود عميق في نفس زعيم القرية وابنائها ... فيعلنون اسلامهم في جو تسوده المحبة والخشوع ...

في اليوم التالي قفلا عائدين **(كانت احداث الامس تبدو كمعجزة من المعجزات. وقال عبد الرحيم :**

– على مولانا احمدو بيللو ان يعجل بارسال احد العلماء ومدرس الى هنا ... هذا امر ضروري قلت في شرود :

– قد آتي أنا بنفسي لاعيش في هذه الديار الى الابد.

سامحني الله ، فقد كنت في هذه اللحظات اتخيل جاماكا وقد اسلمت وتزوجتني واتت معي لنرعى هؤلاء الشرفاء الفقراء في تلك المنطقة النائية على حافة الغابة العذراء) (ص ٧٤).

وكانفجار المآسي الفجائي قامت حركة (ايرونسي) ، بالاحرى المجزرة الصليبية ، لكي تحصد رأس زعيم الشمال المسلم احمدو بللو ومئات غيره من المسلمين ، ولكي يعلن ايرونسي نفسه حاكما عسكريا على البلاد ... **(وانطلقت بنا السيارة عائدين صوب لاغوس العاصمة ، كان البؤس الحزين يوشح الغابات والليل واصوات الحيوانات الملتاعة ... كان يخيل الي ان اسم احمدو بيللو في الافاق كالصدى الخالد الذي لا يموت ، لقد قتلوا الاغنية الشجية على لسان كل رجل في نيجيريا الغالية ...)** (ص ٧٩).

وبدأ الشمال المسلم يشهد على يد ابناء الايبو الذين صنعوا المجزرة بتوجيه من الاستعمار والصليبية ، بدا يشهد فترة سوداء من تاريخه : اضطهادا ومطاردة وخوفا وتجويعا واعتقالا وتعذيبا.

ووقف المسلمون كالعمالقة في وجه الاعصار **(كان لابد ان تتحول كلماتنا واحتجاجاتنا الى حركة منظمة لتقتلع الانحراف ، وتعود الحياة الطبيعية الى وطني القديم ، ان ساحل العبيد القديم لا يمكن ان تعود اليه العبودية مرة اخرى ...)** (ص ٨٥).

وبين الحين والحين كان عثمان يتذكر جاماكا ، الا ان الاحداث الاخيرة زادت الهوة بينه وبينها عمقا ... انها من الايبو ، والايبو هم الذين صنعوا المجزرة ...

وفي يوم ما تطرق عليه الباب ثلة من العسكر وتسوقه مكبلا الى احد السجون ... هناك حيث غصت باحاته وزنزاناته بعدد كبير من الرجال اغلبهم من الضباط وعلماء الدين وكتاب الصحف والمؤلفين ... **(وابتدات الانتفاضات في الخارج على هيئة تجمعات صغيرة كانت الحكومة العسكرية تضربها بشدة ، واخذ ذلك ينعكس علينا داخل السجن ، اذ بدا المسؤولون**

يسيئون معاملتنا ، بل ويتعرضون لنا بالضرب والسخرية والقسوة ... والمني جدا ان بعض المواطنين في الخارج كانوا يتعاونون مع سلطات الامن الظالمة ، وذكرت اسماء كثيرة منها نور ، وكان المتحمسون منا يقسمون اغلظ الايمان على الانتقام منهم عندما تتاح الفرصة ...) (ص ٩٠-٩١).

وعلى غير متوقع تزوره جاماكا ، وبعد حوار مشحون تعلمه انها اعلنت اسلامها وان ذلك كلفها وظيفتها وامنها ... وها هي تلتقي به بعد بحث طويل فيطرح عليها امنيته بالزواج بعد ان يفك الله اساره **(ورايتها تضحك والدموع في عينيها ، وكادت تتعثر وتنكفىء لدى عتبة الباب ، وبقيت انظر اليها وهي تبتعد ... لقد امتلا قلبي بحبها ... واخيرا عدت في صحبة السجان الى الحجرات الضيقة الكئيبة)** (ص ١٠٢). وما يلبث ان يلحق به هناك ضمن طوابير المساقين الى السجن صديقه عبد الرحيم ، وشيخه عبد الله **(وجريت صوبه ، ولم اعبا بركلات السجانة وقبضاتهم القاسية وهي تهوي على راسي وجسدي واختطفت يدي شيخي لاقبلها واغرقها بدموع الحب والفرح)** (ص ١٠٥).

وكما انفجرت الماسأة أول مرة ، جاء الخلاص اخيرا ، قامت حركة مسلحة فالقت القبض على ايرونسي ورؤوس الفتنة ... **(وتعالت الهتافات والتكبيرات ، واختلطت الانباء ، وفي كل لحظة كان احد العسكر ياتي الينا بجديد ... هذا يوم لا استطيع ان انساه مدى حياتي ... ساتزوجك يا سعيدة (اسم جاماكا بعد اسلامها) وسنذهب الى قبائل الايبو ونزور اهلك وندعو للاسلام من جديد)** (ص ١٣٨).

تم القصاص من القتلة ... وفتحت ابواب السجن الكبير ... خرج عثمان امينو لكي يواصل الطريق ... وكان عليه ايضا ان يصل الى خطيبته سعيدة ... وعبثا ... يبحث عنها في كل مكان ... واخيرا يقال له انها قد عادت الى موطنها الاصلي ، في الشرق ، عند قبائل الايبو ... يتردد عثمان في الذهاب الى هناك بعد ما جرى من احداث ، لكن شيخه يدفعه الى المضي في الطريق **(– لقد اراد الله يا عثمان ان تشد رحالك الى اقاليم الايبو مرة ثانية ... خذ اغنامك ، واتجه صوب لاغوس ، ومنها اخترق الغابات صوب الشرق ... وهناك ستلتقي باخوة احياء وسوف يهتدي على يديك خلق كثير ... وستجدها هناك)** (ص ١٥٠).

بعد شهرين ونصف بلغ عثمان ورفيقه عبد الرحيم المكان الذي تعيش فيه قبيلة جاماكا ... كان الجو هناك ملبدا بالغيوم ... واوجوكو ... الحاكم العسكري للاقليم الشرقي يتململ لإعلان تمرده الذي خططت له المؤسسات الصليبية والاستعمارية والصهيونية ... وكان اهل جاماكا قد تنصروا منذ عدة اعوام .. والذين يتركون الوثنية ويعتنقون دينا جديدا قد يكونون اشد عنفا واستمساكا بعقيدتهم الحديثة من الوثنيين انفسهم.

ويتمكن عثمان وصاحبه – باعمال الحيلة – من الوصول الى جاماكا ... كانت لا تزال على اسلامها ... ولكنها كانت مضطرة الى اخفائه خوفا من بطش اهلها ، ومن وراء ستار كانت تدعو بنات جنسها للدين الجديد ، فاستجاب لها الكثيرات منهن ... ويتم الاتفاق بين عثمان وخطيبته للدخول الى القرية في محاولة لتحقيق الهدف المزدوج : الدعوة والزواج.

بعد جدل طويل يتمكن عثمان وصاحبه من اقناع امير القرية بالسماح لهما بالدعوة المعلنة **(وخرجنا الى الاسواق واماكن التجمعات ندعو ونعلن ، وفوجئت القرية بصورتنا الجديدة ، ولجا الينا الاخوة المسلمون القدماء في فرح غامر ، واخذوا ينقلون عنا كل شيء ، وخرجت النسوة المسلمات اللائي اسلمن على يد سعيدة يغنين ويظهرن ابتهاجهن ...)** (ص ١٦٦).

ويوما يستدعيهم الامير

(– يجب ان ترحلوا بسرعة

– لماذا ؟

– لكي تنجوا بحياتكم ، يجب ان ترحلوا على الفور

– لماذا ؟

– الامر لا يتعلق بكم خاصة

– ما معنى ذلك ؟

صرخ باعلى صوته :

– اما سمعتم عن مذبحة او نيتشا ؟ ان شوارع البلدة منذ امس قد امتلات بجثث ابناء الهوسا المسلمين والقتل لا يكف ليل نهار ... لقد اشتعلت الفتنة ... واوجوكو اعلن الاستقلال وغدا تقوم الحرب ... فروا بجلودكم) (ص ١٦٧).

(... ورجعنا الى سوكوتا ... انا وعبد الرحيم والخادم العجوز ... ولم يكن هناك مفر من ان التحق بالقوات المحاربة ايمانا بوحدة الامة وحريتها ... وانضم ايضا عبد الرحيم) (ص ١٦٩).

(... ومضينا في طريق المعارك المضنية العنيفة ، كانت الحرب هي جل حياتنا ، نمسي ونصبح ونحن نعد لمعركة او نمشط منطقة من جيوب المقاومة ، او ندفن موتى ، او نضمد جرحى ... وكثيرا ما كنت افكر في جاماكا ، اعني سعيدة ، كنت اخاف ان تصيبها رصاصة طائشة ... انها بالنسبة لي تعني الامل في المستقبل الطيب ، تعني امكانية الالتقاء بين الهوسا والايبو واليوروبا وغيرهم من ابناء نيجيريا الام ... كانت رمزا حيا نابضا ولم تكن مجرد حبيبة. ويوم ان وقفنا على مشارف المنطقة التي تعيش فيها كان قلبي يدق ، متى تبدا المعركة ؟) (ص ١٧٥-١٧٦).

وترفع البلدة الرايات البيضاء ، ويتقدم اميرها قائلا (– **جئنا نرحب بمقدم الاشقاء القادمين من الشمال ونحن اصدقاء من قديم وعثمان امينو يعرفنا جيدا ... ويسعدنا ان نقدم لكم كل المعونات الممكنة باسم الوطن الام ، وان يشترك معنا جنودكم في بناء مسجد صغير**) (ص ١٧٧).

وفي لحظة حب عميق يلتقي بخطيبته سعيدة ، ويعلمها ان عليه ان يواصل الطريق مع الجيش المحارب حتى دخول (اينوغو) عاصمة الانفصال ... فتصر على ان ترافقه لتضميد الجرحى والمشاركة في معركة التوحيد والوحدة ، على ان يتم الزواج فيما بعد ... (**قلت وقلبي يدق : هذا اذا لم تطحننا الحرب باحجارها التي لا ترحم ... ابتسمت في انتعاش وقالت : الله معنا**).

ويتم الانتصار ، وتسقط دولة بيافرا المزعومة بهروب اوجوكو زعيم الحركة ودخول عمالقة الشمال عاصمتها محررين ... (**ووجدت عبد الرحيم خارجا من احد المساجد الصغيرة ، وغمغم : هل انتهينا ؟ قلت وانا انظر صوب السماء الصافية التي يغمرها الضياء بعد الظهر : تلك هي البداية ... ولك ان تسالني ما هو النصر الذي اريد ؟ اجل ان تضيء شعلة الايمان قلب الام الكبير ... ان تهتف نيجيريا لله وحده ... هذا هو السلام الحقيقي ، والنصر الكامل الذي علمنيه محمد** (صلى الله عليه وسلم) ... **الايمان والحرية والخلاص والسعادة ...).**

ومضينا في شتى الطرقات نبحث عن سعيدة ، كانت غارقة حتى شحمة اذنيها في مداواة الجرحى البائسين (وقبيل منتصف الليل نظرت الي سعيدة بعينين يخالطهما النعاس وهمست في دهشة :

– ماذا تريد ؟

– الا تعرفين

– كل ما اعرفه ان لدي عملا هنا يستغرق حوالي الشهر

– وبعدها ؟

نظرت الى وجهها يشرق بالسعادة

– وبعدها يا عثمان انطلق في اي اتجاه ، وستجدني وراءك حتى اخر الدنيا ...)

واغمضت عينيها وهي تتكىء على منضدة خشبية معفرة ، وقالت وهي في شبه حلم:

– سيكون كل شيء على ما يرام ، سيغني لنا عبد الرحيم اغنيته الحلوة ، وسنقيم افراحا تستمر اسبوعا في قريتنا الحبيبة ... لقد وعدني الزعيم كما وعدني ابي بانهما سيباركان زواجنا ... عثمان ايها الحبيب الغالي ، سيكون ابناونا اسعد حالا منا ، وسندعو

الى الله في كل بقعة تطؤها اقدامنا. سعيدة وعثمان رمز نيجيريا الواحدة ، وسيدعو لنا الشيخ عبد الله بالبركة والسعادة ، هذا رجل صالح ...

وصمتت عن الكلام ، وانبعثت انفاسها هادئة رتيبة ، فتناولت ملاءة بيضاء نظيفة وسبلتها عليها وجلست الى جوارها وهي نائمة انظر الى وجهها الملائكي ... وبقيت متيقظا حتى الصباح ...) (ص ١٨٢-١٨٤).

(٣)

ان (عمالقة الشمال) غنية بالعناصر الدرامية ... بالصراع الذي يمنح الرواية احدى مكوناتها الغنية الاساسية ... وهو (فعل) لا يتحرك باتجاه واحد ، بل باكثر من اتجاه ... منذ اللحظات الاولى يقفنا (الكيلاني) على هذا البعد في روايته ... (قد يظن البعض ان عدم زواجي حتى الان سببه انني اريد ان اتفرغ للعبادة والدعوة ... لا ... دعني اعترف ... ان الدماء الحارة في عروقي تلهب جسدي ...) (ص ٦). وليس في منطوقنا الاسلامي اي صراع في هذا الاتجاه ... فديننا يدعونا الى ان نطفىء دماءنا الحارة ... اليوم قبل غد ... والزواج كما يردد عثمان امينو نفسه (نصف الدين).

الا ان الصراع هنا ينبثق عن دافع اخر ... العشق الذي انصب دفعة واحدة على جاماكا ... الممرضة المتنصرة القادمة من مناطق الايبو ... ان قبولها والتوحد معها بتجربة الزواج تقف امامه عقبات وعقبات ... بعضها منصوب هناك في اعماق شخصية البطل ، وبعضها الاخر في بيئته الخارجية ، فهو مسلم وهي متنصرة ، وهو من ابناء الهوسا وهي من الايبو ، وهو داعية ملتزم وهي ممرضة لا تعرف حشمة او التزاما ... اما خارج اطار الزواج المشروع فالمسالة مستحيلة ودونها التمزق !!

فها نحن اذن امام احد ابعاد الصراع واكثرها اهمية فنية لانه يمتد الى شخصية البطل نفسه فيشطرها شطرين .. (ابتسامتها ظلت عالقة بخيالي ، حاولت ان استغفر الله واستعيذ من الشيطان الرجيم ، والعن الصدفة التي قذفت بي الى هذا المكان ، والعن نور ، لكن هذا كله لم يمح صورتها من خيالي ، ولم اعد ارى على الشاشة سواها ... وتسللت في هدوء ، تركت القاعة دون ان يشعر بي نور ، وانطلقت الى الشارع الواسع الذي بللته قطرات المطر وجعلته لامعا جذابا ، كنت اجري والهث وقصدت اقرب مسجد في المدينة القديمة واخذت اصلي واصلي واقرا القران ، واذرف الدموع ، قد تسالني لماذا لم اتزوج ؟ لاشك ان جاماكا هي السبب ، لاني لو التقيت بفتاة مثلها منذ سنين لتزوجتها على الفور) (ص ١٢).

والصراع بينه وبين صديقه نور **(جاءني ذات يوم وقال : تعال لنمرح في الاحياء الجديدة في المدينة.**

– حاشا لله ، االخوض في تلك المستنقعات الاسنة ؟

قهقه ساخرا :

– عثمان امينو ... من لا يعرف الشيطان لا يعرف الله !!

– كيف ؟

– خبرني كيف تقاوم الامراض دون ان تخالط المرضى وتعرف ما يشكون من الام ؟

كنت اعرف ان التجول في (سابون غري) مدعاة للشبهة وسوء السمعة ، وان الاقتراب من بيت موبوء قد يلحق بي عدوى المرض ... لكن دافعا داخليا يحرضني على الذهاب ، وصوت خافت في وجداني يصرخ بي : اذهب ، تعلم ، يجب ان تعرف الحياة بكل جوانبها ...

ولاحظ صديقي نور ما اعانيه من حيرة وتمزق فهتف

– لا قيمة لعفتك مالم تكن صامدا في وجه الاغراء. انك لم تر الاثم ومن ثم فانت تفتقد لذة الصراع ...

همست :

– انا اعرفك

هز كتفيه في استهتار وقال :

– انا اشرب واعاشر النساء واقضي اوقاتا ممتعة في السينما ، الجميع يعرفون ذلك.

قلت وانا افر :

– وانا لا اتبع شيطانا

قال :

– اتخاف ؟

ووجدتني اقول في ثقة لا حد لها.

– سآتي معك ...) (ص ٦–٨).

انه في حقيقته ليس صراعا بين رجلين ، ولكنه استمرار – بشكل غير مباشر – لصراع الشخصية الواحدة ... البطل مع نفسه ، ولكنه ياخذ – على المستوى الفني – نمطا آخر.

وفي الخارج ، في المكان ، يتمثل عنصر الصراع بشكل مواز تماما ... صراع بين حيين في المدينة احدهما قديم والاخر حديث ... احدهما شرقي ملتزم والاخر غربي مباح !!

ويمتد الصراع – من ثم – ويتسع ... تتداح دوائره لكي تغطي مساحة الحدث الروائي كله فتمنحه القدرة على الحركة الفنية حتى اخر لحظة ... صراع قبلي بين الهوسا والايبو ...

وصراع ديني بين المسلمين والنصارى والوثنيين ... وصراع مذهبي بين الاسلام والتبشير ... وصراع سياسي بين نيجيريا الام ، والذئاب الاستعمارية واليهودية التي تريد ان تلتهمها ... وثمة – فضلا عن هذا وذاك – صراع المواقف ازاء التجربة الواحدة.

(... كان طيف جاماكا يطاردني في الحاح ... وكنت استريح لخيالها برغم خوفي الشديد ، وزاد ارتباكي وخوفي فاسرعت الى شيخي الكبير (عبد الله) قلت له :

– سيدي وامامي ... في القلب حاجات وفيك فطانة

ابتسم مسبل الجفنين وهمس :

– اي عثمان ... اشواق الانسان لا نهاية لها

– اشواق منحرفة يا مولاي

– ما دمت قد عرفتها فلا تخشها ... اعطيت لها الصادق من الصفات ففيم الخوف والشتات ؟

قلت في قوة :

– اجل ... اشواق ... لكن لها صفة الانحراف

هز الشيخ عبد الله راسه وقال :

– اخلع نعليك ، وانزع طاقيتك ... وانظر الى السماء واهتف (سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم).

وكانت كلمات شيخي امرا لا يرد ... خرجت قبيل الفجر حافيا عاري الراس اضرع الى الله ... شعرت ببرد الراحة ينسكب بين ضلوعي ... الانتصار على نوازع النفس معركة مقدسة) (ص ١٤–١٥).

هذا نموذج من صراع الشخصية ، صراع الذات ... يفور ويفور حتى ليكاد يحرق صاحبه ، وتنتهي المعركة نهايتها الموقوتة في معظم الاحيان بالاستقرار على هذا الجانب في الصراع او ذاك ، اما الحل النهائي فيتحقق يوم ان يتوحد الطرفان ...

وهذا الصراع الذاتي يصل حد الرعب في بعض لحظاته ، خوفا من فقدان التوازن والسقوط النهائي.

(حينما رأيت جاماكا تقف ببابي دق قلبي من الرعب ، ولم استطع ان انطق بكلمة ترحيب واحدة الا بعد وقت ليس بالقصير ...

قالت جاماكا في براءة :

– ليس من المعقول ان اظل واقفة ببابك

– لكن ليس في الدار احد

نظرت الي طويلا نظرة عتاب

– لكنك فيها

– اعني انه من غير اللائق ان استقبل امراة في بيتي

همست في اصرار :

– سوف ادخل

صرخت في جنون :

– في الداخل شيطان

ابتسمت قائلة :

– وترهب الشياطين !

– لا تضيعي الوقت

قالت وهي تدلف في اصرار

– لست بائعة هوى ...) (ص ١٨-١٩).

وفي سياق الرواية المتدفق نستطيع ان نضع ايدينا على حشود من نماذج الصراع في شتى اشكاله وابعاده ... لكنا سنقف عند بعضه كمؤشرات فحسب ، فالرواية كلها – في حقيقة الامر – شاهد على تأجج الصراع في جنباتها كافة !!

كلنا نعرف شراسة الحملة التي تشنها الصليبية التبشيرية في القارة السوداء لكسب الوثنية ومنع الاسلام من الامتداد .. نعرف ذلك تحليلات سياسية وتاريخا ... لكنا ها هنا نلتقي بنماذج فنية تمنح المسالة بعدا حيويا وتزيد الوانها وخطوطها عمقا وتاثيرا ...

(... وليس غريبا ان يثار التساؤل من حولنا كقوم غرباء عن القرية ، ومع ذلك فقد كنت ارى عيني توم النفاذتين تقفان وراء كل سؤال. ان لدي خبرة طويلة بهؤلاء المبشرين الذين يعميهم التعصب احيانا عن الصدق فيعادون الحقيقة اكثر مما يصادقونها ويعزفون على اوتار التفرقة والشر ، ويثيرون الفتن والحزازات. همس عبد الرحيم ونحن نستقر ثانية في بيت الضيافة :

– أرى نذر المتاعب تحوم حولنا

قلت في نبرة اصرار :

– انا اكره التحدي ، لكني هذه المرة مستعد تماما لمواجهة توم

وعاد عبد الرحيم يقول :

– ارى على ملامح وجهه سمات ضابط حرب قديم وليس رجل دين

– ليس غريبا ان يكون كذلك

– اذن فالمعركة بيننا وبينه ستكون حامية الوطيس

– ليكن

قال عبد الرحيم معترضا

– نحن لا نملك شيئا ، اما هو فيملك الكثير

– ماذا تعني ؟

– هو اجنبي وبعض الناس يتبعونه ، ومعه المال والخدمات التي يقدمها لهم ، ثم انه يستطيع ان يوقع الفتن القديمة التي اثارها الاستعمار بين الايبو والهوسا ... وفي ذلك خطر كبير.

– استمع الي جيدا يا عبد الرحيم ... نحن نملك الصدق ... ولينصرن الله من ينصره ... لقد خرجت اساسا في رحلة الى الله ...) (ص ٥٦–٥٧).

(... وفوجئنا ذات مساء بالأب توم ياتي لزيارتنا ، كان يبدو عليه الضيق والكرب ، لكنه كان يحاول ان يتماسك ويظهر بمظهر القوي الواثق بنفسه ، والذي لا يبغي سوى السلام والمصالحة وجلس الى جواري قائلا :

– ان ارض الله واسعة ...

– هذا حق

تنحنح وقال :

– وهناك مناطق كثيرة اخرى في الشرق والغرب ... تستطيع ان تذهب اليها.

قلت في هدوء :

– نحن لا نقتسم الارض ولا نساوم على البشر

– ما قصدت ذلك يا صديقي

– نحن نتحرك بين شعب نيجيريا بمنتهى الحرية

– يا صديقي قد يسيء هذا الى مصلحة الناس هنا

– نحن لا نملك غير الكلمات

– لكن الناس هنا سذج وبسطاء ... قد تتحول الكلمات لديهم الى سهام ورصاص

قلت في دهشة :

– لماذا ؟

– من اجل انك تتدخل في شئونهم

– ما قصدنا ذلك ... نحن نتكلم فمن شاء امن ومن شاء انصرف عنا. لا نعاقب احدا، ولا نعطي مكافاة مادية لاحد ... نحن عابرو سبيل ليس في حوزتنا غير قليل من الطعام وقدرة على السير في الطريق.

ووجدت عبد الرحيم يقبل نحونا بوجهه الاسمر الطويل ويقول :

– أيها الأب الم تفكر يوما اننا قد نكون على حق ؟

قال في اصرار :

– انا مسيحي واعرف الحق من وجهة نظري الخاصة

– قد تكون وجهة نظر الاخرين اصوب ايها الاب توم

نظر الى عبد الرحيم في اشمئزاز وقال :

– الفارق الحضاري بيني وبينكم يمتد الى قرون

ثم استطرد في برود :

– لقد جئنا هنا لنعلمكم كل شيء ... الصناعة والزراعة والجغرافيا ... والدين ... نحن اساتذة ... تلك هي الحقيقة ...

تدخلت قائلا :

– من الشرق ظهر المسيح ... وفي الجزيرة العربية ولد محمد ... وفي مصر ولد موسى ... زادكم عندنا ... ومع ذلك فان البحث عن الحقيقة قضية اخرى لا تتعلق بقوتكم ... هذا ما افهمه .

ودار الحديث شرقا وغربا ، واحتدم الجدل ، واخيرا نظر الاب توم نظرته الخبيثة التي لا تتفق والمسوح التي يلبسها وقال :

– انتم تلعبون بالنار

– الافريقيون يعرفون جيدا ما يضرهم وما ينفعهم

ضحك ضحكة ساخرة وقال :

– سنرى

وعندما انصرف قال عبد الرحيم

– كان الرجل يهددنا

– كل ما اؤمن به ان الطريق الى الله محفوف بالمكاره ...) (ص ٦٨-٧٠ **)**[1].

ونستطيع ان نعثر على شاهد لصراع المواقف في قلب المحنة التي ساقت المئات من مسلمي الشمال الى المعتقلات ، وبدا للوهلة الاولى ان الامر قد استقر نهائيا لصالح حركة ايرونسي وطغمته ... ان المحنة والسجن لهما اشبه بالنار الممحصة تفرز الخبيث من الطيب وتعزل الذهب من التراب.

(... غير ان الامور لم تكن تسير في مجراها الطبيعي ، ان احلامي الكبرى تصطدم من ان لاخر بحقائق مذهلة ووقائع مريرة ، فلقد حدثت ظاهرة جديدة لم نكن نالفها في

---

(١) وانظر الصفحات.

السجن، كنا منذ دخلنا حتى ذلك الوقت نكاد نكون على قلب رجل واحد ، وكان هذا مظهرا من مظاهر قوتنا واصرارنا على السير في الطريق. غير ان بذور خلاف قد نبتت بين السجناء السياسيين كما يسموننا ، فقد ظهر بضعة افراد يجاهرون بما يعانون من ملل وضيق ، ويعلنون تشاؤمهم ، ويزعمون انه لا فائدة من الاصرار على مواقفنا ، اذ ان حركة المقاومة في ظنهم لا تحرز اي تقدم ، وان الحكومة الجديدة قد احكمت قبضتها على البلاد ، وان هناك تاييدا خارجيا يدعمها ويحرسها ، ومن ثم اعلنوا رايهم في الموقف بصراحة وهو انه لابد من التفافهم حول الحكام الجدد والنزول على رايهم واعلان التاييد لهم ، حتى تفرج عنا وتدعنا ننصرف الى حياتنا ، وعلى الرغم من ان عدد هؤلاء المنشقين كان قليلا بحيث لا يزيد على اصابع اليدين والرجلين عددا الا انهم هددوا امن المجموعة وسلامتها واحالوا ايام السجن الى كدر وحزن شديد. وتطور الامر الى مناقشات حادة ، والمصيبة الكبرى ان نور قد انضم اليهم، قلت لنور :

– كيف تجرؤ على هذا التصرف ؟

– لا سلطان لاحد علي ... انا حر ...

– لكنها قضية شعبنا يا نور

– انتم تخدعون انفسكم كما خدعت نفسي بالامس ، ليست هناك قضية ، هناك صراع على الحكم ومن الحمق ان اشترك فيه ، فلن اكون وزيرا في يوم من الايام ، وانت كذلك ، نحن وقود لاطماع الزعماء.

المني حديثه ، كنت ارى على وجهه ملامح شخص اخر غير نور الذي كنت اعرفه ، لم يكن يخجل او يخاف عندما كان يصرح بارائه ، وبلغت به النذالة مداها حينما طلب ورقا واقلاما ليكتب التماسا لرئيس الحكومة ، اعني الحاكم العسكري العام ، كنت اتحرق غيظا وغما ، قلت له :

– تستطيع ان تعيد النظر في الامر

– قررت ان احيا لنفسي ، ان امارس حياتي في الخارج على اي وضع ، لم يعد لاي شيء قيمة

– انت جندي في جيش الحق يا نور

– الملايين في الخارج تستمتع بوجودها ، لماذا انا وانت بالذات نهرع الى ارتكاب الحماقات ، ولو كنت مكانك لاسرعت بتقديم اعتذار مكتوب كي اخرج ... ان جاماكا تنتظرك) (ص ١٠٧-١٠٨)[1].

---

(١) وانظر ص.

والكيلاني لا ينهي كل واحد من هذه الصراعات لكي يتفرغ للاخر ، بل يجعلها تمتد عبر المساحة الأكبر من روايته ... تسير متوازية ومتقاطعة وفي وقت واحد ، منذ البدء حتى المنتهى ... وبهذا تجد الرواية قدرتها على الحركة الفنية وتتجاوز الرتابة والمباشرة والسردية ... فاذا ما حدث وان انطفا صراع ما في مرحلة من مراحل الرواية ، عاد فاشعله من جديد ... فعلى مستوى (التاريخ) ، حيث يختار الرجل السنوات (١٩٦٥-١٩٧٠) زمنا لروايته ، كانت الوقائع الكثيفة المزدحمة تمنحه القدرة على اعادة التوتر ومد الصراع الى اقصى نقطة ... وعلى مستوى الشخصيات كان بمقدوره ان يكيف الحدث الروائي لكي يقود الصراع الى مشارفه النهائية ... عند الخطوات الاخيرة للرواية.

لقاء عثمان بجاماكا – على سبيل المثال – كاد ان يتحقق اكثر من مرة ، ولكن القاص لم يتح له ان ينطفىء قبل ان يمضي به الى نهاية المطاف ... ومن ثم كان يصنع من الاحداث ما يفرق به بين الطرفين ... حتى اللحظات الاخيرة ... كان يتجاوز تنفيذ اللقاء ، بل انه ابقاه كأمل ... كرمز ... على وحدة نيجيريا وتجاوز ماساتها القبلية التي عرف الاستعمار والتبشير كيف ينفذان منها ...

موقف نور ، صديق البطل ، لم ينطلق على خط واحد ويعلن عن نفسه بصراحة ووضوح بل استمر يتلوى ويتعرج حينا ، ويعتدل ويستقيم حينا اخر ... حتى انتهى به الامر الى السقوط النهائي في المراحل الاخيرة من الرواية.

ان (الصراع) بكثافته هذه ، وامتداده الى كافة المستويات ، يجعل من (عمالقة الشمال) واحدة من اكثر اعمال الكيلاني اثارة ونضجا ...

(٤)

والكيلاني في روايته هذه يعرف كيف يوزع لمساته الاسلامية ورؤاه الايمانية على مساحاتها جميعا ، دونما سرد او تكديس قد يقود الى التقريرية او الوعظية ... انه كان يعرف كيف يفيد من لحظات التوتر القصوى ، او من المناخ النفسي الملائم ، لكي يضع هذه اللمسات ويطرح تلك الرؤى ... ان هذه اللمسات وتلك الرؤى تغدو حينذاك استمرار طبيعيا للحظة او المناخ ... يتناغم معهما ويتجاوب ، ويظل – من ثم – يحمل حيويته وتعبيريته الفنية وقدرته على التاثير وذلك ... هو التنفيذ الاكثر براعة لمفهوم (الالتزام).

والالتزام لدى الكيلاني في روايته هذه يتحرك على مستويين ... مستوى العمل الفني بكامله باعتباره رواية (اسلامية) معاصرة تعالج (فنيا) موضوعا (اسلاميا) ... ومستوى اللمسات الاسلامية والايمانية المكثفة والمنبثة هاهنا وهناك تاكيدا لحقيقة اسلامية ، وتعميقا

لموقف ايماني ... ونستطيع ان نحكم مطمئنين بان النجاح الذي حققه هاهنا على كلا المستويين كان اوسع مدى مما حققه في سائر اعماله الاخرى.

(... ولا غوس في الليل تنضح بخطايا كثيرة ... هذه اندية القمار وتلك حانات الرقص والخمر وهناك بيوت الدعارة ، وللاسف كثير من التجار يغرقون في خضم هذه الموبقات وينزفون ارباحهم على مذبح الرذيلة ... العدو يشتري ويبيع لكن كل شيء يعود الى جيبه ، والجماعات السياسية تشتعل تتناحر من اجل منصب وزاري او الفوز بمقعد في الانتخابات العامة ، والفتن بين المسلمين والوثنيين والمتنصرين ، والامور تدار بطريقة شيطانية خبيثة ... لشد ما كرهت لاغوس عاصمتي التي اتمنى ان احبها لكنها الان اصبحت رمزا للمؤامرات والاستسلام والغفلة ... والجميع ضحايا او لعبة متهافتة في ايدي الماكرين والدهاة ...) (ص ٤٢).

وفي هذا المناخ النفسي يضرب الكيلاني ضربته **(... وفتحت حقيبتي لأبحث عن المصحف ، انه الجرعة الشافية التي اشربها كلما تعبت الروح وسقم القلب ، وراودتني الاحزان والاوهام ، ونخر في فؤادي الوهن واستبدت بي الهموم ... وحي العرب للاسف تغير كثيرا ، المسلمون فيه لا يتحدثون كثيرا عن الله ، احاديثهم عن التجارة والمال واسعار البورصة ... كان اباؤهم غير ذلك ، هكذا حدثني ابي ، كانوا يسافرون للتجارة حاملين مصاحفهم ودعوتهم الى الله حتى هدى الله بهم خلقا كثيرا ، اما اليوم فقد تغيرت الحال ، وساءت الامور ، واصبح همهم المال والدنيا ...)** (ص ٤٣).

والشواهد كثيرة ... **(... وعندما هدر الحشد بالشهادتين ظننت انني في حلم ، انه شيء يشبه الاسطورة ، وراء ذلك كله سر الهي لا يمكن كشفه ، نفس السر الذي يكمن وراء اسلام الملايين على ايدي التجار في الهند والصين وشواطىء البحار البعيدة والجزر النائية)** (ص ٧٣).

***

(... وعدت اخيرا الى مدينتي التي يوشحها الاسى العميق ويمطرها الحزن وتعصف بها موجات الوجوم ، عدت الى شمال نيجيريا حيث الرجال العمالقة يمضون منكسي الرؤوس، كسيري النظرات ، والغيظ المكتوم يطل من المحاجر ... الحياة اصبحت مرة المذاق منفرة ، والصحاب متفرقون كل يوجس خيفة من الاخرين ، واي تجمع معناه ان تعرض نفسك ومن معك للسجن او الموت او الشبهات ... البعض فروا الى اماكن نائية واخرون اغلقوا متاجرهم، والحمقى من الايبو يتطاولون في البنيان ويمرحون وكان كل شيء قد دلن لهم ...) (ص ٨٢).

في هذه اللحظات القلقة ، الحزينة ، يضع الكيلاني لمسة اخرى **(... لما دخلت على شيخي في بيته الواسع المتواضع ... اقتربت منه ولثمت يده الكريمة النظيفة الباردة ، وخيل الي ان اهدابه تبللها الدموع ، وبعد فترة قال الشيخ :**

– من قال أن الطوفان أعمى ؟ للطوفان عيون يلتقط بها ما يشاء ليدمره او يغرقه ... وما انطلق الطوفان الا بارادة الله ، واذا بدأ الطوفان قاسيا ظالما عشوائيا ، فتذكروا حكمة الله الكامنة خلف الاشياء ... واذا هلك الشيطان يا ابنائي فلن يكون هناك صراع. ليس القاهر هو الطوفان ولكن القاهر هو الله ... اذكروا ذلك جيدا ، لا تقولوا انتهى امر احمدو بيللو ولكن قولوا اراد الله لقاءه فلبى الشهيد النداء ... نحن لا نسمع هتافه وهو سائر في الطريق اليه ، لكنه لا شك كان يقول : مرحى . مرحى .. هذا يوم اللقاء العظيم ...

اغرورقت الاعين بالدموع ، ثم انسكبت حتى بللت اللحى ، وشهق البعض باكيا ... وصاح شيخنا نافرا :

– لا تنتحبوا ، بل رددوا معي (العزة لله ولرسوله وللمؤمنين) رددوها الف مرة. وما ان انتهينا من الورد المطلوب حتى قلت لشيخي :

– وماذا نفعل ؟

قال :

– سل قلبك ...

قلت :

– في القلب ترتجف امنيات كثيرة ولا تعرف كيف تنبثق

– قل كلمة الحق

– انهم يقيمون في طريقها السدود يا شيخي الجليل

– قلها ولا تخف

– الموت والسجن يترصدان لنا

– هذا هو الجهاد ... بعضنا سوف يفلسف ضعفه ويتقاعس بحجة ان الظروف لا تسمح ، والكفاح قد يكون حماقة ... لا تصدقوا هذه الكلمات لانها الموت بعينه ... الحق لا ينتصر الا بالمجاهدة المستمرة ... لقد تعلمنا ان الموت ليس خاتمة المطاف ...) (ص ٨٢–٨٤).

***

(فوجئت ذات يوم بنور في السجن ... يا الهي ماذا جرى ؟ كانت الكدمات تملا جسمه والدماء تنزف من انفه واثار السياط تبعث في نفسي الاسى ... ضممته الى صدري في حنان وتمتمت :

– لقد قسوا عليك

قال دون اكتراث :

– ليكن انني اتعذب طول حياتي

– سيعوضك الله خيرا كثيرا

ورايته يهز كتفيه في اشمئزاز وقال :

– انا لا اتكلم عن الله ، ولكن يشغلني الظلم الماحق الذي يذل البشر ويمرغ انوفهم في الاوحال.

لم تصادف كلماته رضى لدى فقلت :

– الايمان بالله اولا ؟

– لم نكفر به ، ولكن القضية الان بيننا وبين الطغاة

– بارادته يتم كل شيء يا نور

– اتراه سبحانه يحمل السلاح عنا ؟

– جل شانه ... يوم بدر الكبرى ارسل جنودا لم يرها احد

– اتقارننا يا عثمان بالصفوة الممتازة من صحابة الرسول ؟

كان واضحا انه يعاني من ازمة نفسية لعلها بسبب ما عانى من تعذيب وما تعرض له في حياته من اجحاف واهمال ، ومع ذلك فاني اؤمن دائما ان عزاءنا الوحيد هو الله ... الله هو الذي ينصرنا في حربنا وفي سلمنا ، في السجون وخارج السجون ، انه سبحانه يهيء الاسباب ولابد ان يصدق وعده مع المؤمنين الصادقين ...) (ص ٩١–٩٢).

***

(... واخرجت جاماكا من حقيبتها الصغيرة ورقة ونشرتها امامي ... كانت السطور عبارة عن تعهد بان اؤيد الثورة الجديدة واتبرا من كل ماض سياسي ، وان اسير في ركاب الحكم الجديد ... زاغت نظراتي ثم امسكت بالورقة ومزقتها اربا اربا وانا اقول في عصبية :

– تريدين ان ابيع نفسي للشيطان ؟

– بل اريدك لي

– وكيف تقبلين رجلا تخلى عن مبدئه وشرفه ؟

– اريدك ان تبتعد عن السياسة ، ونعيش نعبد الله في حب

وابتسمت والعرق البارد يتقاطر على جبيني :

– ليست العبادة صوما وصلاة وذكرا فحسب ... ولكن المساهمة في تخليص المظلومين من عباده ونشر العدل والحرية عبادة ... ان شيخي لم يجد الوقت الكافي ليشرح لك كل ما يجب ان تعرفيه عن الاسلام ...) (ص ١٠١-١٠٢).

***

(... حاول بعض الجهلة من جنودنا ان يمازحوا الشابات ، فجن جنوني ، واسرعت باخبار القائد الذي اصدر اوامره بالكف عن هذا العبث ، وقلت فيما قلت لقائدنا :

– سيدي القائد ، اننا ننتصر عليهم بطاعتنا لله ومعصيتهم له ، فلو تساوينا في المعصية معهم لانتصروا علينا ...

فابتسم القائد ثم ضحك ، واخذ جسمه يترنح من شدة الضحك وهو يقول :

– الحرب تسقط بعض القيم يا عثمان

– لكن المسلم ايها الاخ الاكبر لا يفارق قيمه سواء في السلم ام الحرب.) (ص ١٧٤)[1].

***

والرؤى الايمانية التي ينشرها (الكيلاني) هاهنا وهناك ، ترق وتشف حتى تخيل للقارىء ان الرجل يتكلم بلسان المتصوفة ومصطلحاتهم ، وتنث من السحر والعذوبة حتى تغدو شعرا وموسيقى ، فتمنحنا بهذا كله مواقف في الالتزام الفني تنساب الى الوجدان دونما اي قدر من التكلف او العناء ...

(... مات ابي سعيدا كاقصى ما تكون السعادة ، نظر الي عند الموت بعينين دامعتين تشعان ايمانا نبيلا وغمغم : ها انت ترى يا ولدي ان كل شيء الى زوال ، وفي يوم من الايام لابد ان نودع الدنيا ... والمال ... والاحباب. ونذهب الى الحبيب الاعظم لنعيش في رحابه ، ايمكن ان يضحي عاقل باخراه من اجل دنياه الفانية ؟ فلتملا قلبك باليقين ... وعش دائما الله ...

ونام ابي هادئا ، شاحب الوجه ، ولحيته البيضاء كانت تقطر صفاء ... احتبست انفاسه اللاهثة فجاة ثم مات ...

وكانت كلمات ابي الصادقة تتغلغل انذاك في اعماق نفسي وترعش قلبي ، كانت بسيطة قوية مؤثرة ، ويومها صغرت الدنيا بكل ضخامتها في عيني ... ان كل شيء الى زوال،

---

(١) وانظر مزيدا من الشواهد في الصفحات.

فلا معنى لان يسقط الانسان المؤمن صريع البريق والاغراء ... وبعدها تكررت رحلاتي إلى الله ... كنت اخرج في خضم القبائل الوثنية داعيا الى الايمان ... اسلم على يدي خلق كثير ... كانت سعادتي برجل يؤمن اعظم من كسب الاف الجنيهات ...)(ص ١٣-١٤).

***

(... وشرد الشيخ ثم اغمض عينيه وهتف : حي ... قيوم ... علام الغيوب ... اذا نزلت يا عثمان في احراش اليوروبا وظلمات الايبو فابعث بكلمات الله في كل مكان ، وادع البشر هناك الى عبادة الواحد ، وقل لهم كونوا اخوة وحطموا الاصنام الجديدة ... اطلق كلماتك في الصحراء ... في الغابات ... في المناجم ... ولا تخشى الا الله ... وليس من المكتوب هروب ... ولو اجتمع اهل الارض والسماء على ان يضروك بشيء لن يضروك الا بشيء قد كتبه الله لك ...) (ص ٢٤).

(... ولاحظت ان شيخنا عبد الله يحدثنا دائما عن الصبر ، ويحاول ان يفسر لنا معناه الشامل المحيط ، فليس الصبر كما يقول مجرد استسلام ورضى بالواقع ، ولكنه فترة عمل وتفكير وتدبير دون تعجل جني الثمرة. وليس الصابرون كتلا من الاحجار وتماثيل صماء ، ولكنهم اولا واخيرا رجال مؤمنون يصمدون للعواصف ولا تزعزعهم النكبات او توئسهم الكوارث او تنسيهم الاضطهادات الغاية الكبرى التي نذروا انفسهم من اجلها ، وكان يقول :

- عاش نوح عليه السلام يدعو بين قومه الف سنة الا خمسين عاما ... ولم يكن الطوفان شرا ، بل كان عملية تنقية للشوائب ، وكان اختيارا ... لم يرغم نوح احدا على الركوب في سفينته ... اختار الاشرار مصيرهم وهدى الله الاخيار الى مصير اخر. وعندما قال الله : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ عندما حدث ذلك ولد مجتمع الصفوة الطاهرة التي تعرف حق الله ...

قلت لشيخي في شيء من الضيق :

- ومتى ياتي الطوفان يا مولاي ؟

- انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا

- انصبر كما صبر نوح عليه السلام ؟

ابتسم شيخي في رضا وقال :

- سبحانه وتعالى كل شيء عنده بمقدار !!) (ص ١٢٣-١٢٤).

***

(... كانما شحنني شيخي بزاد روحي لا ينفد فشعرت بانني استطيع ان احقق المعجزات ، وافعل المستحيل ، ونظرت الى السجانين عن كثب والى الاسوار العالية الضخمة والاسلاك الشائكة ، نظرت الى ذلك كله فبدا لي تافها لا خوف منه ولا قيمة له ، وتمتمت في يقين انه وحده القوي القاهر) (ص ١٣٨).

***

(... ها نحن نلتقي يا حبيبتي ووراءنا طريق طويل من الاشواك والدماء ، وامامنا طريق آخر طويل لنبلغ الغاية ... طريق لاشك تحفه المكاره الحربية والصراعات الفكرية والافاعي الماكرة ... لكننا بعون الله سننتصر ... قلب المؤمن يا حبيبتي تعنو له الجبال وتطاطىء له القمم وينطلق في ظل الله لا يخاف وعدا او وعيدا) (ص ١٧٨)[1].

***

ولا ينسى الكيلاني ان يضع في روايته بعض الخطوط واللمسات عن المسالة الاجتماعية التي تؤرق الوجدان البشري ، والتي يحسب لها الموقف الاسلامي الف حساب ...

(قلت في شرود : قد اتي انا بنفسي لاعيش في هذه الديار الى الأبد ...

سامحني الله فقد كنت في هذه اللحظات اتخيل (جاماكا) وقد اسلمت وتزوجتني واتت معي لترعى هؤلاء الشرفاء الفقراء في تلك المنطقة النائية على حافة الغابة العذراء) (ص ٧٤).

وثمة حوار يدور بين عثمان امينو وصديقه نور يحمل التعاطف نفسه مع الفقراء والبائسين والايمان بقدرتهم على التغيير :

– ان الملايين التي تربو على الخمسين لن تستسلم لهذا الحيف

قال وقد احتقن وجهه :

– الفقراء الجائعون لا يصنعون نصرا ... انت واهم

قلت في وحدة :

– اذن انت لا تعرف حقيقة شعبنا) (ص ٩٣).

وفي مكان اخر ... يحلم البطل ... بالمستقبل السعيد ... السعادة التي لاتعرف للانانية طعما **(عندما اخرج يا نور ... فساتزوجها وساتعلم منها كيف اعطي الدواء بالمحاقين وكيف اعالج عيوم المرمدين والمحمومين ... وسنفتح بابنا لفقراء المسلمين الذين تزدريهم المستشفيات التبشيرية)** (ص ١٠٤).

---

(١) وانظر مزيدا من الشواهد في الصفحات.

وهو ليس سوى تلميذ مخلص لشيخه الكبير عبد الله :

(وجيء بالطعام ... ونظر الي شيخي وقال وهو يبتسم :

اخاف ان اشبع فانسى الجائع ... هكذا كان يقول يوسف يا ابنائي ... وانا اليوم صائم) (ص ١٢٦).

***

ويمتد التزام (الكيلاني) في (عمالقة الشمال) الى الطرف الاخر في الصراع ... الجريمة والهدم والتخريب والاستغلال ، لكي يفضح هذه المواقف ويعريها ، ويمد يديه مشيرا الى صانعيها ، وصانعوها في الساحة النيجيرية ، والافريقية عموما ، هم الاستعمار والتبشير والصهيونية.

ويبدو ان تناوله لهذا الجانب ليس سواء في تركيبه الفني ... فحينا يجيء لمسات موحية غير مباشرة ، مرسومة بعناية في خلفياتها المناسبة ، وحينا اخر سردا تقريريا وحملات نقدية قاسية اشبه بتلك التي تشنها الاقلام في ساحات الصحافة والاعلام ...

(... تخيلتها تخدم في مقر الراهبات وتلتقط فتات موائد السادة الانكليز وتتعلم الكلمات الانكليزية ، ثم تسقط بين ذراعي نذل ... فوقفت وقلت : ارى ان نفترق ...) (ص ٢١).

فها هم المستعمرون الانكليز يدنسون الشرف ويطمسون على الضوء ويثيرون الشك القاسي فيقتلون بذلك المحبة ويفرقون بين المحبين ... والكيلاني يرسم هذا كله بكلماته القلائل تلك ... ونتابع ...

(فتح الشيخ عينيه وتنهد ثم قال :

– لم يعلموها من الدين الا ان المسلمين في النار ... وان الرقص والشراب والاباحية هي المدنية فهي مدنية خراب ، صنعها فكر سقيم يبغي التدمير ... الشرع يبيح زواجك منها لكن لا تنسى ان مسلمة خير منها ولو اعجبتك.

وشرب الشيخ جرعة ماء وقال :

– كفرة اوربا قد زرعوا في ارضنا الفتن ... المبشرون لا يدعون الى الله من اجل الله، انت تدرك معنى كلامي ... كان الاوربيون وراء كل الفتن والدماء التي اريقت)(ص ٢٣).

وفي مكان اخر يدور هذا الحوار :

(وعاد احمدو بيللو يقول في دهشة :

– لست ادري ماذا يريدون ؟

رد شيخي عبد الله قائلا :

– الطمع

همست :

– اجل

وقال شيخي :

– يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم

ثم نظر الي احمدو بيللو قائلا :

– كلما نظرت الى وجهك يا امير المسلمين ارى ملامح شهيد يقترب من الجنة.

أضاء وجه الامير وقال في سعادة :

– مرحبا ... مرحبا ... هذا يوم المنى ...

الحقيقة انني شعرت بضيق بالغ ، فانا اعرف ان الايدي الاجنبية لن تترك نيجيريا تعيش في سلام وفي نيجيريا ثروات هائلة وامكانيات ضخمة ، وفيها قوة اسلامية تخيفهم ، انكلترا لها اطماع ، وامريكا تتوثب للانقضاض ، وفرنسا تامل في جزء من الغنيمة ... واسرائيل تتسلل ، بل ونجحت واصبح لها خبراء للزراعة وتجفيف المستنقعات في الغرب ... ولها شركة انشاء وتعمير ضخمة اسمها (نيوجيرسال) ... كل ذلك في الشرق والغرب ، اما الشمال فلم يزل مغلقا في وجهها.

وسمعت شيخي عبد الله :

– احذروا اليهود انني اراهم هنا ...

ضحك احمدو بيللو وقال :

– اين هم ؟ لن تطأ اقدامهم ارض الشمال ما دمت على قيد الحياة ... ولسوف احاول ان اضيق عليهم الخناق في الجنوب بالتفاهم مع الحكومات المحلية هناك ... اليهود خطر داهم ...

واردف شيخي :

– انهم هنا ، اراهم في وجوه الكثيرين

– تعني انصارهم ؟

– اجل يا احمدو بيللو ...) (ص ٢٨–٣٠).

... وقال احمدو بيللو :

(المشكلة ليست مشكلة نيجيريا ، ولكنها مشكلة الامة الاسلامية كلها ... لكي تبحثوا عن حل يريح نيجيريا يجب ان تنظروا الى بعيد ... الى الثمانمائة مليون مسلم ... القوة

الجبارة التي تستطيع ان تغير وجه التاريخ وتعيد الحق الى نصابه ، فيسود الصفاء العالم وتختنق الثعابين وينحدر الظلام ...) (ص ٣٠ **).**

وتتوالى من ثم الشهادات ...

(كان الاوربيون يسوقون اسرا بكاملها امامهم كما تساق الاغنام ويحشرونهم في السفن القذرة اطفالا ونساء وشيبا وشبانا ، ويلقون بهم على شواطىء الدنيا الجديدة ... امريكا ... عشرون مليونا صدرتها افريقيا لامريكا على ايدي التجار والقراصنة الاوربيين ... اي عذاب كان يقاسي منه هؤلاء التعساء ، واليوم حلت البضائع والمواد الخام مكان العبيد ... يصدرون البشر واليوم يصدرون جهود البشر ، الافريقي هنا او في امريكا يعمل ويعمل دائما من اجلهم ومن اجل سماسرتهم ، ولا يجني الافريقي سوى القليل ... المضحك ان اوربا حررت العبيد ... نعم ... لكن لماذا ؟ التفسير الحقيقي شيء اخر غير ما يكتبه المؤرخون والمبشرون ... لقد قضت بريطانيا على سوق العبيد حتى ترتفع اجور العمال في امريكا وتقل الايدي العاملة هناك فترتفع اسعار التكلفة .. فلا تستطيع امريكا ان تنافس سلع اوربا ... وكان شيخي دائما يقول انما الاعمال بالنيات ... ما اسوأ نيات المستعمرين ...) (ص ٣٦ **-** ٣٧ **).**

***

(... الدعاة هنا مطاردون ... انهم يصطدمون بعقبات لا يدري احد من اين تنطلق ... كثيرون منهم يبعدون او يصرعون في الظلام ، او يحرمون من فرص الحياة او يطردون من الوظائف تحت اسباب غريبة لا تمت الى الحقيقة بصلة ...) (ص ٤٣**-** ٤٤**).**

***

(... وسمعت (توم) يقول :

- كنت واثقا ان تصرفات المسلمين في الشمال ستجر الوبال والحسرة ... لست ادري لماذا لا تدعون كل اقليم من اقاليم نيجيريا يستقل بنفسه ؟ لتكن الهوسا وحدها في الشمال ... والايبو وحدهم في الشرق ... واليوروبا في الغرب.

صرخت في ضيق :

- كفى يا مستر توم

- انا الاب توم

– انك تسيء الى ابناء الوطن الواحد ... وتذكر انك اتيت لتنشر دينك لا لتخطط لتمزيق الدولة الى دويلات.

قهقه كشيطان ، ورمى بالخبر الذي انقض كالصاعقة

– لقد مات احمدو بيللو !

هتفت انا وعبد الرحيم في صوت واحد :

– ماذا !

قال في بساطة فظة :

– قتله الثوار من الضباط في الشمال هو وزوجته ، وبعد ان قتلوهما احرقوهما بالنار ... وقتل المئات من الضباط والرجال المسلمون ...) (ص ٧٦–٧٧)[١].

***

وعن التسلل اليهودي الماكر **نطالع :**

(... رد التحية بفتور ، لشد ما يضايقني الاستقبال الخالي من الحرارة ، قال بانكليزية غير اصيلة :

– عرفت انك هنا ، كم راسا معك ؟

استغفرت الله ، واخذت اعطيه ارقام القطعان وحالتها العامة. قال بايجاز وهو يجفف فمه بمنديل قاتم اللون :

– بكم تبع ؟

– انت المشتري

– حسنا ... لا اعرف المساومة

وكم كانت دهشتي عندما اخبرني بثمن بخس لم اتعود البيع به من قبل ، فابديت رفضي على الفور وانا اكاد اصفعه ، غير اني كنت متمالكا تماما لاعصابي. يجب ان يكون التاجر صبورا متسامحا فقال وهو يزفر في ضيق.

– لن تجد ثمنا اكثر من ذلك

ووجدتني انصرف عنه ، تركت مائدته ثائرا ، وعدت ارتجف غيظا الى مكاني القديم. مال علي التاجر الاول الذي ارشدني عنه قائلا :

– لا تتضايق

– انه غريب الشان

---

(١) وانظر مزيدا من الشواهد في الصفحات.

– هكذا دائما اليهود

صرخت في دهشة :

– اهو يهودي ؟

– اجل ... اسرائيلي محنك ، وصاحب اكبر شركة لتجارة اللحوم

قلت في اصرار والشرر يتطاير من عيني :

– لن ابيعها له ولو نفقت كلها واكلتها الوحوش

– ستجد مشقة بالغة في بيعها

– ليكن ... سابيعها للجزارين

– بالطبع ... هذا افضل ، لكن قطعانك كثيرة ، وستبذل جهدا كبيرا في المرور على الجزارين ، انت تحتاج لاكثر من خمسين جزارا ...) (ص ٤٠–٤١).

***

(... ولا غوس في الليل تنضح بخطايا كثيرة ، وراءها يكمن المخطط الصهيوني ... هذه اندية القمار وتلك حانات الرقص والخمر ، وهناك بيوت الدعارة ، وللاسف كثير من التجار يغرقون في خضم هذه الموبقات وينزفون ارباحهم على مذبح الرذيلة ، العدو يشتري ويبيع ، لكن كل شيء يعود الى جيبه ...) (ص ٤٢).

***

(... والمشكلة العويصة ان المدافع المضادة للطائرات كانت تشكل خطرا اخر ، وعلمنا بطرقنا الخاصة ان بعض الخبراء الاسرائيليين ، والذين كانوا قبل ذلك ضباطا في الجيش الامريكي ، يوجهون العدو ويمدونه بالمشورة ويساعدونه في التخطيط ...) (ص ١٧١)[1].

***

ان (الكيلاني) في التزامه يعرف كيف يحقق التوازن المطلوب بين الفن والفكر ... بين متطلبات الحبكة الروائية وتدفقها ، ومنحنيات الموضوع وضروراته ... انه – باختصار – يعرف كيف يناغم بين الخاص والعام ، فلا يطغى الخاص ويستاثر فيغدو العمل الفني ترفيهيا محضا ... ولا يمتد العام ويطول فيجعل العمل الفني منبرا للوعظ او كرسيا مدرسيا ... ولا يتسع المجال هنا لعرض شواهد اخرى في هذا الاتجاه ، فضلا عما عرضناه ، ويمكن الاكتفاء باحالة القارىء

---

(١) وانظر مزيدا من الشواهد في الصفحات.

على نماذج من هذا التناغم بين الخاص والعام كواحد من اهم مرتكزات الالتزام الاكثر نضجا[1] ... هذا الى ان الرواية كلها تجيء شاهدا على هذا اللقاء ...

(٥)

شخوص الرواية مرسومة بدقة بالغة ، ملامحها متميزة على المستوى النفسي : طريقة التفكير ، السلوك ، التجربة الوجدانية ... اما الشكل الخارجي فلم يشا القاص ان يتحدث عنه لكي يستكمل الرسم ويمنح القارىء اقتناعا اكبر ... لماذا ؟ لست ادري ... ومع ذلك فان الملامح المادية تبقى مجرد رداء خارجي ... والمهم هو صميم التركيب الشخصاني لابطال الرواية ... الاعماق التي تصطرع وتتوحد وترفض وتريد ...

عثمان امينو ... المسلم الواقعي ... الداعية الذي يتحرق شوقا من اجل عقيدته ... الانسان الذي تضطرب في اعماقه نداءات الفطرة في بعديها : الروح والجسد ، وهو يكافح من اجل التوحد الذي علمه الاسلام اياه ... ولم يشا ان يستسلم للحظات التمزق ... لم يتح لنفسه ان تفقد توازنها يوما ... ظل يكافح حتى النهاية ... الى ان تاتى له الانتصار على كافة جبهات النفس ... وحبه لجاماكا لم يمل به صوب الجسدية ... كما ان انتماءه العقيدي لم يدفعه الى العزلة السالبة والترهبن والانزواء ... على العكس ، كان يجد دائما ان مفتاح حركة المسلم في العالم هو التوحيد الذي يعرف كيف يضم جوانح الشخصية البشرية ويستجيب لنداءاتها كافة وفق الحدود الطبيعية المرسومة لحركة الفطرة.

الشيخ عبد الله ... رغم سمو تجربته الروحية التي تسلكه في عداد زعماء الحركات الصوفية فانه يظل ، وهو في القمة النورانية الشفيفة ، ذلك الرجل الواقعي الفاعل في صميم الحادثة التاريخية ... انه يحب ويرفض ... يفرح ويتالم ... يقاوم ... بالفعل والكلمة ... وينتهي به الامر الى السجن ... رجل في قلب الواقع ، لكنه حتى وهو في اعماق سجنه ، يظل ذلك المؤمن الحر من الخوف والحزن ، والذي لا تتجاوز قيود السجانين كعب حذائه !! وهو ينظر دائما من خلال حريته تلك التي منحه اياها الايمان العميق بالله ، ينظر الى المستقبل بثقة واطمئنان. ان الله مع عباده المؤمنين وليحدث الطوفان بعد هذا ... انه لن يدمر ويعمل في التاريخ عشوائيا لكنه سيغسل ويطهر ويفتح الابواب الموصدة لكي تتدفق الانهار النظيفة في مجاريها ... ان الله مع عباده المؤمنين ، ومن خلال هذه المعادلة ، كان بمقدور الشيخ عبد الله والقلة المؤمنة معه ان تقف ، لا بمواجهة الاعاصير التي اجتاحت عمالقة الشمال فحسب ، ولكن بمواجهة العالم كله ، ومن ثم كان عبد الله بمثابة الجزيرة الخضراء التي يتنادى اليها

---

(١) انظر الصفحات.

الخائفون والمحزونون والمطاردون ، فيمنحهم البركة والثقة والامل والسعادة والاطمئنان ... انه ليس بدعا في تاريخ الايمان الطويل ، انه واحد من اولئك المتصوفة الكبار ، الربانيون لا الرهبانيون – كما يسميهم ابو الحسن الندوي – الذين صنعوا تاريخ الاسلام في افريقيا وفي مساحات واسعة اخرى من العالم ... الشيخ عبد الله شخصية فنية مقنعة ومؤثرة ... ونحن عندما نضعها جنبا الى جنب مع شخصية عثمان امينو ، يتبين لنا كيف يصنع الاسلام الشخصيات المتنوعة ... كيف يرسم الافاق المتدرجة التي يعقب احدها الاخر ويمتد وراءه الى المشارف البعيدة التي يمكن ان يرقى اليها المؤمنون يوما ... كيف يرفض الاسلام التشابهية الصماء والقطيعية البكماء بما انه دعوة الى الحرية !!

نور ... ما اكثر ما نلتقي بنور في كل مكان نذهب اليه او نتحرك فيه ... انه نموذج لموقف المسلم المتارجح في قلق القرن العشرين وفوضاه واعاصيره وعذابه ... ان التوازن والصمود في مواجهة هذا كله لا يتاتى الا للقلة التي ترفض الانحناء والتفكك في مواجهة المحنة، والتي مارست من الجهد الشاق في (تمرين) قدراتها على المقاومة ما جعلها قديرة على الانتصار في المعادلة الصعبة ... ونور لم يكن في هذا المستوى العالي ... لقد ظل هناك في اسفل السفح يتارجح بين السلب والايجاب ، ولم يقم بمحاولة جادة لوقف ماساة تارجحه ، فما لبث ان سقط في نهاية الامر وداسته الاقدام ... لماذا سمي بنور ؟ لست ادري !!

اما جاماكا فاننا لنكاد نراها بام اعيننا ، امراة تقودها المحبة الى طريق النور ... واذا كان الشيخ عبد الله (يوازن) شخصية عثمان امينو على طريق العقيدة والروح ، فان جاماكا توازنها على طريق الوجدان ... ان فطرتها النقية لتتابى على كل محاولات التزييف التي حاول (التبشير) ان يضيعها فيها ... وبالمحبة تكسر الحلقة وتخرج معلنة انتماءها للدين الجديد ، مسهمة بايجابية ونشاط في صنع الاحداث وفق ما تستطيع ان تفعله في حدود وظائفها كانثى ... ثم ينتهي الكفاح القاسي على الطرفين ... عثمان ... وجاماكا ... باللقاء الموعود ، وهو لقاء يحمل شحنات رمزية موحية ... انه لقاء ابناء نيجيريا العذاب والماساة والتمزق ... لقاء الهوسا والايبو تحت ظلال العقيدة السمحاء ...

ثم ... الأب توم ... مبشر ... ماكر ... خبيث ... شهدت الساحة الافريقية ولا تزال المئات منه ، بل الالوف منذ ان ابتليت بطلائع الاستعمار ... هؤلاء ... وهو لا يرتاح للمنافسة الحرة والمجابهة المكشوفة ... انه عندما تضيق به السبل مستعد ان يعتمد اي اسوب لسحق خصومه حتى لو اقتضاه اعتماد اكثرها دناءة وبعدا عن الشرف ... وهو يتكىء في صراعه هذا على قوى الدول الكبرى التي ساقته الى هناك ... وهو يلوح بهذا ، اذا اقتضى الامر ووجد نفسه في حاجة الى حماية ... الى ملاذ ... ازاء زحف الاسلام الممتد – رغم الموانع – الى كل اتجاه ...

***

هناك توازن ملحوظ في الحبكة الفنية للرواية بين السرد والحوار ... وهو حوار مسرحي بمعنى الكلمة : التركيز والتوتر والصراع ... وضمير المتحدث يخرج بنا ، بشاعرية عذبة ، من مقطع حواري الى اخر ... يفرش الخلفيات ويصل بين المقاطع ويسلط الاضواء على المساحات كافة ... على السطح وفي الاعماق ...

وثمة صور فنية اشبه باللوحات يرسمها لنا هذا المتحدث (الشاهد) :

(دارت راسي ، كانت الحجرة خافتة الضوء ، تراقصت الظلال على الجدران ، الشياطين ترقص وتخرج السنة من لهب احمر ، وموسيقى افريقية صاخبة تدق ، وما زال راسي يدور ، وهي ، خيل الي انها ترقص حول نار مجوسية والجواهر المعلقة في جيدها وخصرها تبعث نغما مجنونا وهي ترتطم ، وصرخت : مستحيل ...) (ص ١٦).

***

(وتطلعت الى السماء توشحها السحب الذهبية ، وبدا لي ان قطعة صغيرة من السحاب تضيء ، ودققت البصر فيها ، خيل الي انني ارى وجه (سعيدة) وهي تبتسم وسط السنة اللهب ، ابتسامة صامدة ... ذهبية الاشعاع ... تنبض بالروعة والحب والتابي على الفناء ...) (ص ١٣٦).

***

(ومشيت في المدينة انظر الى بيوتها وحوانيتها ومساجدها وكنائسها ، واتملى الناس في الشوارع في لهفة غريبة ، وكاني مخلوق عائد من كوكب اخر ، لكل شيء مذاق حلو تستشعره روحي ... حتى الاغنام والجمال والجياد والحمير بدت لي مخلوقات لطيفة ... روحي تحلق في كل الانحاء وتسمو الى السحب ... وتتسلل داخل البيوت تعانق الشيوخ والاطفال ... وكل الكائنات ... اية شفافية غريبة اهيم في رحابها برغم العنف الذي يمارس شريعة القصاص) (ص ١٤٢-١٤٣).

***

(ووقفت انتظر اللحظات الموعودة التي طال ترقبي لها ، انها لحظات قصيرة ، لكنها ضخمة ضخامة العمر بما يهدر فيه من انفعالات واشواق عارمة ... الحب الحقيقي يهب الانسان طاقة هائلة تسخر من الخوف ولا تكترث للمخاطر ... وحينما رايتها تقدم تحت ستار الليل ، والقمر يسطع في الافق الصافي ، امتلىء بفيض من الافراح لا يمكنني وصفها او

التعبير عنها ... تراءت النجوم واشباح الاشجار ... والتلال ... وفروع الانهار الصغيرة ... كانها تغني وسط سيمفونية لا مثيل لها ... وخيل الي اني اسمع عبد الرحيم يترنم باغنية الايبو البارعة الفاتنة ...) (ص ١٥٩).

***

(الطريق من (كانوا) و (سوكوتا) الى (اينوغو) عاصمة (بيافرا) الانفصالية ، طريق وعر طويل شاق ، على جانبيه اريقت دماء كثيرة ، وسقط عدد من الشهداء واصبحت الغابات مسرحا للانفجارات العنيفة وطلقات الرصاص المستمرة ، وكانت الطائرات تحلق في الاجواء حاملة الموت والدمار والدماء ، وتنفث الدخان الاسود ، وصمتت الاغنيات الشعبية الجميلة ، اغنيات الحب والنماء والامل والزهور والحصاد ، ودقت في الانحاء المارشات العسكرية المخيفة ، وطبول الحرب يعلو عويلها المتحشرج المزعج ، وعمالقة الشمال يتدفقون صوب الهدف ...) (ص ١٧٠)[1].

***

ويمتد النفس الشاعري الى الحوار نفسه فيذكرنا بروايات (نجيب محفوظ) في الستينات: اللص والكلاب ، السمان والخريف ، الطريق ، الشحاذ ...

(طأطات راسي وقلت :

– بعد يومين سنرحل الى الجنوب ، ستستغرق الرحلة حوالي شهرين ، سنبيع الاغنام ونشتري بضائع اخرى ، وفي الطريق سندعو الوثنيين الى الله ... انا داعية للاسلام قبل ان اكون تاجرا وقال نور :

– رحلة ممتعة ولا شك ... انا في هذه الدنيا عابر سبيل اقطع الطريق قهرا ... امضي حيثما اجد لقمة العيش ، لا اسد اذني عن سماع شيء ، واهتبل الفرصة ولا احرم نفسي من لذة فقد لا تتوفر لي الا مرة. امضي على الهامش دون ضجيج اراقص الايبو واغني مع اليوروبا ... واغوص في مستنقعات المنطقة الشرقية واتوه في ظلام الغابات ...) (ص ١٧).

***

(١) وانظر مزيدا من الشواهد في الصفحات.

(وقال شيخي :

– انظروا الى السماء ... نحن في اخر الشهر العربي ، والظلام دامس والنجوم تقاوم الظلمة ... لكن لا تنسوا القمر ... سوف يسطع عما قريب واذكروا ان بعد الليل نهارا ... هكذا الدنيا ولكنكم قوم تستعجلون.

– يا شيخي ، الطغيان يتوطد والسفلة يسودون

وابتسم وقال :

– عندما يعجز البشر تاتي سفينة نوح ، وتنقض صاعقة مثل صاعقة ثمود ... يا ابنائي ارفعوا راياتكم الخضراء واكتبوا عليها (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) ... (ص ١١٢).

***

(والتفت الي قائلا :

– الا تعرف طريق الحرية ؟

– دائما اريد ان اعرف يا شيخي

التوحيد هو طريق الحرية ... الله وحده هو حاكم هذا الكون وهو المتصرف فيه ... الا بذكر الله تطمئن القلوب ... استغفر الله يا عثمان ، وقم وتوضا فقد اذنت الشمس بالمغيب واقترب موعد الصلاة ، وانظر الى الافق وهو يشيع الشمس وتذكر ربك وسبح باسمه بكرة وعشيا) (ص ١٣٦)[1].

(٦)

ان المسلم المعاصر بحاجة الى مزيد من الاعمال الروائية (الملتزمة) تقوده الى افاق جديدة اخرى من عالمنا الاسلامي الراهن ، وتكشف امام وعيه وعينيه ، وبالاسلوب الاكثر تعبيرا وتاثيرا ، ما يجري في ساحات هذا العالم من هزائم وانتصارات ... وما يتحقق في جنباته الشاسعة من تدمير وبناء ... وحيث لا يعرف المسلم عما يجري هنا وهناك الا القليل ... القليل.

من هنا تكسب روايات (الكيلاني) الاسلامية المعاصرة اهميتها ... لقد قادتنا احداها الى تركستان ، وقادتنا الاخرى الى اندونيسيا ، وها هي ثالثتها تقودنا الى نيجيريا ... ومن منا

---

(١) وانظر.

يستطيع الادعاء بان هذا الذي قصته علينا هذه الروايات كان معروفا ، بهذه الدرجة من التدفق ، والكثافة ، لدى الجميع[1]؟

ان هذه الروايات ، فضلا عن ذلك ، تمنح الاحساس بوحدة الوجدان الاسلامي في العالم كله ، في عصر التمزق والتفكك والتباعد ، وتعيدنا ، بعطائها السخي ، الى مقولة رسولنا ومعلمنا (عليه السلام) (ان المسلمين كالجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) ...

وما اكثر الاعضاء التي تئن وتشتكي في هذا الجسد الجريح ؛ والصوت الذي يمكن ان يسهم اليوم في اسماعنا هذه الشكوى ويجعلنا نحم من اجلها ، لهو صوت جدير بالتقدير حقا ... فلعل حرارة الحمى تهزنا ... ولعلها تطهرنا من جريمة (اللااكتراث) في الوقت نفسه !!

(١) يجب ان لا ننسى هنا الجهود القيمة التي بذلها الاستاذ (محمود شاكر) في اخراج ابحاثه المعنوية بـ (مواطن الشعوب الاسلامية). وانظر كتاب (مأساتنا في افريقيا : وثائق من تاريخنا المعاصر) للمؤلف (مؤسسة الرسالة ، بيروت –١٩٧٨).

تقديم لـ (حدث في شارع الحرية)

في العالم الذي تضيع فيه القيم ، وتتفكك العلاقات وتذوب ... ويجد الانسان نفسه يتحرك متارجحا على ارضية لزجة كالصابون ... يغدو الفن عموما ، وفن القصة على وجه الخصوص ، ضروريا على شتى المستويات ، باعتبار ان القصة تكنيك جمالي مؤثر لحكمة الحياة ... ضروريا على مستوى البحث عن القيم وتاكيد العلاقات ، استعادة او خلقا ... ما دام الموقف الشامل الذي منحنا الاسلام اياه يهبنا هذا القدر الكبير من حرية العمل على ضوء معالمه التي وضعها على جانبي الدرب البشري الطويل الذي لا يكف عن التمخض والتبدل والصيرورة.

وهو ضروري على مستوى (الامل) الانساني الذي يتوجب على الفنان ان يحفره في اعماق بني آدم كيلا يخنقهم الياس ، وتحاصرهم اللاجدوى من كل مكان !

ضروري على مستوى الرفض والغضب والثورة لدنيا تافهة يتحول المنتمون لها الى حشرات او ما يشبه الحشرات ، ياكل بعضها بعضا ويرهب بعضها بعضا !

ضروري كذلك – بما انه ابداع جمالي خالص – على مستوى فك الارتباط القاسي والمحزن بين الناس وبين ضروراتهم الدنيا ونزعاتهم البراغماتية (العملية) المتزايدة ، التي تطوقهم من كل مكان وتسوقهم ، بقوة لا تقهر ، الى ان يتكاثروا بالاشياء ، ويتكاثروا ... ويتكاثروا ، حتى تعوقهم الاشياء وتضع بين احدهم والاخر الاسلاك الشائكة التي لا يمكن اختراقها بحال.

ثم هو ضروري – وهذا هو الاهم – لتحريك الناس في دنيانا ... لهزهم من سباتهم القديم ، لنفض الغبار المتراكم على قلوبهم وافئدتهم ... ونفخ النار التي تعرف كيف تحرق الكينونة وتطهرها في الوقت نفسه.

ان المسلم المعاصر بحاجة الى هذا كله : القيم ... الامل ... الرفض ... التجاوز ... والحركة ...

وكم هو رائع ومدهش ان يمد الفنان يديه ... ان يسهم ، بشكل او باخر ، في المساعدة على هذا العطاء ... في منحنا النار التي تحرق ... والوهج الذي يضيء !!

***

ان ابراهيم عاصي ، يعطينا في مجموعته القصصية الجديدة هذه (حدث في شارع الحرية) ، بعضا من هذا كله. فهو في (مركباتنا تدخل عصر الفضاء) يتحدث وفق اسلوب رمزي – الى حد ما – عن حياتنا الراهنة ... البطيئة ... الرتيبة ... الثقيلة. ويسخر ، ويدفع

قارئه الى السخرية ، من الدوافع الروتينية السخيفة التي تختم على حياتنا هذه بالثقل والرتابة في عصر اسرع فيه الناس في البلدان (الاخرى) الى اجتياز الفضاء ... ونحن ما نزال نشم من خلال بول الشياه الذي يتسرب من اعلى المركبة الضيقة على رؤوس الجالسين رائحة العفن الذي يزكم الانوف ... وفساد الهواء الذي يسد الانفاس ، وكانه عفن حياتنا كلها وفساد هوائها المسموم!!

وثمة عامل كادح من المختنقين يصرخ هناك : (انهم لا يشعرون بشعورنا ، انهم لا يعينهم امرنا ... كل واحد منهم عنده تكسي مثل العروس ، تسابق الريح ، وبعضها بلا لوحات ... بلا جمارك ... اه بس لو ينعصر احدهم هكذا بيننا ولو مرة واحدة !!)

وتلك هي المشكلة. فما دام سائقو مركبات حياتنا الفاسدة هذه لا يعرفون ماالذي يجري في المركبات العتيقة ، فان هذه المركبات ستظل تعاني من البطء ، والاطيط ، والبول ، وفساد الهواء ... وسنظل نقطع المسافة بين مدينتي (أ) و (ب) بشهرين بدلا من ساعتين ! وسيظل ركابها المساكين ينتظرون ان يصلوا اماكنهم وهم يعانون من الاختناق ... والحل الوحيد هو ان تتبدل المركبات والسواق !!

واذا كنا في (مركباتنا تدخل عصر الفضاء) نحس بالاختناق ، ونتلمس الطريق الصعب الى الهواء الطلق ... فاننا في (حادث في شارع الحرية) نحس بالخوف الذي يعرفه الجميع ، ونمد ابصارنا ورؤانا واعصابنا الى اليوم الذي يسود فيه الامن والحرية ، تلك النعمة الالهية الكبيرة ... فلا تدق ابواب عند الفجر !! ولا تضع كل ذات حمل حملها رعبا وهلعا ... ولا ينتزع الابن من امه وابيه ، ولا الزوج من صاحبته وبنيه ... فتتفتت اكباد من الحزن وتدمى ظهور من السياط !!

ان صرخة (الام) تظل تقرع اسماعنا بعد الانتهاء من قراءة القصة وهي تتوسل الى رجل البوليس : (ايدي بزنارك ، انا داخلة على الله وعليك ... يا ابني حرام عليك ... حرام والله ... مالك عرض ؟! مالك اخت او زوجة ؟! اسمع ... اسمع توجعها وانينها !! دخيلك لا تنكبنا ... دخيلك والله بتموت اذا راتكم !! والاطفال ، الاطفال الصغار يجنون !! خذوني انا ... انا بدلا منه ... اما يجوز ؟!).

ولكن ابصارنا واعصابنا ستبقى مشدودة الى يوم (الامن) حيث يظل (المواطنون نائمين) فعلا ، كما يقول رجل البوليس وهو يطلب من الام الا تزعج بصراخها احدا !!

وفي (زيجة فندقية) ، التي يلمح فيها القارىء متانة الحبكة وشاعرية اللغة ، مما لا يلمحه بهذه القوة في عدد اخر من القصص ، نحس ان الفندق هو عاصمة ما من عواصمنا الكبرى ... عواصمنا التي نقلت عن تقاليد الحياة الغربية ، ونقلت ... ونقلت – حتى فقدت وجهها العربي وقلبها المسلم ..

ليس الشرف وحده هو الذي يضيع في هذه الفنادق الكبيرة ، ولكن الانسان نفسه ... الرجل او المراة ، الزوج او الزوجة ... وتختلط الامور ... ويتصل الرجال بغير زوجاتهم والزوجات بغير ازواجهن ... وتحس ان هنالك خطرا كبيرا ، ولكنه مجهول غير محدود ... وتشعر انه لا ضمان ... ولو كنت تملك ذرة من شرف فانك ستنكس راسك خجلا وخوفا واحساسا بالعار ... وتتمنى لو تنشق الارض فتلتهم هذه (العواصم) الضائعة ، هذه الفنادق (المتغربة) ... هذا التمدن الزائف الذي ياخذ فيه كل شيء مكانه الا الانسان وشرف الانسان !!

ان الاحساس بالعار هو الذي يسيطر على القارىء عبر مقاطع القصة كلها ويدفعه الى البحث عن الشرف القديم ... الشرف العظيم ... حيث يعرف الابن من هو ابوه ، وحيث يدخل الزوج على زوجته في احلى الليالي وهو مطمئن الى انها تحمل عذريتها وبكارتها !!

الاختناق في القصة الاولى ، والخوف في الثانية ، والعار في الثالثة ، فما الذي يشهده الانسان (في الطريق الى العاصمة) ؟

الاحتقار ! ان (شريف بك) الذي كان يكيل الوعود للمسافرين معه ويؤكد لهم قدرته على حل مشاكلهم جميعا ، أياً كان شكلها وحجمها ، يتبين في نهاية القصة انه (مدير ناد ليلي للأرانب البرية) ، وانه يقدم هنالك (نمرا غربية وشرقية ... حسناوات من كل القدود وتحت الطلب) ... انه اذن (القواد) المعاصر في مدننا كبيرة ، ذلك المفتاح الذي يدخل على كل الابواب ولا يرد له طلب في عالم يحكمه (المال والخمرة والنساء) ... ولكنه لن ينال من قبل الشرفاء ... بقايا الشرفاء ... في هذا العالم ... الا المقت والاحتقار ... وتتمنى لو يكون (شريف بك) امامك ، اللحظة ، لكي تبصق في وجهه !

اما (في الاعتزال) فانت لا تملك الا ان تضحك .. ان (ابراهيم عاصي) يعتمد هنا اسلوبه في (فن النكتة المكتوبة) الذي يعرفه القارىء جيدا في (ولهان والمتفرسون) و(همسة في اذن حواء) ، وفي (سلة الرمان) الى حد ما ... وتبدو المقابلة الصاخبة بين هتافات الجماهير و (العندليب الاسمر) رائعة ، ممتعة ، باستمدادها التوافقي من مقاطع الاغنيات وعناوينها .. وتبدو المقابلة الصاخبة ، ساخرة ، قاسية ، لانها تعكس في الوقت نفسه ما يدور في الساحات الاخرى ، ساحات الجد التي تتقرر فيها مصائرنا ... حيث ترقص الجوقات هنا ، كما ترقص هناك ، وحيث لن يكون الهتاف والتصفيق والتهريج الا غبارا كثيفا يذره خصومنا في عيوننا لكي يمنعوا الرؤية ويصلو بها الى درجة الصفر !!

***

هذه نماذج من قصص (عاصي) في مجموعته الجديدة وهي ، وبقية القصص ، امتداد طبيعي لمجموعة (ولهان والمتفرسون) و (سلة الرمان) في (واقعيتها) ، وفي روحها (النقدية) المتراوحة بين الجد والسخرية ، والتي تميل بها صوب ساحة (الالتزام) .. لكنه التزام ليس سواء ، فحينا يجيء عفويا متدفقا ، رائعا ، كما في معظم قصص المجموعة ، وبخاصة (مركباتنا ...) و (زيجة فندقية) و (ضد الاعتزال) و (رحلة مع الجمال). وحينا ياتي متكلفا يقرب من (المباشرة) كما في (قصة رسالة) على سبيل المثال ، برغم متانة لغتها.

هنالك محاولات في بناء الشكل القصصي تمنح المجموعة اصالة وتنوعا ، وتبعدها عن ان تسلك نسقا رتيبا متشابها ... فـ (قصة رسالة) تعتمد اسلوب الاعتراف ، و (رحلة مع الجمال) تعتمد تقابل الشخصيات فتمنحها بعدا دراميا ، و (مركباتنا ...) (وزيجة فندقية) تعتمد اسلوب المسرح المركز في تكثيف الزمان والمكان ، واعتمادهما كرموز للاشارة الى العالم الاوسع ... اما (ضد الاعتزال) فمكانها – فيما يبدو – ليس القصة وانما المقال النقدي ، وكان يحسن ان تلحق بـ (همسة في اذن حواء).

و(عاصي) ، بعد ، في مجموعته هذه ، في حاجة الى مزيد من (النفس الشعري) ، المركز ، العميق ، الذي يمنح العمل القصصي النغمة التي تطرب القارىء ، والتوتر الوجداني الذي يهزه ... اننا نجدها لمسات بخيلة في (رحلة مع الجمال) و (زيجة فندقية) ولا شيء وراء ذاك ، حيث تتسطح اللغة احيانا ، كما في (حدث في شارع الحرية) فتقرب من الحديث العادي ، وحيث تتماسك وتعمق احيانا اخرى ، فتملك شدها الفني ومقدرتها التاثيرية.

ومهما يكن من امر ، فما دام حقل الادب والفن الاسلامي بكرا بعد ، فما امس حاجتنا الى مزيد من الاعمال والتجارب ... والى عشرين (ابراهيم) اخر ...

ولن يتعلم الانسان الا من (التجربة).

قاص آخر على الطريق

(١)
تعريف

بدأت صفحات مجلة (الحضارة) تشهد قصصه القصيرة منذ اواخر الستينات ، يقطعها بين الحين والاخر قصائد بلغ بعضها حدا من الابداع لا يسع المرء ازاءها الا الاعجاب[١]... ثم يعود فيواصل كتابة قصصه القصيرة : طريق آخر ١٩٦٩ ، الأمير ١٩٧٠، الورق ١٩٧٠ ، ولما جن الليل ١٩٧٤ ، حينما تلتوي الدروب ١٩٧٤ ، النعجة الصماء ١٩٧٥، المرفا ، الاضحية ، مرآة الضمير ١٩٧٦ ... ويلمح المرء من وراء هذا اصرارا على ان الرجل سيواصل (التعبير) من خلال هذا الاسلوب ... ترى ... هل سيكف عن كتابة الشعر ويتفرغ للقصة القصيرة كلية ؟

يطالعك في قصصه اسلوب عربي متين ، يمتاز ببيانه ووضوحه ، في زمن الركاكة والالغاز ، لولا بعض كلمات ومقاطع عامية تتخلل حواره هنا وهناك ... وتطالعك واقعية مشربة بقليل من اللمسات الرومانسية ، لكن (الموقف) الاساسي يظل بعد هذا واقعيا صرفا ، حيث تبدو (القرية) وابناؤها ارضية لمعظم قصصه ينطلق ابطالها من هناك ، مأسورين في نطاق القرية حينا ، مدفوعين الى مجرى الحياة المتدفق الصاخب في المدينة حينا اخر ، ولكنهم يظلون يحملون نفسا قرويا اقرب الى براءة الحياة الاولى وبساطتها ونقائها.

الحبكة جيدة ، فيها اقتصاد في اللغة وتكثيف للموقف فلا يدعه – الا قليلا – يتسع ويتشعب ، فيتميع ويفقد تماسكه ... القصة القصيرة شيء غير الرواية والقصة الطويلة ... انها أقرب اشكال التعبير الفني الى المسرح ... فهو الاخر ، بدون تركيز الموقف واقتصاد الكلمات ، يفقد قدرته التاثيرية ويبهت ، فيميل الى ان يكون (صورة) اكثر منه (صراعا)!!

لكن ما يلزم (محمود مفلح) هو المزيد من العناية بالعقدة ، ان يجعلها اكثر تشويقا للقراء وشدا لاهتمامهم ... ان يهندس حركة ابطاله وفق خرائط وممرات اكثر تعقيدا وغموضا ، وابعد عن الوضوح والتكشف الذي يحدس فيه القارىء ما سيقع بعد لحظة او لحظات ... ان العقدة الاكثر ابداعا هي تلك التي تحجب النهايات عن تخميناته مهما كان ذكيا قديرا

---

(١) من هذه القصائد : الشراع والموج (عدد ١–٢ سنو ١٢) واتقوا الله (عدد ٥ سنة ١٥) ربنا وتقبل دعاء (عدد ٧ سنة ١٥) المريا (عدد ٩ سنة ١٥) في الغدو والاصال (عدد ١ سنة ١٦) قل لها يا نفس (عدد ٢ سنة ١٦) عشاق الفجر (عدد ٨ سنة ١٦).

على التنبؤ ، تلك التي تجعله يركض مبهور الانفاس ، لكي يطلع ، بصبر فارغ ، على الموقف الذي ستنحل فيه العقدة وتتضح المصائر.

من أول ضربة في العمل القصصي القصير يتوجب ان تفرض العقدة نفسها على القارىء ، وتظل جاثمة على وعيه الظاهر والباطن وهو يتابع السطور تلو السطور ، فلا تكف عنه الا وقد منحته الجواب ... الجواب الذي يستحسن ان يظل بيد الفنان ، يختار اللحظة المناسبة لتقديمه ... لا ان يمتلكه القارىء منذ اللحظات الاولى فاذا ما جاء لم يهتز له ولم يفرح به.

لكن هذا لا يحجب ان (محمود مفلح) استطاع في عدد من قصصه ان يبني مواقف ابطاله على العقد الصعبة الى حد ما وان يمنح هذه القصص طعما الذ واطيب ولا يحجب – كذلك – انه في عدد من قصصه كان يسوق حركة البناء الفني بحيث تخدم الهدف فلا تشذ ولا تنحرف ، وانما تصب كلماته وتعابيره في المجرى العام ، المتوحد ، الذي يشق طريقه نحو المصب حيث تتمزق البراقع وتتكشف المصائر و تنبني القيم والمبادىء التي تتجاوز حدود الزمان والمكان.

وما لنا لا ناتي الى نماذج من قصصه نفسها لكي تحدثنا بنفسها عن الابيض والاسود من معطيات الرجل ؟ في قصة (ولما جن الليل) يحلم البطل بابنة عمه القروية البريئة .. لكن مرضا خبيثا سرعان ما يكتسح صحته وعافيته وقدرته على العمل والكسب ... ويعود بعد رحلة صراع طويلة مع الياس والشك والتردد ، الى القرية البعيدة **(لعله يجد قرب ابنة عمه بعض العزاء وشيئا من السلوى. ولعل حديثها البسيط الخجول يمسح الجرح الذي تركته ايام المرض على جبينه الاسمر الملتهب)** لكن كلمات الاب تجيء لكي تقطع عليه الطريق بصوت كالسكين **(ليس لك عندنا بنات ، واعلم انها لا تريدك)**.

وكثيرون هم اولئك الذين قطعت عليهم كلمات الاباء امانيهم واحلامهم بمن يحبون ... منذ ماساة قيس بن الملوح مع ليلى مرورا بروميو وجولييت وحتى العديد من المعطيات الحديثة ... ولكن مواقف الابطال المازومين كانت تختلف دائما ... فقيس يسلم نفسه للجنون ، وروميو للانتحار ، اما بطلنا فانه في فورة غضب عاتية يقرر قتل الاب وانفاذ مشيئته بالزواج.

لكنه في فجر اليوم التالي ، وهو ينطلق الى دار الاب يحمل شيئا اخفاه تحت معطفه ، يسمع **(صوت المؤذن يشق السكينة ، يدعو الناس الى صلاة الفجر)** وكان صوت الشيطان – بالمقابل – يقود البطل الى **(بركة من دم كان قد صمم على تفجيرها)** لكن الصوت الاول ينتصر على الثاني في نهاية الامر **(كان ... ما يزال قويا يبدد ما تراكم من الظلام في اعماقه ويفرشها باشعة خضراء فنكص على عقبيه وهو يطارد شبح الجريمة من مكان الى مكان بانتظار شمس الصباح)**.

يفرش (اعماقه) باشعة خضراء ...

تلك صورة شاعرية مؤثرة تكاد كلماتها تمنحنا المعنى والضوء .. واننا نقرا ، قبل ذلك ، هذا التعبير **(يداعب خياله الحلم الجميل كوردة رفعت راسها بين الثلوج)** ونقرأ **(وتلك هي اعراف الريف الذي يرى نفسه سنبلة في حقله وقطرة من ينبوعه)** ... ان الرؤية الشعرية هنا تمتد حتى لتجعل البطل – الانسان – يندمج في قلب الطبيعة ، ويذوب في كينونة العالم ، سنبلة في حقله وقطرة من ينبوعه.

ان قدرات القاص الشعرية هي ولا ريب المعين الذي يمنحه القدرة على شحن قصصه وتكوينها بهذه التعابير التي تخرجها من اطار واقعيتها الباهظة الصرفة الى سماوات الشفافية والذوبان والصفاء ...

وهو يعتمد المنولوج الداخلي ، اي حوار البطل مع نفسه ، سيما في المقاطع الاخيرة من القصة ... لكي يطلعنا – بالضرورة – على ما يجري في نفس البطل ، ويسير بالحدث على مرأى منا ، الى نهايته ...

ثمة شيء من المباشرة يرتطم بها القارىء في المقاطع الاخيرة حيث تحول البطل عن رغبته في القتل ... المباشرة التي تضعف في العمل الفني تدفقه الذاتي وتخلقه الحر ، والتي تكاد تختفي في عدد من قصصه الاخرى ...

في قصة (حينما تلتوي الدروب) نلتقي بام فلسطينية مسحوقة بالتغرب والفقر والزمن ... تنتظر عند مغيب احد الايام عودة ابنها (الخائب) الذي جاوز الخمسين دون ان يقدم على الزواج ، والذي اكلت الخمرة والتسكع روحه وجسده ، ورغم ذلك فهي تنتظره وتقلق عليه ، وهو من جهته يحبها الى درجة الالتصاق ، الى الحد الذي رفض فيه ان يصدق معه واقعة موت امه امام عينيه ، ورفض – بالتالي – ان يستلها المشيعون من بين يديه لكي يواروها التراب ... لكنه اضطر اخيرا ان يجري وراءهم وهو يترنح **(وقد جحظت عيناه ، وغطى شعره الطويل نصف وجهه الاعلى ، يهذي بكلماته لكنه لا يدري ما يقول ولا يسلك الا الدروب الضيقة المتعرجة ...)**.

هل ان القاص اراد ان يقول لنا – بالمقابل – ان حبا تائها كهذا لن يعيد للفلسطيني امه الحبيبة ، وان تسيبا وانتحارا ذاتيا كهذا سوف يدفعه دوما الى الدروب الملتوية التي لن تصل به الى هدفه ؟ هل انه اراد ان يقول لنا – كذلك – ان فلسطين الام لن تموت ابدا ما دام ان هناك فلسطينيون اخرون ، وهم الاكثر والاقوى اثروا ان يلتزموا ، وان يتحركوا على الطريق المستقيم ... ان يموتوا عبر هذا الطريق ... بدلا من التسكع والضياع في الطرق الملتوية لكي يكونوا جديرين بالعودة الى امهم من الهلاك وحمايتها ، ومنحها الخلود ؟!

ربما ... ولكن الذي نستطيع ان نجزم به هو ان قاصا جادا يحترم عقيدته وفنه لايمكن الا ان يفرد المكان الاوسع والارحب في معطياته لقضيتنا الاساسية قضيتنا الام ... فلسطين ...

في هذه القصة ، كما في غيرها ، تضرب الفرشاة بين الحين والحين لكي تمنحنا صورة ملونة او تعبيرا شعريا **(... كانت الشمس** – يقول القاص – **زورقا اصفر صغيرا ينساب قليلا قليلا في الافق الغربي ... بعد قليل سيطوي شراعه ويغيب ...).**

وفي هذه القصة – كما في غيرها – نلتقي بمقاطع من الحوار العامي الممزوج بالفصحى حبذا لو يستبدل كله بفصحانا وحدها ... فصحانا الجميلة الشاعرة التي يتذوقها العالم والمثقف ويهتز لها العامل والفلاح ...

أما (مرآة الضمير) فانها تحمل عنوانا كاريكاتيريا ساخرا ... ان الطبيب الذي يتوجب ان يكون ، في مواقفه جميعا ، انعكاسا للضمير البشري ، للانسانية – كما يقولون – يتحول في هذه القصة الى تاجر لا يعرف ذرة من انسانية ، ومحترف لا يملك ضميرا ... انها مراة صدئه اذا ... لا تعكس الا نقيض كل ما هو انساني وكل ما هو من بداهات الضمير ... ان (مراة الضمير) تذكرنا بكثير من قصص ابراهيم عاصي[1] الذي برع فيما يمكن تسميته بالقصة – الكاريكاتير ، التي تعرف كيف تمسك بمشرط النقد الفنان فترسم صور التناقضات المخزية في حياتنا الاجتماعية المكتظة بالتناقضات ، وتجسم جوانب هذا التناقض وفق المنظور الكاريكاتيري من اجل ان تطلعنا على حقيقة ما يجري بوضوح صارخ ... اكثر من هذا ... من اجل ان تجعلنا نتحرك بسرعة لكي نوقف المهزلة ، او على الاقل ، نقف باعمالنا وتصرفاتنا ومواقفنا في الطرف النقيض الاخر ...

والقصة تعتمد ضمير المتكلم ونسمعه يقول **(وانا اذكر انه – اي الطبيب – قد وقف في يوم من الايام يمد يده مقسما انه سوف يؤدي رسالته الانسانية وواجبه الاجتماعي على أتم وجه).**

ويحدث وان يضطر المتحدث الى مراجعة صديقه الذي تخصص بجراحة العيون ... كانت هنالك في صالة الانتظار ست لوحات معلقة على الجدران بعناية فائقة ، ومؤطرة بشكل ينم عن ذوق رفيع ، تنطق بامراض العيون جميعا **(فاللوحة الاولى تصور عينين واسعتين صافيتين اعطبهما رمد خبيث ، والثانية لوحة تبعث على الالم حقا وهي تصور اسوا حالات الحول الذي يغتال الطفولة في اجمل واغلى ما تملك ، وتتعاقب اللوحات ، واحدة بعد اخرى ، تستعرض امراض العيون ...)** ، لكنه ما يلبث ان يجد فوق باب غرفة الطبيب

(١) انظر (ولهان والمتفرسون) و(حدث في شارع الحرية) للاخ ابراهيم عاصي.

(لوحة سوداء صغيرة ذات اطار ذهبي كتب عليها بخط ابيض نافر اسعار المعاينة : في العيادة ٢٠ في المنزل ٥٠ ل . س .).

على حين غفلة يمرق الى داخل الصالة رجلان ، احدهما مصاب في عينه اليسرى اصابة خطيرة ، ويقول مرافقه **(المسكين (عتال) كان عائدا من عمله فاصابه حجر في عينه)** ... كان الامر يقتضي علاجا سريعا ، وكان الرجل **(يصرخ متلويا كانه السنة النيران تصهر المشاعر).** لكن سكرتيرة الطبيب لا تسمح ، وفق تعليمات سيدها الصارمة ، بادخال مريض الا بعد دفع الاجور مقدما ... ومرافق الرجل الذي تبرع بايصاله الى العيادة يتوسل اليها – دون جدوى – ان تدخله الى الطبيب **(يا اختي هذا رجل عتال فقير ... وهو لا يملك شيئا).**

(كانت قطرات الدم المتساقطة من العين اليسرى تتجمع فوق البلاط على شكل بقعة حمراء تتفرع عنها خيوط دقيقة زحفت حتى لامست بعض الاحذية. وما ان ابصرت (السكرتيرة) ذلك حتى انطلقت تصرخ : يا سيد قد اتسخ البلاط بدم صاحبك ، اما ان تدفع الكشفية او دبر راسك) ...

وأخيراً وبعد حوار مؤثر ، اطل الطبيب من باب غرفته **(بقامته الممتلئة المترهلة ، ونظارته الخضراء كثيرة الدوائر ، وقال بكلمات جافة ممطوطة ذات نبرة مترفة وسبابته تشير الى العجوز المصاب كانها تشير الى جرذ يموت : الى الوطني ، الى المستشفى الوطني ، خذوه الى الوطني ...**

وأدار كتفيه صافقا من خلفه الباب) ...

إن القصة عموما تتبنى (موقفا) اجتماعيا : رفض لاخلاقية الترف المرذولة ودعوة لانصاف الكادحين والمسحوقين وحمايتهم ضد النوازل التي افترست ولا تزال الالوف والملايين ... ومن احرى من الفنان المسلم بالتزام هذا الموقف العقيدي ، الموقف الاخلاقي الذي لا ينحرف عنه الا مهزوز الذمة صدىء الضمير ؟! من احرى من الفنان المسلم ، ما دام الاسلام نفسه كان وما يزال ، صرخة بوجه الترف والطغيان واحتضانا لكل الناس الذين يريد الطغاة والمترفون ان يفترسوا وجودهم لكي ياكلوا لقمة اكبر ويشربوا كاسا اكثر !؟؟!

منذ اللحظات الاولى لنزول القران العظيم وهو يصب حملاته التي يتساقط منها الشرر ضد الطواغيت والمترفين ... وادباؤنا وفنانونا ينسحبون من الميدان الاخطر والاهم تاركين المبادرة (لغيرهم) لكي يشدوا اليهم المظلومين وهم دائما الاكبر والاوسع ويسوقوهم الى مصائر لم يكن المظلومون انفسهم ليريدوها او يتمنون الذهاب اليها.

(كانت المدينة تحزم امتعتها – والصيف في اوج غليانه – لتتسلق سفوح الجبال القريبة وتطل منها على بحر من الخضرة لا تحدها شواطىء ... حرم منه اولئك الذين لا يستطيعون الصعود ...) وفي مكان اخر يقول **(انا اعلم ان امواج الغلاء ترتفع يوما بعد**

يوم حتى بلغت افواه الفقراء وقذفت بهم على ارصفة الجوع والموت ، الفقراء الذين كان يقال لهم انهم كانوا يعيشون على الزيت والبصل ، اما الان – يا للشوق – اين منهم الزيت والبصل) ؟!

ولا ينسى القاص هنا ان يلمس بفرشاته هذا الجانب او ذاك من القصة فيمنحها الوانا وتكوينات رومانسية حلوة المذاق **(... وترى من هناك كيف كانت الشمس تطبع اولى قبلاتها على الاشجار والصخور واجنحة العصافير ، وكيف عند المساء كانت تمحو اثار تلك القبلات برفق ليهبط الليل فيكتحل الوجود بسحر حلال ...). (كان المطر وابلا كأن زخاته موسيقا غجرية تبعث في النفس رهبة ونشوة ...).**

في (المرفأ) نجد عملا فنيا امتن حبكة واعمق تاثيرية واكثر نضجا ... قصة شاب من القرية يغادرها لاكمال دراسته الجامعية في المدينة ... يخاف اهله على نقائه ... وهو نفسه يخشى ضياعه اكثر من اهله ... قصة مألوفة اليس كذلك ؟

لكن ما يمنحها الجدة والخصوصية تلك الصور والتعابير التي تلامس تجربة البطل من الداخل وتمنحنا رؤياه ... تجربة كل اولئك الذين غادروا قراهم البريئة الى المدينة حيث يتوجب الصراع (وهذا ما يعطي القصة توترا اكثر) ... ورؤية كل الذين تارجحوا طويلا قبل ان يقرروا الصمود للمحنة او الانجراف مع التيار ...

يقول البطل محاورا نفسه **(انا سمكة صغيرة قادمة من نهر ريفي ، عصفور خجول طار عن شجرة قروية ليحط فوق هذا الاتون)** وما تلبث المدينة ان تتكشف له عن **(بحر هائج تغرق فيه سفن كثيرة ، السمك الكبير في اعماقه ياكل الصغير ، غير ان البحر لا يخلو من الخلجان المامونة ...)** فالانسان الذي يحمل ايمانه بين جنبيه لا يعدم ان يجد ، في قلب الحيرة والقلق والصراع ، جزرا خضراء ياوي اليها ، لا فرارا من العالم ، ولكن تزودا بالوقود الذي يمكنه من اجتياز العالم ببطولة اكبر ، بل من حرقه وتدميره اذا اقتضى الامر ، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ، من اجل ان يصنع عالما سعيدا ... جميلا ...

وهو **(يعيش في قلب المدينة ، ذرة في بحرها ... وصوت خافت يتلاشى في ضجيجها، لقد بدت في عينيه امراة مشغولة باصباغها نهارا ومواعيدها ليلا ، امراة تتفلت لتخرج من بيتها الامن الى حيث لا تدري ... صراخها الحاد كالسكين في اذنيه ... اطلق الدم حارا في شراييه ...)** ...

ولا يسع المرء الا ان يمضي مع (الصورة النموذج) للمدينة ، التي هي في الوقت نفسه رمز مكثف لماساة حضارتنا المعاصرة باليتها العملاقة وروحها القزم ...**(حتى وجوه الناس تبدو وكانها القروش الممسوحة)** ... حقا ان الناس في المدن الكبيرة ليفقدون تميزهم وخصوصيتهم ، وينضاف بعضهم الى بعض كارقام لتحقيق قفزة كمية في معطيات مدينتهم ،

لكنها ليست نوعية على اية حال ، فالقروش الممسوخة تمنح ذهبا ولكنها لا تهب تعبيرا ... و**(ليس في هذه المدينة سوى ارجل تسرع وصدور تعبر)** وان القارىء لا يستطيع الا ان يتذكر هنا صورة الناس في مدينة نيويورك – مع الفارق طبعا – وكما يصفها رحالة مصري، هو انيس منصور في (رحلة حول العالم) حيث الناس يهرعون لايدرون الى اين ، لا احد يعرف احدا ولا يسال احد عن احد ... الكل يركضون **(ارجل تسرع وصدور تعبر)** يا لها من صورة تتجاوز اطار السكون الى الحركة التي نكاد نلمسها باعيننا ونبصرها بايدينا !!

(حتى أصوات الباعة هنا كانها ابواق السيارات ، لعل حناجرهم هي الاخرى قد صنعت من النحاس) مرة اخرى نتذكر الرحالة المصري في نيويورك حيث يغدو الانسان شريط تسجيل ميكانيكي ليس الا : **(وعندما خرجت وجدت نفس الرجل ... ذلك الاعلان المتحرك يعرض اسماء عدد من الفنادق المريحة ... او المطاعم التي يمكنني ان اتناول فيها غذائي في اليوم التالي. وقد زاد من قرفي حماسه الشديد . ولا اعرف بالضبط ما الذي اغاظني فيه ؟ ربما كانت آليته ، اي تحوله الى آلة ، الى شريط مسجل ... الى شيء ليس فيه انسانية ...).**

وفي البحر الهائج ثمة مرافىء ... في عالم الخوف والتمزق والحيرة ، ثمة الامان والتواجد والسكينة ... قبالة عالم المادية الثقيل المبهظ يقف عالم الايمان النوراني الشفاف ... تجاه التحلل والتفكك والهبوط ، تلتمع لنظافة والتماسك والطهر ... ولا اروع من (المئذنة) رمز مؤثر لهذا كله ، يختاره القاص من بين ملايين الرموز لكي يقفنا امامها وهي تمتد عالية شامخة، متحدية الخوف والمادية والتفكك والهبوط ...

ان البحر لايخلو من الخلجان المامونة **(قالها وقد لمع شيء في عينيه ، شيء كانه البرق ، كانه الحلم ، كانه لحظة نيوتن عندما سقطت تفاحته ... مد بصره عبر النافذة الزجاجية ... كانت مئذنة المسجد القريب شامخة ، شاهقة ، مغسولة بوهج المساء ، تعكس احزمة من الذهب اللامع ، ثمة اعداد من السنونو تحوم فوقها سابحة ، مجنحة ، غاطسة ... ابتسم وهو يردد : ما اروعك وانت تشمخين هكذا فوق العمارات وسكانها وفوق الضجيج والصفير ، فوق الارصفة والراكضين عليها ، وفوق الجدران وما تحمله ... في هذه اللحظة تماما انفتحت كوة في جسم المئذنة وانطلقت منها خيول جامحة فوقها رايات خضراء ، الخيول تسرع في كل اتجاه ، الرايات مغروسة في اطراف الارض وحول الرايات تتدفق الينابيع، وتسمو الاشجار ذات الثمار الثقيلة الناضجة ...) ..**

ان القاص يعتمد هنا ما فاته في بعض قصصه الاخرى: تيار الوعي والتداعي .. تداعي الصور والاخيلة والافكار التي كثيرا ما يلجأ اليها القصاصون المعاصرون. انه تكنيك فني مؤثر يمنح القصة بعدا جديدا ، ويعطيها طعما شهيا. ان على الفنان ان يخترق – بين الحين والحين – جدار المنظور ويتجاوز مسلمات المكان والزمان ... ان تندمج في الصورة الواحدة

والموقف الواحد واللحظة الواحدة احداث وتجارب وصور ومواقف تخلقت في ازمان واماكن شتى ... وان يعرضها علينا وقد تكسرت فيها عقارب الساعة ومقياس الكيلومترات ... ان يصوغها بابعادها الجديدة غير ابعادها المالوفة طولا وعرضا وارتفاعا ... بعبارة اخرى ان يجردها من هذه الابعاد ... ان يقوم بتعريتها وصولا الى البعد الاهم والاخطر ... البعد الرابع الذي لا يلمس ولا يرى الا بالعين الاخرى : عين الفنان ، وعيون اولئك الذين يعرفون كيف يتعاملون مع لغة الفن ...

وأحرى بالفنان المسلم ان يتجاوز منطق المنظور والمسموع ... ان يكسر جدار الواقع الاصم الى ما وراء ... الى الافاق البعيدة ... وليس صوت الفن الاسلامي سوى ذلك النداء الشفاف الذي يدعونا للتحرك صوب الافاق البعيدة مع التركيز البالغ الملتزم المسؤول بكل ما هو واقعي يومي منظور ، اذ كيف يقدر المؤمن على التحرك صوب الافاق البعيدة ان لم ينطلق اساسا من عالم افضل ، عالم غير عفن ولا مفكك ولا منخور ؟

ان التداعي – اذا صح التعبير – هو تجميع للاصوات المتنافرة المتناقضة ، كما تبدو اذا ماعوملت منفردة كلا على حدة ... ولكنها اذا تهيات لها اليد الفنانة التي تعرف كيف تحس ، والاذن التي تعرف كيف تسمع ، والعين التي تعرف كيف تنظر وترى ... فانها ستخرجها لنا في وحدة نغمية توافقية (هارمونية) تهز الوجدان ...

ان ملحاً لذيذ الطعم نتذوقه في (المرفا) ، لم نجده بهذه الكثافة في القصص الاخرى ... واحرى بمحمود مفلح ان يطعم واقعيته بين الحين والحين بحفنات من هذا الملح !!

(٢)

تقديم

في متابعة أية مجموعة قصصية يتوجب البحث عن العام والخاص ... عن الوحدة والتنوع ... واذا كان العثور على الخاص المتنوع سهلا ، لان تجربة القصة القصيرة هي في جوهرها ابداع بهذا الاتجاه ... فان وضع اليد على الخط الشامل الذي يمتد الى المجموعة كلها ... الخيط الذي يسلك حباتها في نسق معين ... يغدو امرا صعبا ، لاسيما في مراحل البدايات حيث لا يكون الفنان قد اعطى – بعد – كل ما عنده ، وحيث لم يكن قد تجاوز مرحلة (الاختبارية) بحثا عن الصيغ الفنية الاكثر ديمومة واقناعا وتماسكا ووضوحا ..

ومع ذلك فثمة المضامين التي تصدر عن الرؤية المتوحدة وتقودنا الى (الوحدة) التي تندرج في افاقها الرحبة كافة الخصوصيات والتنوعات ...

ورؤية (محمود مفلح) ، دون ريب ، تنسحب على اقاصيصه جميعا لكي ترفدها بالقيم والمضامين التي تصدر عن اسلاميته كفنان ملتزم ... ولكنها اذ تبعد حينا فتغيب عن العيان المباشر لكي تومض من بعيد فتمنحنا نفسها بلغة الفن التي تشف عما وراءها دون ان تكشف عنه النقاب ، فتزيده حضورا وجدانيا وقدرة تاثيرية هما – في نهاية التحليل – قاعدة كل فن ... اذ تبعد حينا بهذا الاتجاه ، تقترب حينا اخر فتكشف عن نفسها امام عياننا المباشر فتفقد حضورها الوجداني وتاثيراتها وتتحول الى حقائق مجردة قد تخدم علما او تاريخا ، ولكنها لا تصنع فنا !!

ومن منا لم يتأرجح بين المباشر وغير المباشر في معطياته الفنية ؟ من يجرؤ على هذا الادعاء ؟ اكثر من هذا ... ان كبار الادباء والفنانين (الملتزمين) في العالم لم ينجوا بجلدهم من ماساة هذا التارجح ... انها في الحقيقة ماساة الانسان ونسيجه ... فما دام الانسان فكرا وروحا ... جسدا وعاطفة ... عقلا ووجدانا ، فانه سيظل نهبا لهذه الحركة ذات اليمين وذات الشمال ... وعبقرية الدين – ان صح التعبير – هي في قدرته على تحقيق التوحد المرتجى بين القطبين ... ترى ... ايكون بمقدور الفن يوما التحقق بتوحد كهذا في مجال عالمه الخاص ؟

مهما يكن من امر ... فان المضامين ، على تفاوت طرائق التعامل الفني معها ، تعيننا على اكتشاف الوحدة التي تكمن وراء مجموعة من عشر قصص أو عشرين ... فما شأن (التقنية) : لغة وحبكة وحوارا وشخوصا واتجاها فنيا ؟

هل ثمة ما يربطها جميعا ... ام ان كل واحدة منها تنحو نحوها الخاص ، وتتخلق كلا في رحمها ؟

هـا هنـا نسـتطيع ان نـتلمس ونـرى تيـارين فـي مجـرى المجموعـة كلهـا ... التوافـق والتنـافر ... التوافق حيث تتحرك القصص جميعا ، او تسعى ان تتحرك ، وفق تقنية متوحدة متماسكة ، من اجل ان يكون الفنان هو هو في كل قصة من قصصه على مستوى التركيب الفني كذلك ...

الواقعية هنا وهنالك ، واللغة الجزلة التي تخترقها بين الحين والحين لمسات شاعرية ندية في هذه القصة وتلك ... والحوار الدرامي المركز ، والشخوص المرسومة بعناية هنا وهناك ... والحبكة التي تنسج خيوط العمل الفني بدقة واحكام لكي تصل بحركة النول الى غايتها في القصص جميعا ...

لكن محمود مفلح ، رغم جهده للتحقق بهذا الوفاق في قصصه لو ينج ها هنا وهناك ... في هذه القصة او تلك ، من خروج على النغمة التوافقية (الهارمونية) لمجموعته كلها ... خروج قد يمس الحبكة حينا فتفقد اول ما تفقد (عقدتها) ، وماذا تصبح القصة القصيرة اذا ما فقدت عقدتها غير سرد يشبه ان يكون مقالا ؟ وقد يمس اللغة والحوار فيصيبهما اصابات بالغة بالتسطح حينا وبحشر كلمات وتعابير وتراكيب جملية (عامية) ليس ثمة ضرورة لها على الاطلاق ... قد يكون له اجتهاده في هذا المجال ، وقد يحتج بان المستوى الثقافي والاجتماعي لشخصياته الفنية يحتم عليه الا يجعلها نتكلم الا بما يتفق ومستواها ذاك ... ولكنها حجة قديمة ... غير مقنعة ... اليس كذلك ؟ لاننا نعثر على الكثير من الاعمال القصصية العالمية والعربية يدور فيها الحوار بين شخوص من بيئات اختلفت حظوظها ومواقعها في الثقافة والمجتمع ، ولكن لغة الحوار ظلت على مستواها العالي ... ولم يقل احد ان هذا يمثل ازدواجية في الاداء وتجاوزا للصدق الفني في التعبير ... لان اللغة اداة يحتال بها الفنان لنقل عالم ابطاله الخاص الى القارىء او السامع وهذا العالم يمكن ان يعرض علينا نفسه بمفردات وتراكيب اللغة اليومية ، ويمكن كذلك ان يعتمد اكثر الاساليب بعدا عن الاستخدام اليومي ... فالنتيجة هي اننا ، بهذه الحيلة الفنية ، نكتشف عالم الاخرين ، ونتمتع في الوقت نفسه بجمال الاداء الفني ...

والفن هو – بشكل من الاشكال – حيلة لتحقيق التواصل بين التجربة والانسان وفق طرائق هي غير الطرائق الواقعية اليومية الصرفة ... ويوم ان ينسى الفن هذه الحقيقة لا يغدو فنا ولكنه يغدو عملا صحفيا ...

فماذا بشان الشخوص والاتجاه الفني ؟

في احدى رسائله يقول محمود مفلح **(انه في مجموعته هذه سيكون اكثر توغلا في لحم الواقع ...)** ... ولقد كان حقا وفيا لمقولته تلك ... صادقا مع رغبته ...

أشخاصه اختيروا من قلب الواقع ... من القرية والشارع والبيت والمدرسة ... والمناخ الفني الذي تحركوا فيه واقعي صرف ... و (الواقعية) هي واحدة من الملامح (العامة) التي تمسك المجموعة كلها وتمنحها ارضيتها المتوحدة ...

هل ثمة ما يمنع ان يكون الفنان المسلم واقعيا ؟ بالعكس ... ان عليه ان يعايش الواقع وان يحكي لنا عنه بلغته الخاصة ... فالاسلام دين الواقعية ... والمسلم رجل (ديناميكي) يتحرك في قلب الواقع حريصا على حماية قيمه الانسانية والدفاع عنها ... جاهدا – في الوقت نفسه – من اجل تدمير وقلب سائر المواضعات والاعراف والممارسات التي تنتزع من الانسان ادميته التي منحه الله اياها ...

ولكن هناك ، كما هو الحال بصدد الكثير من المواقف والرؤى (خطأ) ما يمارس باسم الواقعية وفد الينا من اداب الغرب ونظرياته النقدية ما كان لنا ان نقع في شباكه ... ذلك هو الالتصاق الكامل بالوقائع الصغيرة والاخلاد الى الارض ... ليس هذا فحسب ولكنهم انحرفوا باتجاه البدائل (المرضية) في الحياة والمجتمع ... وقفوا عندها طويلا والتصقوا بها وقالوا : ان الواقعية تحتم عليهم ان يقفوا هنا ... هنا بالذات ... فكأن الفن اصبح على ايديهم عرضا مستديما للقيء الذي تفرزه معدة عالمنا المريض.

ان الفنان المسلم ، قبل غيره من الفنانين ، يتوجب عليه ان يتمرد على هذه الرؤية المنقوصة للواقعية ...

ان يتحدث عن الواقع ... نعم ... ولكن عليه – في الوقت نفسه – ان يتجاوز المياومات المحدودة الى التجارب الابعد مدى في مجرى الواقع الفسيح ... ان يعبر الجسد الى الروح ... والتراب الى الحركة ... والطبيعة الى ما وراءها ... والغريزة الى الوجدان ... فهو حيثما مضى انما يتحرك – وفق منطوقه الاسلامي – في دائرة الواقع ... ولكنه الواقع الذي يند عن الجحور الضيقة التي يختنق فيها الانسان المعاصر وفنه على السواء ... ويوم ان قال الفاتحون وهم يكتسحون العالم : جئنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا الى سعتها ... ما كانوا (رومانسيين) وما جاوزوا الواقع المشهود ... لقد كانوا يتحركون في صميم الواقع ... وكانت منحتهم الكبرى للانسان هي اخراجه من دنياه الضيقة الى الافاق الرحبة ... وكان الجهاد – بهذا المعنى – عملا تاريخيا ... اي سعيا في صميم الواقع زمانا ومكانا ...

لقد اختار مفلح (الواقعية) ارضية لمجموعته القصصية هذه ... ويبدو انه وقع – بشكل ما – تحت تاثير تكوينه الشعري ، فاندفع الى الطرف النقيض الاخر لا يلوي على شيء ، خوفا من ان يسوقه الشعر الى توظيف القصة من اجل مطالبه الغنائية ... هذه الثنائية التي حكمت الكثير من الفنانين والادباء فجعلتهم يتارجحون ذات اليمين وذات الشمال في سلسلة من الافعال وردود الافعال التي تميزت بالعنف والحدة ... ريثما استقرت بهم التجربة – بعد عناء

طويل – على حال من التوحد الذي يعرف كيف يخلط النسب الفنية في مزيج لوني رائع ، وكيف يناغم بين الاصوات المتنافرة في لحن توافقي باهر ... ولن يستطيع احد ان يحكم على الفنان من تجاربه الاولى ... ولابد من الانتظار ... شرط ان يكون الزمن في خدمة الفنان ، وان يعدنا بالعطاء ...

ان آثار الصراع بينة في معطيات مفلح التي بين يدي القارىء ، فهو يرجع الى الشعر حينا ويهرب منه احيانا ... وها هنا في محاولة الهروب هذه تزداد كثافة الواقعية ، فتجاوز حدها المعقول ، وتتسطح اللغة حتى تكاد تغدو حديثا يوميا ...

إنه ليسع المرء ان يكون معه حيث يرفض تحول القصة الى عرض غنائي صرف ... ولكنه لن يسعه ان يكون معه عندما يبالغ في تجريد (اللغة) من رموزها وايحاءاتها ... من معطياتها اللامباشرة التي تمثل عنصرا اصيلا في التركيب الفني للقصص القصيرة وللرواية على السواء ...

ان الالتزام الفني ليمثل ولا ريب ضغطا على الفنان ، بهذا الاتجاه او ذاك ، لانه يحتم عليه سياقا معينا في المضامين ... وان هنالك حيلة فنية يمكن ان يعتمدها الفنان لتحمل هذا الضغط وتحويله الى تيار من الابداع الفائق ... تلك هي عدم التشنج على مذهب فني واحد في الاداء ، ومحاولة الافادة من معطيات المذاهب الفنية كافة : كلاسيكية جديدة ورومانسية وواقعية وطبيعية وتعبيرية ورمزية وسريالية وميتافيزيقية ومستقبلية ... ان يتحرر من الالتصاق بمذهب فني بعينه ، وان يتنقل بينها بانتقاء موزون كيلا يفقد عمله الفني تناسبه الجمالي المطلوب ...

ولم لا ؟ ما دام ان المذهب الفني هو مجرد اداة للتعبير ، قد ترتبط بالمضامين حينا وقد تنفصل عنها حينا ... انها بمرور الوقت ، وبتجاوزها مرحلة الارتباط بالبدايات تغدو اكثر حيادية وقدرة على التوظف لخدمة اي فكر واي مضمون ..

فماذا لو اعتمد الفنان المسلم تيار الوعي الخاص المتدفق في عالم ابطاله الداخلي ، متجاوزا مقاييس الزمن والمكان والشكل الخارجي للشخصية ، كما يدعو رواد مدرسة (الرواية الجديدة) ؟ ماذا لو توغل في صميم العقل الباطن ... في الحلم ... كما يفعل السرياليون ؟ ماذا لو تجاوز الواقع الى المستقبل والطبيعة الى ما وراءها كما يفعل الميتافيزيقيون والمستقبليون ؟ ماذا لو اعتمد قدرات اللغة العربية الفذة ومفرداتها الموحية المرنة للتكنية (غير المباشرة) عن المعاني والاشياء حينا ، وللتعبير عن المناخ النفسي او المادي للوقائع حينا اخر كما يفعل الرمزيون والتعبيريون ؟.. ثم ماذا لو توغل في صميم الواقع ... في سدي نسيجه ولحمته ، مخترقا ثقله وشده بلمسات وجدانية ندية كما يفعل الواقعيون والرومانسيون ؟

ألم ينفذ مفلح في عدد من قصصه قدرا من هذا التحرر فاغنى واقعيته بمعطيات رومانسية ، دون ان يخرج على قواعد العمل الفني ومطالبه ؟ فلماذا لا يمضي ، هو وغيره ، من

ادبائنا خطوات اخرى صوب الامام فيكونون اكثر حرية واشد قدرة على الاختيار الواعي البصير لادوات العمل الابداعي وتوظيفها من اجل المضامين والقيم والرؤى التي جاءوا لكي يبشروا بها بين الناس بلغة الفن ؟

ان مهمة الفنان المسلم ان يطرح مضامينه الكبيرة باكبر قدر من (التاثيرية). ولا عليه بعد ذلك ان يعتمد هذا المذهب او ذاك ما دامت انها – مرة اخرى – مجرد ادوات للتعبير والتواصل الفني ... وما دامت انها – كذلك – تراثا بشريا مشتركا وليست حكرا على هذه الحضارة او تلك ... ولا ارثا جغرافيا لهذه البقعة او تلك ...

لا نذهب الى النهاية مع (الان روب جرييه) رائد مدرسة (الرواية الجديدة) التي تدعو الى الغاء وجود الزمن في العمل القصصي ، وتفكيك سلسلة الاحداث ، والغاء الشخصيات واستبدالها باخرى لا تملك اسماء ولا وجوها ... ولا ماضيا ولا حاضرا ولا مستقبلا ... وتصفية العقدة والحبكة ... الى اخره ... ولكننا في الوقت نفسه نرفض التشبث التقليدي بالرؤية الفنية احادية الجانب التي تعتمد مذهبا محددا تنسج على نوله.

***

وما لنا الا نرجع الى بعض من قصص صاحبنا لكي نتعرف على ملامحها قبل ان ندلف اليها لنقراها معا ؟

(في الطريق الى العملية) تكرار ، بشكل ما ، لقصة (مرآة الضمير)[1] .. ماساة المرضى المعدمين في بلادنا ... واذا كان الطبيب الذي اقسم اليمين على اداء امانة المهنة يسلم مريضه الى العمى في القصة الاولى ... فان الدولة (بيروقراطيتها) – بعبارة اخرى – هي التي تسوق مواطنيها المرضى الى حتوفهم ...

(... راجع عصام سعيد ... المسؤول في مكتب الدخول

– اسف يا سيد ليس عندنا سرير شاغر

– ولكن هذا بامر الطبيب المختص !؟

– انه مختص بالفحص والمعاينة وليس بادخال المرضى الى الاجنحة ... هذه وظيفتي

– ولكن المريض يموت ... وحاله تستدعي العلاج السريع !!

ابتسم ابتسامة صفراء كسيحة :

(١) سبق الحديث عنهما في بداية هذ الصفحات.

- لا احد يموت حتى ياتي اجله ... ثم احب ان اطمئنك بان الامراض البولية لا تستدعي الخوف.

- ولكن ...

- يا اخي لا تطل الجدال ، لا يوجد في جناح البولية سوى ثلاثة عشر سريرا ، ومن المستحيل ان يفرغ سرير قبل اسبوع ، هذا اذا كان حظك حسنا ، عفوا اقصد المريض.

- والحل ؟

- بيد الله يا اخي

تهالكت على اقرب مقعد في غرفة الانتظار ، واحسست ان عقلي توقف وان كل خلية في جسدي لم تعد تعمل بانتظام ...

امسكت بالصحيفة الملقاة امامي ، قرات عناوينها البارزة دون اكتراث (تم انجاز اكبر صالة للفنون الشعبية بتكلفة قدرها اربعة ملايين ليرة).

كان عمي آنذاك يصرخ ، ويشتم ويتلوى ، وبصعوبة بالغة اقنعت الرؤوس المستطلعة انه يهذي فقط ...)

والمريض - في حقيقة الامر - ليس فقط ذلك الذي يعاني من حصر البول ولا يجد من يطلق سراحه قبل ان يتسمم ويموت ... **المريض** هو كل مواطن يعاني من مشكلة ما ... من استعصائها على الحل ... ولا يجد في جهاز الدولة من يعينه عليه ... المواطن هو الضحية في كل الاحوال ... يقتله الطبيب او يسحقه الموظف الكبير ... ومن ثم فان الواقعية في هذه القصة تتجاوز اطارها المشهود لكي تمنحنا (الرمز) الذي يزيد العمل الفني غنى وامتدادا ...

(ذات يوم مطير) ... صورة مؤثرة (لرجل) من المغرب ... واحد من جيل الرواد الذين قاتلوا الاستعمار الفرنسي بسلاحهم وكلماتهم وسلوكهم اليومي على السواء ... ويبحث القارىء عبر هذه (الترجمة) المكثفة عن مطالب القصة وضروراتها الفنية فلا يكاد يعثر عليها ... لكنه يعثر على شيء اخر ... قد لا يقل اهمية : حرارة الحوار بين ضمير المتحدث القادم من فلسطين ... وبين الرجل المغربي ... وثمة شيء اخر ... اللمسات الرومانسية المعبقة بالشعر ... والتي عودنا مفلح عليها بين الحين والحين :

(... كان المطر غزيرا ، وكان الشارع الاسفلتي يزداد لمعانا ، وكانت الاشجار تنث على الارض حبات كبيرة من المطر الربيعي اللامع ، عندها وقفت اجيل الفكر في اعماق الاشياء لعله يرى ما لا يرى البصر من جمال هذا الكون وجلاله ... اشرعت نوافذ النفس والوجدان لتيار الحب المقدس العظيم ، واشتعلت خواطري ، وعلى البرك الصغيرة المتراقصة امام المسجد الكبير كانت ترتسم صورة الاحبة في الشرق ...).

لكن أهم ما في القصة انها تضعنا امام تقابل مؤثر في المكان والزمان : المغرب وفلسطين ... الشيخ الذي ادى دوره والشاب الذي ينتظر ... والارضية التي يرتسم عليها هذا التقابل هي هذا الدين العظيم الذي اكرمنا به الله ... شعلة الايمان المقدس بالدور الخالد يتسلمها الابناء عن الاباء ... يمضون بالشوط في مشارق الارض ومغاربها ...

ورغم التوجيه الفكري الصارم في (القرار) ... رغم اعتمادها (موضوعا) كثر النسج على منواله ، فان قوة شخصية الزوجة وقدرتها على الثبات في موقعها المضيء ازاء الظلمة العفنة التي كان زوجها يتمرغ فيها ... والنهاية الندية للصراع القاسي بين الطرفين ... تمنح القصة طعما طيبا (**... اغلق كوة الاسئلة باحكام ، على حين بدا ينسج قرارا حاسما ... كالسيف يلمع في احشاء الظلام ... نظر الى كوثر ، تشابكت النظرات بحنان ، رفت على الشفاه ابتسامتان صافيتان ، فامتلات الحجرة نجوما صغيرة ، وسنابل هدى وتوبة وايمانا**).

في قصة (والعصر ...) يرثي القاص – اغلب الظن – ابنته ميسون ... ولا يملك القارىء ازاء الصدق المتدفق في كلماته ، والدفء الذي يمتد الى لحظتي الفرح والحزن ، الا ان يتقلب هو الاخر بين الحزن والفرح ... قصة واحدة من البراعم الصغيرة التي تتفتق منتشية على ضفاف نهر الحياة المتدفق ... ثم ما تلبث ان تذوي ... وتموت ... ويبدو ان القاص لم يشا ان يتعذب طويلا ، فاختزل لحظات الموت اختزالا لا يكاد (يتناسب) مع المدى الطويل الذي منحه وهو يتحدث عن لحظات الحياة ... وتنتهي القصة وصاحبها (**... ما يزال يجلس خلف مكتبه كالتمثال يتساءل كيف غابت ميسون ... وشريط ذكرياته معها يكر ويكر ...**) ...

ونجد في (الأرض) اضاءة جديدة عن معطيات العمل الفدائي ... ان البطل ها هنا لا يذهب لكي يقطف رؤوس بني اسرائيل ولكن ليسترد بعضا من الثروة التي سرقوها ... (**... ولولا ذلك الفجر لظلت القرية غافية في سبات عميق لا تدري شيئا ... ذلك الفجر عندما استيقظت على احمد ووجهه يقابل وجه الشمس يسوق قطيعا من البقر الفلسطيني الذي كان محتلا ! وهل تنس القرية كلها طعم اللحم الطازج طوال اسبوع كامل ؟ من يومها فقط انكشف سر احمد وبدات القرية تضطرب بحديث البقر المجلوب**).

ولغة القصة مسطحة اكثر مما يجب ... لولا عبارة او عبارتين (**... قبل ان يرتد الصدى كانوا يهبطون السفوح الغربية متابعين الخطو في عمق الارض ، ليزرعوا في رحم الليل بذور النهار**) ... ولولا مقاطع من الشعر الغنائي منحتها طعما عذبا ... وثمة تفاوت شاسع بين اللغة هنا وبينها في (الدراجة) و (رسالة من مدريد) اللتين تعيداننا الى المغرب كرة اخرى ، واللتين يحاول فيهما القاص ان يكون اكثر توغلا في صميم الظواهر والاشياء ...

لن نطيل على القارىء بمزيد من التفاصيل والاحكام ... ولندعه يمارس هو الآخر تعاملا مباشرا مع المجموعة التي بين يديه ، والتي نرجو ان تعقبها اعمال اخرى ... على الدرب الطويل ... واننا بانتظار المزيد من الثمار ...